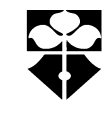
شــعراء راحلــون
من جنوب لبنان

شــعراء راحلــون
من جنوب لبنان

الشعراء	المحاضرون
الشيخ عبد الحسين صادق	عبد المجيد زراقط
الشيخ ســليمان ظاهــر	علــي ســلــوم
محمــد علــي الحوماني	مــريــم حمــزة
بولــس ســلامــة	أحمد أبــو ملحم
عاطــف كـــرم	علـــي هـــاشــــم
محمد رضا شرف الدين	حسين شرف الدين
موسى الزيــن شــرارة	إحســان شــرارة
فـــؤاد جــرداق	شــفيق البقــاعي
عبد الحسين عبد الله	فــؤاد مــرعـــي
عبد المطلب الأميــن	محمد زينو شومان

إشراف وتقديم: حبيب صادق



المجلس الثقافي
للبنـان الجنوبي

بالتعاون مع وزارة الثقافة



بيروت عاصمة
عالمية للكتاب

- شعراء راحلون من جنــوب لبنــان
- عشر محاضرات عن عشرة شعراء راحلين
- إشراف وتقديــم: حبيــب صــادق
- خطوط الغلاف للخطاط علي عاصي
- إصدار المجلس الثقافي للبنان الجنوبي

بالتعاون مع وزارة الثقافة

في إطار احتفالية "بيروت عاصمة عالمية للكتاب"

- مراجعة النصوص: فوزية فواز المطر
- صف كومبيوتر: جميلــة ســبيتي
- الطبعة الأولى ــ بيروت 2010

جميع الحقوق محفوظة

للمجلس الثقافي للبنان الجنوبي

المجلس الثقافي للبنان الجنوبي ــ المقر المركزي:

العنوان: بيروت ــ شارع المزرعة ــ خلف محطة بدران

الهاتف: 01/703630 ــ تلفاكس 01/815519

البريد الإلكتروني: Admin@althakafi-aljanoubi.com

الموقع الإلكتروني: www.althakafi-aljanoubi.com

الإهـــداء

تحية وفاء وإكبار إلى أرواح جميع الشعراء الراحلين الذيـن أنجبتهـم تـلك الأرض المتـرعــة بعيـون الشــعر والمضمخة بدم الشهداء، ارض جبل عامل، جنوب لبنان.

حبيـب صـادق



هذا الكتاب الجديد الذي نعتزُّ بإطلاقه، اليوم، وقفاً، بكامله، على مَنْ أنجبهم الجنوب اللبناني، جبل عامل تاريخياً، من كتَّاب وكاتبات، وعلى ما أنتجه هؤلاء المبدعون من آثار كتابية متنوِّعة في صنوفها ومواضيعها والصياغات.

هذا الكتاب الجديد ليس الكتاب الأول الذي نعدُّه، وقفاً على أمر الكاتب وأمر الكتاب في الجنوب، بل هو مجرد حلقة جديدة، من سلسلة كثيرة الحلقات موقوفة على هذين الأمرين الجليلين، وقد احتلَّت هذه السلسلة منزلة الصدارة في أسرة منشورات المجلس الثقافي للبنان الجنوبي التي بلغ عددها، لتاريخه، ثمانين كتاباً متنوِّعاً شكلاً ومضموناً.

وحسبنا للتدليل على صحة ذلك أن نستعرض معاً عناوين المسلسلات التي قدَّمناها، تدريجياً، في المجلس، سحابة أعوامه الخمسة والأربعين، وقُيِّض لنا أن ننشرها، تباعاً، بدعمٍ ثمين من بعض دور النشر، المتعاطفة معنا، أو من أفراد أصدقاء، يتحلُّون بقِيَم الشَّهامة والمروءة ويقدِّرون ما يقدِّمه المجلس، منذ إنشائه (1964) من خدمات وازنة للجنوب على الصعيد الثقافي في شتى مناحيه وأبعاده.

إنَّ عناوين هذه المسلسلات، ذات الدلالة، هي:

1 ــ "**من التراث العاملي**" وهي جملة مخطوطات عاملية عثرنا عليها، بعد بحثٍ طويل وتقصٍّ مرهق، ونشرناها، الواحدة بعد الأخرى، فور تحقيقها الدقيق وتقديمها بكلمة تمهيدية وافية. وقد بلغ عدد ما نشرناه منها، لغاية اليوم، ست عشرة مخطوطة بالغة الأهمية. وهي مشرعة الباب

لاستقبال المزيد منها لكثرة المخطوطات العاملية، ذات القيمة التراثية الثمينة.

2 ــ "**وجوه ثقافية من الجنوب**" وهي مجموع دراسات أدبية معمَّقة تمحورت حول كوكبة متألِّقة من المثقفين الجنوبيين. أعدَّ هذه الدراسات فريق من الأدباء والباحثين المرموقين. وقد تُليت هذه الدراسات من على منبر المجلس، في مواسمه الثقافية، قبل أن ننشرها، تدريجياً، في كتابين مستقلَّين، ولدينا دراسات أخرى قيد النشر.

3 ــ " **من دفتر الذكريات الجنوبية**" وهي مذكرات شخصية قدَّمها، من على منبر المجلس، أعلام جنوبيون بارزون، من كتَّاب وكاتبات، ثم نشرناها، تباعاً، في كتابين اثنين باتا مرجعاً وثائقياً يعود إليه الباحثون وطلاب الدراسات الجامعية.

4 ــ " **روائيات من جنوب لبنان**" وهي ست دراسات نقدية تتمحور حول ستة نصوص روائية، متميِّزة بالجودة، من إبداع ست روائيات شهيرات من الجنوب اللبناني هن: ليلى بعلبكي، بلقيس حوماني، إملي نصر الله، حنان الشيخ، رجاء نعمة وعلوية صبح.

يجري تقديم هذه الدراسات في قاعة المجلس ولسوف نعمل على نشرها في كتاب، قريباً.

5 ـــ " **دليل جنوب لبنان كتاباً**" هو كتاب وثائقي، غير مسبوق، يشتمل على أسماء أبناء الجنوب من الكتّاب والكاتبات كافةً، كما يشتمل على كل المؤلفات التي أغنوا بها المكتبة العربية وخدموا بها لغة الضاد.

يعتبر هذا الدليل، في تقدير المطَّلعين، حصيلة بيانية لأول عملية مَسْح شاملة لحركة الإنتاج الكتابي التي تجري في منطقة معيَّنة، هي الجنوب، من مناطق لبنان قاطبةً.

لذلك صار هذا الدليل مرجعاً موثوقاً يُعاد إليه للوقوف على الحصاد الكتابي الوفير الذي أنتجته أقلام جنوبية خصبة، خلال المئة سنة الأخيرة.

وهناك كتب عديدة أصدرها المجلس تتضمَّن معلومات وافية عن كثير من أدباء الجنوب وأديباته.

وفي هذا السياق، يسعدنا، في المجلس، بالغ السعادة، أن نضيف، على ما سبق ذكره، كثرة من المجموعات الشعرية قُيِّض لنا أن ننشرها، بالتتابع، بادئين، عام 1979، بجمع ونشر مجموعة شعرية ذات فرادة وأسبقية، تحمل عنواناً رمزياً، تحول مع الأيام إلى شعار سياسي عام، هــو: "... وكل الجهات الجنوب".

تضمَّنت هذه المجموعة قصائد لأحد عشر شاعراً جنوبياً شاباً هم: (حسب أحرف الألف باء للإسم الأول).

أحمد فرحات، الياس لحود، جودت فخر الدين، حسن عبد الله، حسين نصرالله، شوقي بزيع، عبد الكريم شمس الدين، محمد أبي سمرا، محمد علي شمس الدين، محمد علي فرحـــات وياســـر بدر الدين.

أما المجموعات الشعرية الفردية فهي (حسب تاريخ نشرها):

1- "الهوى والوفاء" مسرحية شعرية للشاعرة الراحلة زينب فواز (1984).

2- "في رحاب الخيام" للشاعر الراحل الشيخ عبد الكريم صادق (1984).

3- "رياح الخريف" للشاعرة الراحلة زهرة الحر (1992).

4- "الروابي العاملية" للشاعر محمد جعفر (1995).

5- "الرقص على رماد الهيكل" للشاعر علي هاشم (1999).

6- "ديوان بالمحكية" للشاعر الراحل توفيق عبد الكريم صباح(1999).

7- "أمواج ورمال" للشاعر د.نديم دعكور (2000).

8- " أوزان " للشاعر الراحل محمد رضا شرف الدين (2001).

9- "العدالة والحياة" للشاعر القاضي محمد علي صادق (2001).

10- ديوان الشاعر الراحل جعفر محسن الأمين (2002).

11- "قيس ولبنى" مسرحية شعرية للشاعر محمد رضا شرف الدين (2002).

12- "ديوان شاعرة الجنوب" للشاعرة الراحلة بسيمة فخر الدين (2006).

13- "سقط المتاع" للشاعر الراحل الشيخ عبد الحسين صادق (2007).

14- "الأدب المهجري" شعر (جزءان) للشاعر منير صالح (فتى الدواوير) (2007 و2009).

15- "كأني على الماء أجري" للشاعر علي هاشم (2009).

في ضوء ما تقدَّم يبدو، بجلاء، أنَّ هذا الكتاب الجديد، الذي نعتزُّ اليوم بإطلاقه، ليس الكتاب الأول المعني بالنتاج الكتابي وبأصحابه من أبناء الجنوب، جبل عامل، بل هو حلقة جديدة في سلسلة طويلة كما جرى بيانها سابقاً. وبصدور هذا الكتاب يرتفع عدد منشورات المجلس إلى واحد وثمانين كتاباً.

تحفل صفحات هذا الكتاب الجديد بعشر دراسات أدبية معمَّقة، لعشرة باحثين بارزين، تمحورت كلٌّ دراسة منها حول شاعر واحد، من أصحاب الشهرة الواسعة، وذلك في سياق دراسة عشرة شعراء جنوبيين معاصرين رحلوا عن دنيانا، في مواقيت متفاوتة تتراوح بين أوائل القرن المنصرم وأواخره.

والشعراء المختارون هم:

الشيخ عبد الحسين صادق، الشيخ سليمان ظاهر، محمد علي الحوماني، بولس سلامة، عاطف كرم، محمد رضا شرف الدين، موسى الزين شرارة، فؤاد جرداق، عبد الحسين عبدالله وعبد المطلب الأمين.

أما لماذا وقع اختيارنا على هؤلاء الشعراء العشرة دون غيرهم من شعراء الجنوب الحافل تاريخه، القديم والحديث، بالكثير الكثير من الشعراء الأفذاذ؟

فلذلك قصة لا يسعنا إلاَّ روايتها، بإيجاز، توضيحاً لواقع الحال ودفعاً لأي التباس أو تأويل.

تبدأ القصة من ذلك اليوم الذي قرَّر المجلس فيه أن يقدِّم إلى وزارة الثقافة مشروعاً أدبياً، خاصاً به، استجابـــةً لدعوتها العامة إلى المشاركة في أنشطة ثقافيـــة متنوِّعة تستدعيها احتفاليـــة "**بيروت عاصمة عالمية للكتاب**".

وتوفيراً لشروط قبول الطلب سريعاً أجرينا اتصالاً باللجنة المسؤولة رسمياً عن الاحتفالية فأُفدنا بأنَّ المدة المتاحة أمامنا، لإنجاز مشروعنا لا تتجاوز الشهرين تقريباً، على أن يُصار خلالهما إلى عقد مؤتمر ليومين أو ثلاثة أو إقامة ندوات تستوعب تقديم دراسات أدبية موقوفة على شعراء راحلين من أبناء الجنوب اللبناني، كما تستوعب، في الوقت عينه، عمليات جمع وطبع وإصدار كتاب مستقل يتضمَّن تلك الدراسات بكامل نصوصها.

إذاً، فالوقت المتاح أمامنا من الضيق بحيث لا يتَّسع، إطلاقاً، لإنجاز مشروع أدبي بمستوى طموحنا أو أملنا، فشعراؤنا الراحلون كثيرون، فكيف يتأتَّى لنا، في مدة قصيرة للغاية، أن نفيهم حقهم، كافةً، بدراسة آثارهم الشعرية، دراسة منهجية يستحقونها؟؟

حيال ذلك وجدنا أنفسنا في حيرة من أمرنا فماذا تُرانا نصنع؟! وحيث إنَّ الوقت المحدَّد لنا لا يهمل أو يرحم، التجأنا، بحكم الضرورة، إلى الاكتفاء

باختيار عشرة شعراء، لا أكثر، يمثِّلون شعرياً وجغرافياً مساحة الجنوب إلى حدٍّ بعيد. فالشعراء العشرة المختارون ينتسبون إلى أقضية النبطية وصور وجزين وبنت جبيل ومرجعيون حيث برزت وجوه شعرية متألِّقة في تلك الحقبة المنصرمة.

وتأسيساً على قرار هذا الاختيار، تقدَّمنا بمشروعنا إلى وزارة الثقافة، وعقب انقضاء بضعة أيام من الانتظار تلقَّينا رسالة رسمية تفيد أنَّ اللجنة المشرفة على الاحتفالية، برئاسة وزير الثقافة، قد وافقت على المشروع الذي قدَّمناه. وعلى الأثر، جرى التوقيع على عقد بين فريقين اثنين: وزارة الثقافة فريقاً أولاً والمجلس الثقافي للبنان الجنوبي فريقاً ثانياً.

والتزاماً ببنود هذا العقد بأمانة، شرعنا، من فورنا، في عمل منهجي سريع بهدف إنجاز المشروع في المدة المحدَّدة له في متن العقد، وفق خطة عمل تنفيذية ترمي إلى عقد أربع ندوات، في أربع حواضر جنوبية هي: صور، النبطية، جديدة مرجعيون وصيدا ــ مجدليون.

وتبعاً لهذه الخطة باشرنا العمل في عقد الندوات على النحو التالي:

ــ **الندوة الأولى:** عقدناها بالتعاون مع منتدى صور الثقافي، في قاعته، يوم الجمعة الواقع فيه 26 آذار 2010.

شارك في هذه الندوة باحثان اثنان هما:

1 ــ السيد حسين شرف الدين ملقياً محاضرة حول الشاعر الراحل السيد محمد رضا شرف الدين.

2 ــ الأستاذ إحسان شرارة ملقياً محاضرة حول الشاعر الراحل موسى الزين شرارة.

* قدَّم للندوة الأستاذ أحمد فقيه، أمين سر منتدى صور الثقافي.

ــ **الندوة الثانية:** عقدناها في قاعة المجلس الثقافي للبنان الجنوبي في مدينة النبطية وذلك يوم السبت الواقع فيه 27 آذار 2010.

شارك في هذه الندوة ثلاثة باحثين هم:

1 ــ د.عبد المجيد زراقــط فألقى محاضرة حــول الشاعــر الراحــل الشيخ عبــد الحسين صادق.

2 ــ د.علي سلوم فألقى محاضرة حول الشاعر الراحل الشيخ سليمان ظاهر.

3 ــ د.مريم حمزة فألقت محاضرة حول الشاعر الراحل محمد علي الحوماني.

* قدَّم للندوة الشاعر جميل المعلِّم ، عضو المجلس ــ فرع النبطية.

ــ **الندوة الثالثة:** عقدناها في جديدة مرجعيون بالتعاون مع جمعية التنمية للإنسان والبيئة ومدرسة مرجعيون الوطنية ونادي الخيام الثقافي الاجتماعي، وذلك في مركز أمل وريما الحوراني الثقافي بتاريخ 3 نيسان 2010.

شارك في هذه الندوة ثلاثة باحثين هم:

1 ــ د.شفيق البقاعي فألقى محاضرة حول الشاعر الراحل فؤاد جرداق.

2 ــ د.فؤاد مرعي فألقى محاضرة حول الشاعر الراحل عبد الحسين عبد الله.

3 ــ أ.محمد زينو شومان فألقى محاضرة حول الشاعر الراحل عبد المطلب الأمين.

* قدَّم لهذه الندوة أ.سعيد الضاوي، رئيس نادي الخيام الثقافي الاجتماعي.

وفي مستهلّ هذه الندوة وُجِّهت تحيتان طيبتان إلى المشاركين فيهــا:

تحية من قِبَل الأستاذ موريس دبغي، مدير مدرسة مرجعيون الوطنية.

وتحية من قِبَل الأستاذ فضل الله حسونة، رئيس جمعية التنمية للإنسان والبيئة.

ــ **الندوة الرابعة:** عقدناها، بالتعاون مع حلقة التنمية والحوار في مركزها القائم في صيدا ــ مجدليون، وذلك في 10 نيسان 2010.

شارك في هذه الندوة باحثان هما:

1 ــ الدكتور أحمد أبو ملحم فألقى محاضرة حول الشاعر الراحل بولس سلامة.

2 ــ الأستاذ علي هاشم فالقى محاضرة حول الشاعر الراحل عاطف كرم.

* قدَّم للندوة الأستاذ إميل اسكندر، رئيس حلقة التنمية والحوار.

وخلال الندوة ألقت الشاعرة غادة نور الدين قصائد مختارة للشاعرين الراحلين بولس سلامة وعاطف كرم.

تلك الندوات التي عقدناها، بالتعاون مع هيئات ثقافية واجتماعية صديقة، أحدثت موجة من الحيوية الأدبية في الجنوب وتركت أصداء طيِّبة في الأوساط الثقافية. ولعلَّ أبرز ما طالعنا، في صفوف المستمعين، تلك الوجوه الكثيرة، المتفاوتة الأعمار، التي أقبلت على الندوات، زرافات ووحداناً، تدفعها الرغبة في الوقوف على ما كانت تجهله من معلومات موثقةً عن شعراء أفذاذ من مجتمعهم الجنوبي، رحل معظمهم عن الدنيا قبل أن يولدوا هم في مواقيت متفاوتة...

ومما لا شك فيه أنَّ الفضل، في الإقبال الواسع النطاق على الندوات، يعود للهيئات الثقافية والاجتماعية التي شاركت المجلس، مشاركة نديَّة، في تنفيذ مشروعه الثقافي بنجاح لافت.

لذلك يسعدنا، بالغ السعادة، أن نوجِّه أطيب التحيات وجزيل الشكر إلى الأصدقاء الأعزاء المسؤولين عن تلك الهيئات التي استضافتنا، بسخاء، في تلك الندوات المفعمة بمتعة المعرفة وبدفء التلاقي الاجتماعي في حضرة الكلمة العاطرة، نثراً وشعراً...

كما نوجِّه أطيب تحياتنا وجزيل شكرنا إلى أولئك المواطنين الأعزاء الذين شاركوا، بحضورهم الجميل الفاعل، في الندوات التي عقدناها، تباعاً، في حواضر الجنوب الآنفة الذكر...

وبعد فما أن فرغنا من شواغل الندوات حتى انصرفنا، من فورنا، إلى جمع نصوص تلك المحاضرات التي أُلقيت، تباعاً، في الندوات الأربع ثم دفعنا بها، على وجه السرعة، إلى آلة الحاسوب لتخرج من جوفه السحري في صيغة أنبوب بالغ الضآلة، عظيم السعة، سرعان ما نقلناه إلى بيت الطباعة المختار ليولد هناك شيئاً آخر، شيئاً ثميناً كنَّا نترقَّب ولادته، بشغف وحرارة، قبل العشرين من شهر نيسان الجاري وقد وُلد أخيراً في الموعد المحدَّد في متن العقد المبرم مع وزارة الثقافة... أجل، وُلد أخيراً، بعد جهدٍ بذلناه جهيد، في أوراق هذا الكتاب الجديد الذي أسميناه: "**شعراء راحلون من جنوب لبنان**".

وفي الختام يقتضينا الواجب الأدبي والمودَّة العميقة أن نتقدَّم ببالغ الشكر من الأصدقاء الأعزاء الذين بذلوا قصارى جهدهم في إعداد محاضراتهم القيِّمة في أيام معدودات، نظراً لضيق الوقت المتاح، فإليهم وحدهم يعود الفضل في إنتاج مادة هذا الكتاب ثمرة جديدة يانعة، من ثمار تلك الأرض الطيِّبة المعطاء، أرض الشعر والشهادة وكرامة الحياة، أرض الجنوب اللبناني.

يبقى أن نشير، أخيراً، بتقدير وامتنان، إلى أنَّ مشروعنا الأدبي، بندواته الأربع وكتابه الختامي، قد أنجزناه بالتعاون مع وزارة الثقافة في إطار إعلان "**بيروت عاصمة عالمية للكتاب**".

وإلى اللقاء في مواسم أدبية مثقلة بالثمار اليانعة في أيام الجنوب الآتية...

بيروت في 2010/4/12　　　　　　**حبيـــب صـــادق**

تكريمـــاً لذكـــرى
عشـــرة شـــعراء راحليـــن
من جنوب لبنان

أقام المجلس الثقافي للبنان الجنوبي أربع ندوات أدبية بالتعاون مع أربع هيئات ثقافية اجتماعية صديقة هي:

1 ــ جمعية التنمية للإنسان والبيئة ــ صيدا
2 ــ منتدى صور الثقافي ــ صور
3 ــ حلقة التنمية والحوار ــ صيدا
4 ــ مركز أمل وريما الحوراني الثقافي
مدرسة مرجعيون الوطنية ــ جديدة مرجعيون
5 ــ نادي الخيام الثقافي الاجتماعي ــ الخيام

ـــــــــ ندوة النبطية ـــــــــ

- المكان: مركز المجلس الثقافي للبنان الجنوبي في النبطية

<u>الشــعراء:</u>

- الشيخ عبد الحسين صادق
- الشيخ سليمــان ظــاهــر
- محمــد علــي الحوماني

<u>المحاضرون:</u>

- أ.د.عبد المجيد زراقط
- د.علـــــي ســـــلوم
- د.مــريــم حمـــــزة

رؤية الشيخ عبد الحسين صادق

بقلم: أ.د.عبد المجيد زراقط

(أستاذ الأدب العربي في الجامعة اللبنانية)

- ...مَنْ لي بيومٍ يُعاطيني مَسَرَّتَه والمسلمون جميعاً غيـر أشـتات

- ... عمَّ الفسادُ فمنكَ، يا زمنـي تعميمُـهُ أم منـكَ، يـا زمـنُ؟!

وثلاثـةَ غَمـرَ البسـيطَ بهـا فِـتَنٌ وفتّـانٌ ومُفْتَـتَنُ

والنـاسُ لا نـاسٌ فـيُحفِظهمْ مـا أنكرتـهُ العـينُ والأُذنُ

الشيخ عبد الحسين صادق

رؤيـــة
الشاعر الشيخ عبد الحسين صادق
في مشكلات عصر النهضة

تمهيـــد

تسعى هذه الدراسة إلى تبيُّن رؤية أحد العلماء العامليِّين إلى موضوع النهضة في مختلف قضاياه ومسائله، معتمدةً، لتحقيق ذلك، على نتاجه الشِّعري بخاصة، لأنَّه ما توافر لنا مطبوعاً من إنتاجه، وذلك لتكون جزءاً من كلٍّ يشمل رؤية الشعر العاملي إلى هذه الإشكالية التي لا تزال مسائلها مطروحةً أمامنا بإلحاح.

وفي تبيُّننا لهذه الرؤية سوف نبحث قضيَّتين:

الأولى: وهي مصادر رؤية الشيخ عبد الحسين صادق ومكوِّناتها، على مستوى الشروط الذاتية.

الثانية: وهي الموضوعات المركزيَّة لهذه الرؤية مجسَّدةً في شكلٍ فنِّي أُبدع في شروط تاريخية محدَّدة.

أولاً: مصادر رؤية الشيخ ومكوِّناتها

ينبغي، بدايةً، أن نتعرَّف إلى هذه الشخصية العلمية والأدبية في أخص مميِّزاتها، فنتصفَّح، بغية تحقيق ذلك، وكي نكون موضوعيين، ديوان "سقط المتاع"، ونقرأ فيه أبياتاً بالغة الدلالة على هذا الصعيد، نذكر منها:

خَلِقْتَ رحيب الصَّدر، مهما تراكمت　　عليَّ صروف الدَّهرِ أنزلها صــفرا

وملموم قلبـي لا تلـين حصـاته　　لخطب، ولا يخشى لقارعة نقـرا

من سجاياي كتمُ لاعجـة الوجـد　　وإن قَطَعَـتْ نيـاطَ فقـاري

فترانـي أفتـرُّ ثغـراً، وقلبـي　　عـازبٌ عـن تبسُّـمٍ وافتـرارِ

تركت الجفا، والعمر في عنفوانه،　　أأتركه من بعـد شـيب اللمـائم؟

كن غارساً خيراً لكلَ بني الـورى　　كأبيك، أحرى فيك كونـك مثلـه

(راجع أيضاً: وصاياه لابنه، الديوان، ص102).

لعلَّنا، بعد قراءة هذه النماذج، لا نحتاج إلى كبير عناء كي نقرِّر حقيقة تميُّز هذا العالم الجليل بالخلق النبيل، خلق العلماء الأتقياء في صبرهم وتجلُّدهم وحبِّهم للخالق وعباده، وإن كان بعض هؤلاء من المسيئين إليه.

والملاحظ أنَّ هذا التَّميُّز العلمي الخلقي السلوكي كان مجال فخر عالمنا الجليل، وليس الأصل العريق أو المال الوفير أو القوَّة والسَّطوة، وما إلى ذلك..

وممّا يؤكِّد هذه الحقيقة التي نذهب إليها أنَّ الشيخ ظلَّ، وهو في مرض الموت، وكان قد أشرف على الثمانين، وأُصيب بفالج، لطيفاً مُحَبَّباً يداعب حفيده ويطعمه من حلوى كان يخبِّئها له.

ولعلَّ هذه الحقيقة تجعلنا نرى فيه ما رآه ابنه الشيخ حسن حينما رثاه، ورآه فارس الأيَّام يجهد لسوقها بعزمه اللطيف، كي يحقِّق مشروعه، يقول ابنه:

الثمـــانون أحصـــيت لـــك فالأيّـــا م منهـــا يتيمـــةَ لا تســـام

(الديوان، ص265)

وعلى أثر معرفتنا السريعة هذه، نتوقَّف إزاء مكوِّنات أساسية في شخصية الشيخ، ومن ثم في خطابه، يمكن تبيُّنها، كما يأتي:

1ــ انتماؤه إلى أسرة توارثت العلم والأدب أباً عن جدٍّ

يقول السيد محسن الأمين عن بلدة الخيام: "وسكنها جماعةٌ من آل يحيى، والد الشيخ إبراهيم يحيى، الشَّاعر المعروف، ومنهم الشيخ عبد الحسين بن إبراهيم بن صادق بن إبراهيم بن يحيى، العالم الشَّاعر المشهور، المتوفى سنة 1362.."[1].

---

[1] السيد محسن الأمين، خطط جبل عامل، بيروت: الدار العالمية، ص230. توفي الشيخ عام 1361هــ الموافق عام 1942م.

نفيد من هذه المعلومة أنَّ الشيخ ينتمي إلى أسرةٍ توارثت العلم والأدب أباً عن جد، وأنَّ ابن مؤسِّسها: الشيخ إبراهيم بن يحيى كان أشهر شعراء عاملة[1] في عصره.

وعاملة، كما لا يخفى، غنيَّة بمثل هذه الأُسر غنىً جعل العلم والأدب في تطوُّرٍ وازدهارٍ مستمرَّيْن.

2 ــ نشأة تميَّزت بقسوة اليُتم ورعاية الأقارب، وأورثت صلةً خاصةً بآل الأسعد

نقرأ، في سيرة حياة الشيخ، أنَّ والده الشيخ إبراهيم بن صادق جاء إلى الخيام، وقد "شُيِّدت له فيها دار فخمة"، فرغب إليه علي بك الأسعد ومحمد بك الأسعد أن يكون مقرُّه في الطَّيبة، أو فيها وفي الخيام، فأجابهما إلى طلبهما الثاني، فأوفدا معتمدهما الحاج موسى شرف الدين إلى العراق لإحضار عائلته التي لم يصل منها إلى لبنان، بسبب الوباء، سوى الشيخ، موضوع الدراسة، وكان طفلاً رضيعاً وثلاث شقيقات له. وكأنْ لم يكفهِ وفاة والدته حتى توفي والده، وهو في سنّ الخامسة من عمره، فتربَّى في أحضان كبرى شقيقاته، زوجة محمد أفندي عبدالله.

3 ــ دراسة دينية غنيَّة ومعمَّقة

ولم يمنع هذا الواقع الصَّعب الفتى من طلب العلم، فارتحل، بغية تحصيل العلم، في مرحلة أولى، إلى مدرسة مجدل سلم فعيتا فكفرا، وفي

---

[1] عاملة: القبيلة التي ينتسب إليها معظم سكان لبنان الجنوبي، وقد حمل الجبل الذي قطنته القبيلة اسمها فبات يعرف بجبل عاملة أو جبل عامل.

مرحلة ثانية (سنة 1300هـ/ 1882م) إلى النجف الأشرف، فدرس في الجامعة الدينية الكبرى هناك، منتظماً ومتدرِّجاً في صفوفها إلى أن نال من أساتذتها درجة الاجتهاد المطلق التي بوَّأته منصب التدريس فيها ومكانةً علميةً واجتماعيةً مرموقة.

4 ــ ممارسة نشاط فعَّال في بيئة النجف وصلة وجدانية حميمة بها

وقد كان من عمق هذه الصلة أن خرج الشيخ، سنة 1316هـ، من النَّجف مشيَّعاً بمزيد من الحفاوة والإجلال من عموم الهيئات العلمية ومختلف الطَّبقات باحتفال حاشد، الأمر الذي جعل الشيخ يحسّ إحساساً دفعه إلى القول:

عليَّ جائرةَ الأيَّام قد حكمت   أن لا أقيم ولا أستوطن النَّجفا

ومثل هذا القول الذي يعبِّر عن تعلُّق وجداني عميق بالنَّجف الأشرف يتكرَّر في غير مكان من ديوان الشيخ[1].

5 ــ ممارسة نشاط ديني اجتماعي سياسي فعَّال في وطنه عاملة

فمن المعروف أنَّ الشيخ صادق أنشأ في الخيام مدرسة حفلت بالطلاب، كما أنه سعى لإنشاء مسجد الخيام الكبير وإقامة النَّادي الحسيني في النبطية.

---

[1] راجع: الشيخ عبد الحسين صادق، سقط المتاع، صيدا، المطبعة العصرية د.ت. ، د.ط.، على سبيل المثال، ص162 و184.

هذا فضلاً عن نشاطه الدِّيني ــ الاجتماعي المعروف عن معظم علماء عاملة الكبار.

أمَّا نشاطه السياسي، فيمكن التعرُّف إلى طبيعته من خلال النَّص التالي الذي يورده ساطع الحصري في كتابه ميسلون: "وفي 15 أيار، سنة 1919م، وعلى أثر عودة فيصل بن الحسين من أوروبا، فاشلاً في مفاوضاته هناك، وصلت وفود من مختلف مناطق سورية إلى بهو دار الحكومة بدمشق، كان من بينها وفد عامليّ على رأسه الشيخ عبد الحسين صادق، إلى جانب رضا الصلح عن بيروت ورياض الصلح عن صيدا وعبد الحميد المغربي عن طرابلس"[1].

6 ــ ممارسة نشاط فكري تمثَّل في إنتاج عددٍ من المؤلَّفات الفقهية والاجتماعية والأدبية

ففي ميدان الفقه صنَّف:

ــ المذاهب السَّنيَّة في فقه الإماميَّة.
ــ الشذرات في مباحث العقود والإيقاعات.
ــ تقريرات الميرزا حسين الخليل في مباحث الإجارة والوصية والقضاء.
ــ منظومة في المواريث لم يبقَ منها سوى 230 بيتاً في أربع عشرة صفحة.
ــ حاشية على قوانين الأصول.

---

[1] د.وجيه كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي 1870 – 1920، بيروت: معهد الإنماء العربي، الطبعة الثالثة، 1982، ص316 و358، هامش 45؛ نقلاً عن ساطع الحصري، ميسلون، ص218 ــ 228.

وفي قضايا العصر ومشكلاته، بحث في الموضوعات الآتية:
ــ سيماء الصُّلحاء، وهي رسالة في إقامة المآتم الحسينية.
ــ منظومة يردّ فيها على فتاوى مشايخ الوهَّابية.
ــ منظومة في الرَّد على القسّ الحلبي.
ــ أجوبة عن مسائل متنوِّعة، منها المسائل الرافعية الطرابلسية.

وفي ميدان الأدب ترك ديواناً شعرياً يحتوي على آلاف الأبيات الشعرية، ذكر نجله الشيخ حسن أنَّها مجموعة في ثلاثة أجزاء: أحدها "سَقَطُ المتاع" والثاني "عَرفُ الولاء" والثالث "النظرات والمناظرات". غير أنَّه لم ينشر سوى الجزأين الأوَّلين، والجزء الثالث لم يعثر له على أثر. والواضح أنَّ هذين الجزأين غير مكتملين، كما أنَّ النصوص الشعرية التي تضمَّناها نشرت من دون ضبط أو تحقيق، ولم تخلُ من الأخطاء المطبعية.

وقد أعاد الأستاذ حبيب صادق، نجل الشيخ، النَّظر في هذا التراث الشعري الغني. فأعاد جمع المادة الشعرية من مصادر كثيرة، وأضاف إليها ما عثر عليه، وكان وافراً يعادل ثلث المادة الشعريَّة المنشورة، وممَّا عثر عليه وأضافه مخطوطة شعرية كانت مفقودة، وعلاوة على إعادة جمع المادة الشعريَّة، فقد حقَّق هذه المادة وضبطها، وقدَّم لها، وصنَّفها وبوَّبها، وأعاد إصدارها في حلَّة جديدة أنيقة، وفي مجموعتين: أولاهما "عرف الولاء" وثانيتهما "سقط المتاع" صدرتا تباعاً عامي 2006 و2007 عن المجلس الثقافي للبنان الجنوبي ودار الانتشار العربي.

ثانياً: موضوعات رؤية الشيخ ومفاهيمها المركزية الكبرى

أ ــ مفهوم الشعر ومدى تحقُّق هذا المفهوم

ينبغي بحث هذه القضية في ضوء عدَّة حقائق لعلّ من أهمها ما يأتي:

1ــ إنَّ الشيخ كان يفضّل نوعاً معيَّناً من الشعر ويرغب في نشره، و"يرتضيه عملاً صالحاً ينتفع به". هذا الشِّعر هو الشِّعر الذي يختصُّ بالمدائح النبوية والعلوية ومراثي سيِّد الطَّف[1]. وممَّا يؤكِّد هذا ما يقوله نجله الشيخ حسن، وهو مقدِّم الديوان، من أنَّ بعض مَنْ في المهجر وغيرهم رغبوا إليه أن يطبع ديوانه الشعري فلم يشأ ذلك[2].

وهذا التوجُّه يكاد يكون ظاهرة مشتركة بين الشعراء العامليين، وبخاصة العلماء الكبار منهم، علماً أنَّ الشيخ نظم في جميع أغراض الشعر التقليدية.

ويمكن فهم هذا التوجُّه لدى العلماء العامليين الكبار عندما نعلم أنه ما كان يهمُّهم أن يُعرفوا بوصفهم شعراء، وإنما بوصفهم علماء دين مجتهدين، يقصدون في جلّ أعمالهم خدمة الدِّين والتقرُّب من الله تعالى ونبيِّه(صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) والأئمة(عليهم السلام). وكان الشعر عندهم نشاطاً ثانوياً ينصرفون إليه في أوقات الفراغ وخلوِّ البال وفي أثناء جلسات السَّمر، علاوةً على دوره في تحصيل المعرفة المساعدة على إتقان العلوم الأصلية...

2 ــ إنَّ ما تمَّ اختياره ونشره من شعر الشيخ خضع لعناية نجله الشيخ حسن الذي يقول: طبعت ونشرت " ما عنيت به ووقع اختياري عليه"[3].

---

[1] الشيخ عبد الحسين صادق، م.س، ص2.

[2] المصدر نفسه، ص261.

[3] المصدر نفسه، ص2.

وهذا يعني أنَّ شعر الشيخ لم ينشر بكامله، وأنَّ ما نُشر اختاره الشيخ حسن وفق مفهومه الخاص للشعر. والواضح في قوله عن الشعر الذي يفضِّله: "... لا يتعدَّى في أوزانه وأساليبه عن نشأة العروبة الأولى إلى أساليب الأعجمية وأوزانها التي لا تطرب أنغامها أذواقنا ولا نتحسَّس منها تلك المتعة والانتعاش الذي نتحسَّسه من التراث الشعري العربي الذي لا حياة لنا إن فقدناه[1]. والواضح أيضاً في حكمه التالي على الديوان، فهو يقول: "إنَّك ترى، في هذه الأبيات، من عذوبة البيان وسلاسة التعبير ودقَّة التصوير وسهولة نظم اللفظ ما يقصر عنه الوصف ويقف اللسان حاسراً، مضافاً إلى ما اشتملت عليه من المعاني البيانية والنكات البديعيَّة..."[2] .

هذا المفهوم الذي نتبيَّنه في قولَيْ الشيخ حسن هو المفهوم الذي نفترض أنَّه كان له تأثير على طبيعة الشعر الذي تمَّ اختياره، وعلى تقسيم الديوان إلى أبواب اعتمد فيها التقسيم التقليدي للشعر، من دون أن يكون دقيقاً في ذلك تمام الدقَّة.

3 ــ إنَّ شعر العلماء العامليين يتميَّز بطبيعة خاصَّة، وذلك لأنه يتوجَّه لمخاطبة فئة معيَّنة من الناس ذات ثقافة خاصة: لغتها لغة الأسلاف، وقوامها علومهم من فقه وبلاغة ونحو وعلوم كلام وتاريخ عربي ــ إسلامي.

وفضلاً عن هذه الخصيصة التي لا تجعل شعر العلماء جماهيرياً، نشير إلى أمر آخر كان له تأثيره على طبع الشعر العاملي بطابع متميِّز. نعني بهذا الأمر إقصاء العامليين زمناً طويلاً عن المتن في الثقافة الرسمية السائدة

---

[1] المصدر نفسه، ص2.

[2] المصدر نفسه، ص12.

ومعاناتهم الاضطهاد وخوفهم المستمر منه؛ الأمر الذي كان يؤثِّر تأثيراً فعّالاً على الشعر من حيث إنشاؤه وتطوُّره ونشره.

4 ــ إنَّ أيّ مفهوم للشعر هو مفهوم تاريخي. والواقع أنَّ المفهوم الذي "لايتعدَّى في أوزانه وأساليبه عن نشأة العربيَّة الأولى"، كان هو المفهوم السائد في عصر الإحياء والعودة للارتباط بالجذور، بغية الاخضرار والتبرعم والنموّ والتفتُّح زهرات جديدة.

ولعلَّ هذا المفهوم كان عامَّاً في الوطن العربي؛ الأمر الذي يعطي بعض الأحكام التي قيلت في الشيخ قيمتها، ونذكر من هذه الأحكام ما يأتي: "إنَّ شعره تجاوز طابعه المحلِّي إلى محيطه العربي الواسع"؛ "شاعر القطرين: العراق ولبنان"؛ "في الطبقة الأولى من الشعراء"[1].

ويتطوَّر المفهوم الذي لا يتعدَّى النشأة العربية الأولى ليغدو، كما يقول مقدِّم الديوان، " لم يغفل عن الحضارة حسّه، ولم ينقطع من لحن البداوة جرسه، يبعث في اللغة العربية روحاً شعريةً تكفل لها حياة التفوُّق والخلود، ويجعلها تتَّسع لما لم تكن تتَّسع له من قبل من المعاني والصُّور والأخيلة... فاسمع لما يقوله في وصف المركب البخاري"[2]:

رَوَتِ الفَلَكُ، في متــونِ البحــارِ نبأَ البَرْق، عن صــحيحِ البخــاري

وتَلَتْ ســورةَ الــدُخانِ فَغَشَــتْ، بلثـــامِ الظـــلامِ وجـــهَ النهـــارِ

---

[1] المصدر نفسه، ص5.

[2] المصدر نفسه، ص5.

كلّمـــا زجَّهـــا، بجـــذْبٍ ودفْـــعٍ   مـــارجٌ فـــي فؤادِهـــا مـــن نـــارِ

فتحـــتْ للخضـــمِّ عينـــاً ومـــرَّتْ   بـــين أجفانِهـــا خيـــالاً ســـاري

تمخَرُ الـــيمَّ فـــي جنـــاجنِ صـــدرٍ   فتـــرى المـــاء حولهـــا كالسِّـــوار

إنَّ التطوُّر الشعري، في مفهوم مقدِّم الديوان، يكون في تناول موضوعات عصرية بأسلوب القدماء، فيحلّ وصف الباخرة أو القطار أو السيَّارة محلّ وصف النَّاقة مقدِّمةً للقصائد المطوَّلة. والحق أنَّ هذا المفهوم كان متداولاً في عصر الشاعر، فقد صنع حافظ إبراهيم، على سبيل المثال، الصنيع نفسه. وكان خليل مطران، الذي يعدُّ المثال الأبرز للبدايات التي نوَّرت على صعيد التطور الشعري في عصره، يريد للشعر أن يصدر عن التجربة الخاصة و"إن كان مفرغاً في قوالبهم [يعني القدماء]، محتذياً مذاهبهم اللفظية[1] .

في ضوء هذه الحقائق، نحاول تلمُّس مفهوم الشيخ الشاعر للشعر، ونتقصَّى تطبيقه لهذا المفهوم في عدد من قصائده.

يرى الشيخ صادق، كما نقرأ في قصيدته التي أنشأها بمناسبة تكريم عبد الحميد الرافعي، أنَّ الشعر تعبير عن تجربة وجدانية تتأتَّى من معايشة الشاعر للواقع بحلوه ومُرِّه، وهذه التجربة يصوغها الشاعر أبياتاً من دون أن يستوحي الغرب، وإنَّما الشعر العربي في بدواته الأولى.

---

[1] خليل مطران، ديوان الخليل، القاهرة: دار الهلال، 1949، المقدمة، ص8.

ويطلب الشيخ من ناقد الشعر أن يتمهَّل في حُكمه وأن لا تكون لديه عقد نقص تجاه الغربي، ويعجب لتحوُّل الشعراء نحو الإسترفاد من الثقافة الغربية. ولنقرأ هذا المفهوم على لسان الشاعر الشيخ:

شِعْرُ الأَديبِ سَوانِحٌ في سِرِّهِ ... مَا بَيْنَ جَانِحَتَيْ ذَكَاهُ وَفِكْرِهِ

مَنْسوجَةٌ، مِنْ طَبْعِ ذَيْنِ، بُيوتُهُ ... إِمَّا بِنَوْلِ حَريرِهِ أَوْ شَعْرِهِ

تَجْرِي قَوافِيهِ وَهُنَّ مَواخِرٌ ... فِي أَبْحُرٍ مِنْ حُلْوِهِ، أَوْ مُرِّهِ

فَصِفاتَ شِعْرِ الْمَرْءِ عَيْنُ صِفاتِهِ ... لِلنَّاقِدينَ، وَقَدْرُهُ مِنْ قَدْرِهِ

مَا لِي أَرَى الْعَرَبِيَّ مَالَ بِشِعْرِهِ ... لِلْمُعْجِمِينَ فَعُدَّ شَاعِرَ عَصْرِهِ

أَنَّى، وَمَا هُوَ غَيْر نَبْتِ بِلادِهِ، ... يَسْقيهِ وَبْلَ غَمامِهَا مِنْ دَرِّهِ

وَالْحَاضِنانِ لَهُ ثَرىً وَهَوًى معًا ... وكِلاهُمَا مِنْ حَيْثُ مَطْلَعُ فَجْرِهِ

هَبْ، في نَواحِي الْغَرْبِ، عُود بَلاغَةٍ رَطْب اللَحا، مُتَعَبِّقَ فِي نَشْرِهِ

مَا الْعُودُ تَسْقِيهِ الْحَضارةَ مَاءَهَا ... سَيْحًا وَتَغْرُسُهُ بِضَفَّةِ نَهْرِهِ

بِمُضَارِعٍ عُودَ الْبَداوةِ قُوَّةَ ... يُعيي الْمِئِينَ مِنَ الْوَرَى عَنْ كَسْرِهِ

إِنْ شِمْتَ أَوَّلَ وَهْلَةٍ مِنْ شَاعِرٍ ... بَرْقًا، وَرَاقَكَ خَاطِفَ مِنْ مَرِّهِ

لَبِّثْ قَليلاً، رُدَّ طَرْفَكَ يَنْجَلِ ... لَكَ مِنْ حصَاهُ الْوَمْضُ أَمْ مِنْ دُرِّهِ

إنَّنا نقرُّ للشيخ الشاعر تشديده على الأمرين التاليين اللذين نصوغهما انطلاقاً من قراءتنا لقصيدته التي قدَّمنا نماذج منها:

الأمر الأول، هو أنَّ الشعر تعبير لُغَويٌّ فنِّي عن تجربة عيشٍ ومعاناة للواقع المحلِّي.

أما الأمر الثاني فهو: من الضروري أن يتمهَّل الناقد في حُكمه، وأن يكون موضوعياً في ذلك. وينبغي أن لا يغترَّ بلوامع الحضارة الغربية، فلا يخضع لعقدة النقص إزاء تقدُّم هذه الحضارة.

كما أننا نتَّفق معه في القول: إنَّ الشاعر الملتزم قضيَّةً ينبغي أن يتحلَّى بسمات تجعل من شعره معادلاً فنِّياً لمواقفه. ويمكننا أيضاً أن نفهم دعوته للعودة إلى البداوة في إطار شرطها التاريخي، وهو العودة إلى الجذور والإحياء والنماء، بغية إيداع الجديد في مراحل تالية.

ولكنَّنا نتوقَّف إزاء تحديده للعلاقة الأدبيَّة مع الغرب، فنقدِّر رفضه نقل الجاهز الغربي، أي نرفض التَّغريب، ونضيف إلى ذلك رفضاً لنقل الجاهز التراثي، أي نرفض "السَّلفنة"، أي أننا نرفض النَّقل أياً تكن مصادره. ونؤكِّد ضرورة الإفادة من الغرب وضرورة التفاعل معه، شريطة أن يبقى إبداعنا أصيلاً، بمعنى أن يكون وليد تجربتنا المتولِّدة من التفاعل مع مجمل معطيات الحضارة الإنسانية.

إنَّ الموقف الصحيح، برأينا، هو موقف الزهرة التي تمتصُّ من التربة والجوّ، بما يعنيانه في هذا العصر، كل ما يعطيانه بغية إبداع أزرارها الخاصَّة بها.

ونستدرك، هنا، فنقول: ربَّما كان على الزَّهرة، في عصر الشاعر، أن تتصل ببصيلاتها أولاً كي تغدو قادرةً على الامتصاص والتمثُّل والعطاء الإبداعي الأصيل. إنَّها مراحل تاريخية ولكلِّ مرحلةٍ وظائفها، وربَّما كان على المفهوم الشعري أن يؤدِّي وظيفةً في مرحلة تاريخية معيَّنة، فتتحدَّد طبيعة هذا المفهوم بتأثير من طبيعة هذه الوظيفة.

وفي ضوء هذا المفهوم الذي حدَّدناه، نحاول أن نتقصَّى مدى تحقُّقه في نماذج من قصائد الشيخ الشاعر.

يتيح الاطلاع على شعر العلماء العامليين القول: إنَّ شعرهم ذا طبيعة تستجيب لمثل الوظيفة التاريخية التي حدَّدنا، على تفاوتٍ في المستوى.

وإذا قدَّمنا شعر الشيخ عبد الحسين صادق مثالاً على ذلك، وجدناه، في معظمه، قصائد مطوَّلة تتبع عمود الشعر وفق تحديد النقَّاد العرب له، وفي بعضٍ منه مقطوعات وموشَّحات وقصائد مُشطَّرة ومخمَّسة، وأبيات خُصِّصت للتاريخ الشعري، علاوةً على إسهامات في لونٍ شعري عُرف باسم "البند"، وعُرف هذا اللون، ابتداءً من القرن الحادي عشر الهجري، في العراق، وفيه يخرج الشاعر على نظام الشطرين المتساويين في عدد التفعيلات، وعلى القافية المطردة في كل بيت من أبيات القصيدة، ويتبع في الغالب بحراً واحداً هو "الهزج"، أو يمزج بينه وبين بحر آخر، وينوِّع في القوافي.

ويرى عبد الكريم الدجيلي أنَّ ناظمي البنود لم يكونوا، في الغالب، "من الشعراء البارزين اللهم إلاَّ قلَّة قليلة كالشيخ عبد الحسين صادق والشيخ صالح التميمي"[1].

والشاعر، في شعره الذي يتوزَّع على مختلف أغراض الشعر التقليدية، يجهد للإجادة في إطار القديم. ولعلَّنا لا نجانب الصَّواب إن قلنا: إنَّ الشاعر يجهد ليقرب بشعره، من حيث اللغة الفنية، إلى الشعر الجاهلي حتى ولو كان يتناول موضوعات معاصرة.

فعلى سبيل المثال، نذكر أنَّ قصيدته: "تهنئة ومديح" التي أنشأها بمناسبة عودة الحاج محمد أفندي عبدالله من الحج يبلغ عدد أبياتها مئة وأربعة وثمانين بيتاً، وتبدأ بمقدمة يصف فيها الباخرة، ويصل عدد أبياتها إلى الثلاثين بيتاً، يتخلَّص بعدها إلى المديح، فيقول:

ذاك من لبَّتِ الجوارحُ منه   خير داعٍ لحجِّ بيت الباري

وينتقل، بعد هذه المقدِّمة الطويلة، إلى الحديث عن الكعبة وعن الرحلة إلى القدس. ويمدح النبيّ والأئمة، ويُبيِّن أهمية زيارتهم؛ هذه الزيارة التي توصل إلى وصف القطار الذي حمل من "محمد أفندي" طود حلم. وهذه الزيارة التي أحدثت فراقاً يؤدِّي إلى الرحيل إلى البادية بغية الترويح عن النفس؛ الأمر الذي يُتيح وصف الفرس والحديث عن النفس في بوحٍ وجداني، أماط البرق عنه اللثام، ويتم وصف البرق هنا، ثم يخلص إلى ذكر مجيء

---

[1] عبد الكريم الدجيلي، البند في الأدب العربي، بغداد: مطبعة المعارف، 1378هـ ـ 1959م، ص.ت.

"محمد أفندي. ويسترسل بعد ذلك في مدحه، مجيداً في صياغة المعاني المتداولة"[1].

والواقع أنَّ الشيخ الشاعر كان ينشئ قصيدته الطويلة ليعالج فيها معظم الشؤون التي كانت تشغله، كأنه يكتب مقالة فكرية مصوغةً نظماً جيِّداً.

وهو لا يقتصر، في صنيعه هذا، على قصيدة المديح، كما تبيَّن لنا، وإنَّما يفعل ذلك في قصائده الأخرى ذات الأغراض المتعدِّدة. ففي قصيدة صُنِّفت في باب الغزل، عدد أبياتها مئة وتسعة وعشرون بيتاً، يبدأ بغزل تقليدي منه قوله:

- أَثَغْـرُك هـذا أم أقـاحٌ مُفلَّـجُ   وعبَّاقـة أم شـيحةَ تتـأرَّجُ

وخـدُّك هـذا أم مذابـة عسـجد   بآنيـةٍ مـن فضَّـةٍ تتمـوَّجُ

وما باللَّثى من بارقٍ في عقيقـه   أَريقَ أم الصَّـهباء بالمـاء تمـزجُ

- هبي الريم مذعوراً يحاكيك لفتةَ فمن أيـن لـلآرامِ وجهـك يـا بـدرُ؟!

---

[1] يمكن القول: إنَّ معظم قصائد الشيخ المدحية تنظم على النمط نفسه. فعلى سبيل المثال، نذكر قصيدته في مدح السيِّد حسن صالح التي يبدأها بقوله:

لا تسأمي الوخـد يا عيديَّـة النُّجـبِ   فما خلقـت لغيـر الوخـد والخَبَـبِ

وقصيدته في مدح كامل الأسعد التي يتفنَّن في صياغة معانيها، فهو يقول في الأسعد المسافر بحراً:

ركـب البحـر، وهو في الخلق بـرٌّ   واسـع الجانبيـن سـهل الرِّحـاب

ويتخلَّص، بعد الغزل، إلى بحث قضية المرأة بين الحجاب والسُّفور، لينتقل ممهِّداً بــ"دع ذا" ليتحدَّث عن ناشئةٍ منكرةٍ لمعبودها، وليدَع هذا أيضاً فيناقش جماعتين: الأولى نبذ أفرادها معظم رسل الله وزعموا أنَّ الشفاعة لا تفيد، والثانية ترى أنَّ إقامة العزاء بدعة. ويقود هذا إلى محاورة مدَّعي العلم من دون أن يفوته كشف واقع عاملة بين عهدين، وإسداء النصائح لابنه.

ويبدو ما قرَّرناه، في صدد القصد إلى الإجادة في إطار القديم، واضحاً في قصائد أنشأها الشاعر في موضوعات شعرية أخرى، هي في الحقيقة موضوعات معاصرة تناولها الشاعر متأثراً بالأسلوب القديم في الوصف.

ونمثِّل على ذلك بوصف السيَّارة، فالشاعر يصفها كما لو أنه شاعر قديم يصف الناقة، أي أنَّه يصفها وصفاً عاماً يصدق على أيِّ سيارة، فليس من خصوصيات ولا من تفصيلات، وإنما وصف عام يقود إلى الحديث عن فوائد السيارة وسيِّئاتها التي يسبِّبها السائق "الظلوم الحكوم" الذي يتسبَّب في حوادث لا يمكن أن ترفع الشكوى فيها لأنَّ "القاضي أصم سمعاً وأبكم"، وينصب "كلَّة الخفاء". ويتمنَّى الشاعر، هنا، لو يكون القضاة نساءً حتى يكشفوا المحيَّا الملثَّم. وينتهي إلى أن يزفَّ بشرى للآنسات بأنهن سيكنَّ في برلمان الأحكام عمَّا قريب.

وهكذا نرى أنَّ وصف السيارة انتهى به، بعد إثارة قضية فساد الجهاز القضائي، إلى معالجة قضية المرأة. وهذا يؤكِّد ما ذهبنا إليه من أنَّ الشاعر كان يرى القصيدة بوصفها وسيلة إلى معالجة مختلف القضايا والمسائل التي تهمُّه وتشغل تفكيره ووجدانه؛ وهو في تناوله هذه المسائل جميعها في قصيدةٍ

واحدة يحسن التخلُّص من موضوع إلى آخر من طريق تداعٍ طريف منطقي أحياناً ووجداني أحياناً أخرى.

وفضلاً عن هذه الميِّزة الأساسية التي أوضحنا، نلحظ، لدى تصفُّحنا ديوان "سَقط المتاع" عدَّة خصائص أخرى تقرِّب هذا الديوان من شعر القدماء، وبخاصة شعر الجاهليين منهم. ونذكر من هذه الخصائص:

1 ـ القصد إلى التصوير، ووفرة الصور القائمة على التشبيه، وجودتها في معظم الحالات. فمن قصيدة يتضمَّنها الديوان، وهي قصيدة رثاء أنشأها الشيخ في رثاء شقيقته، نمثل بهذه الأبيات:

من فؤادي استمدَّت العين عَبْـرَه　　فهي ترميـه قطـرةَ إثـر قَطْـرَه

فلـذاتَ يزجُّهـا الوجـد دمـاً　　للّهى غصَّة، وفـي الحلـق جمـره

لكـأنَّ الفـؤاد فـرخ نعـامٍ　　راعـه صـائدٌ فغـادر وكـره

صـاعداً هابطـاً فـراراً، ولكـن　　لـيس يـدري منهاجـه وممـرَّه

فَهْوَ يكبو طـوراً ويعثـر طـوراً　　ومنايـا الضُّـلوعِ أشـواكُ عثـره

إنَّ الشعر الحقيقي لا ينثر، وأعتقد أني مسيء إلى الشعر إن حاولتُ نَثْرَ هذه الأبيات.

ومن الصور الجديدة الطريفة صناعتها نذكر وصفه للسماور:

يتعـاقر الجـمّ الكثيـر كؤوسـه　　دوماً، فما سكروا بـه أو عربـدوا

وكــأنّهم روض الربيــع ســقاهُمُ ماء الحيــاة مــن طلَــه فتــورَّدوا

2 ــ وفرة الألفاظ والتعابير الشعرية التي استخدمت في الشعر القديم. والملاحظ أنَّ استخدام هذه الألفاظ والتعابير صار ينصبُّ ليس على مدلولها الوضعي الأصلي، وإنَّما على مدلول جديد اكتسبته على مرِّ العصور. فرضوى، على سبيل المثال، في قوله:

وغادرت للطودين رضوى ويذبلا من الصّبر منسوفين في ريحها ذرَّا

لم يعد مجرَّد اسم جبل، وإنَّما صار دالاً على مفهوم الثبات والصمود ومواجهة المصاعب والتجلُّد إزاءها..

ولوفرة هذه الألفاظ، نكتفي بالإشارة إلى بعضها، فنذكر: "أرسى من ثبير"، "عرف العراء"، "النيِّب"، "ريم النَّقا"، "الظَّليم المعفَّر"، "خُشْفٌ يلتفت"، "جؤذر عالج"..

3 ــ الخلوص، من خلال الوصف أو الرثاء أو الغزل، إلى حكمة تهمُّ الناس جميعهم، فنقرأُ في ثنايا القصائد أبياتاً، مثل:

– عاهدتني على السَّرى فوفت لي والوفــا مــن ســجيَّة الأحــرار

– لا،وكلاَ،بل الوصال تمام العشق والشــــيء للـــــزوال إذا تــــمْ

– إنَّ الملا ــــــــة حقّ ـــــــاَ فـــي النـــاس بنـــت الإطالـــه

فمــــــن أطيــــــل حيـــــاةَ مــــــلَ البَقـــــا لا محالــــــه

- وأنا الفقيد، وبين جنبيَّ الحِجى   والمرء يُفقَـد حـين يفقـد عقلـهُ

ويبدو أنَّ هذه القصائد الطويلة الجيدة، متعدِّدة الموضوعات، والمقطوعات التي تضاف إليها، والمنسوجة جميعها بعناية الصَّناع الماهر الذي يتخذ شعر البداوة مثالاً، يبدو أنَّها تشتمل على شيء "من المعاني البيانية والنكات البديعية"، متأثرة في ذلك بمفهوم للشعر الجيِّد كان سائداً في ذلك العصر، وسبق أن أشرنا إليه عندما عرضنا لمفهوم مقدِّم الديوان للشعر.

والحقُّ أنَّ قراءة متأنِّية في ديوان الشيخ تفيد أنَّ الصناعة البيانية والبديعية في بعض قصائده، تظل مقبولةً وتنمُّ عن ذوقٍ وذكاءٍ في الوقت نفسه، وتهدف إلى بثِّ الدهشة والتعجُّب. وهو في صناعته هذه يفيد من ثقافة غزيرة وعميقة تشمل ما يسمَّى بعلوم العربية: فقه، حديث، لغة، تاريخ عربي وإسلامي... ومن الأسلوب القرآني، فنقرأ على سبيل المثال:

- روت الفلكُ في متون البحـار   نبأ البرق عـن صـحيح البخـاري

وتلت سـورة الـدخان فغشـت   بلثـام الظَّـلامِ وجـهَ النَّهـارِ

فتحت للخضـمِّ عينـاَ، ومـرَّت   بـين أجفانهـا خيـالاَ سـاري

- كيف لا أخلع الحيـاة، وكلَـي   علـل هـنَّ صـيغة للطـلاق

(راجع المزيد، الديوان: ص72 و75 و89 و92 و102...).

لكنَّ ما لاحظناه من "نسج" يؤتيه صناع ماهر يسعى، أحياناً، إلى نكات بديعية لم يقف حائلاً، حين كان الموضوع يقتضي ذلك، دون استخدام العديد من العبارات والمفردات المأخوذة من الحياة، ونمثِّل على ذلك بقول الشاعر:

- ليس أم القرى سوى راحتيه وسواه الأمِّي، وَهْوَ القاري

فلم يبقَ منها مغرزاً لابن إبرةٍ ....

- ساقها للسُرى بليل ضلالٍ عاصفات الأهواء والغرضيَّهْ

كما أنَّ الموضوع الحيّ المنبثق من تجربة حياتية كان يفرض تَغَيُّراً في شكل التعبير، فيغدو البحر قصيراً والقافية غير متكلِّفة والألفاظ عذبة سهلة متداولة قريبة من العامّية، ونمثِّل على ذلك بقصيدة "في المحكمة" (الديوان، ص54)، ومنها الأبيات الآتية:

يا حاكمَ الصُّلحِ عجِّل لنا بفصل القضاء

... من حاكم الصُّلح يشكو الشّاكون بطء قضائه

لو كان ذو الحقَ روحاً لمات قبل لقائه

... في غرفة الحُكمِ.. فجٌّ ...

تاهت كأصحابِ موسى فيه حقوق الأنام

... من المحامين (فذّ) لم يدرس الفقه إلاّ

وإن كنَّا نرى أنَّ الشعر تعبير عن تجربة إنسانية بلغةٍ فنية، يعكس ويكشف وقد يحرِّض ويقود، وهو في هذه الحالات جميعها يحقِّق متعةً فنية.

وإن كنَّا قد ألممنا بشعر الشيخ عبد الحسين صادق، ورأينا أنَّه شعر ذو طبيعةٍ خاصة تكوَّنت بفعل الوظيفة التاريخية لهذا الشعر، وبدا لنا أنَّ هذا الشعر يحقِّق المتعة الفنية بتوفير الصورة الجيدة والتفنُّن في صياغة المعاني المتداولة في الموضوعات التقليدية، وفي إجادة بعض فنون البديع، فإنَّنا نرى أنَّ صنيع الشاعر هذا يعني فصلاً بين الشكل والمضمون. فالمضمون كان موجوداً وجوداً مسبقاً في ذهن الشاعر: أفكاراً وليس حالات، وقد اختار الشاعر له الشكل المتداول وربط بين الموضوعات بمسوِّغٍ ما.

وإن كنَّا نود الدقَّة في الحكم نقول: إنَّ معظم ما صنعه الشاعر يعدُّ نظماً فنِّياً لمقولاتٍ ذهنية، وإنَّ القليل مما أبدعه يُعدُّ معادلاً شعرياً لتجربةٍ حيَّة.

لعلَّنا لا نجانب الصواب في ما قلناه، فإن كان الأمر كذلك، فإننا نضيف القول:

إنَّ الشعر الذي درسنا كان شعر زمن البحث عن الجذور، أو العودة إلى نقطة البدء، فضلاً عن أنَّه كان، في معظمه، شعراً يتناول قضايا ذهنية طرحتها مرحلة دقيقة وفاصلة في التاريخ العربي بعامّة والعاملي بخاصة. ونعني بهذه المرحلة مرحلة الإحياء والنهوض والتخلُّص من نير الأتراك والاصطدام بالغرب الاستعماري مباشرة، أي أنَّ المرحلة طرحت قضايا الانتماء والبناء، وكان لا بد لهذه القضايا من أن تُطرح بالشكل المقبول

والمتداول والذي يُعيد الارتباط بالجذور فيحلَّ مشكلة من مشكلات عصر النهضة، وهي مشكلة النهوض اللغوي الشعري.

وفي تقديري، وتأسيساً على ما سبق، أنَّ النَّظم الفنِّي للرؤية كان يُلبِّي حاجة تلك المرحلة. فضلاً عن إمكان عدِّه، إن كان على مستوى من الإجادة الفنية راقياً، فناً شعرياً خاصاً يتميَّز من الشعر وليد التجربة الوجدانية والمعادل لها. ولعلَّنا صرنا على مسيس من الحاجة إلى مثل هذا التصنيف في إطار تعدُّد أنواع الشعر.

ب ــ النظرة إلى مختلف قضايا العصر وأهم مشكلاته

لعلَّ أهم قضية كان من المُلحّ تحديد موقف حيالها هي انتماء جبل عامل. والواقع أنَّ موقف العامليين كان واضحاً في هذا الصدد. فجبل عامل، في اعتقاد أبنائه، جزء من الوطن العربي الكبير. وكان عليه، مثله في ذلك مثل أي منطقة أخرى من الوطن العربي، أن يواجه خطط الأتراك العاملة للبقاء والتتريك في مرحلة أولى، ومشاريع الاستعمار الغربي في مرحلةٍ تالية.

إنَّ موقف الشيخ عبد الحسين صادق واضحٌ في هذا الصدد وصريح وعملي. وقد مرَّ بنا، آنفاً، أنَّه كان على رأس الوفد العاملي الذي قدم لتأييد فيصل. كما أننا نقرأ هذا الموقف ساطعاً في عدد من قصائده، ومنها قصيدة أنشأها على أثر قيام ثورة الشريف حسين، فمما يقول فيها:

... الدَّهرُ بــؤسٌ للأنــامِ وأنعــمُ　　　هــو تـــارةَ ريٌّ وطــوراَ علقــمُ

فالقومُ ينتحلون دينَ المُصطفى والمُصطفى ديناً بريءٌ منهُمُ

أفلا غلى في مسلمٍ دمُ غيرةٍ غَفرانَكَ اللّهمَّ أينَ المُسلمُ؟

هَبْ أنّكم ساهون عن دينٍ، أعن حفظ الذّمار لكم عيونٌ نُوَّمُ؟

أَخَبا شَواظَ العزمِ أم باخ الإبا أمْ خفَّ عبء الحزم أمْ جفَّ الدَّمُ؟

... لا تطمعوا من غير أمَّتكم بما يُغري الرضيع به سويعة يُفطمُ

لا يغركم منهم نعومة لمسهم فالصلّ ألين ما يُجسُّ وأنعم

حتّامَ أنتم في سبات جهالةٍ عما يضعضع مجدكم ويُهدِّمُ؟

وبعد أن يصرخ: هبّوا كما انبعثت أسود خفية... يقول:

أعطوا مقاليد القيادة لامرئٍ ثبْت البصيرة رأيه مستحكم

عضّوا النواجذ فالظبا عن هامكم تنبو، وموروا بالأسنّة تسلموا

ويقسم: قسماً بكم يا عرب

ليست براجعةٍ لكم أوطانكم "حتى يُراقَ على جوانبها الدَّمُ"

ويتَّضح، في هذه القصيدة، اتجاه الشيخ العربي الإسلامي الذي يكشف حقيقة الواقع المزري ويرفضه، ويحرِّض على تجاوزه في دعوةٍ إلى التغيير تنعى على المسلمين رقادهم وبقاءهم على هذه الحالة، معيداً أسباب ذلك إلى

بعدهم عن الإسلام، محدِّداً سبل الخلاص والبناء، التي تتمثَّل بالعودة إلى الجذور، إلى الدين القويم في أصوله ومنابعه الأولى.

والقضيَّة الثانية التي تبقى ملحَّة في كل نتاج عاملي هي واقع عاملة، واقع الوطن الصغير. ونلاحظ أنَّ الشيخ ينصرف، بعد أن فرض الاستعمار الغربي مشروعه الخاص بالمنطقة، إلى الكشف عن واقع عاملة وتحديد ما تعانيه من مشكلات، ومن هذه المشكلات التي يراها أساسية: عدم الوحدة، وسيطرة الأهواء الفردية، البُعد عن الدِّين، والضياع في متاهات العصر، وفقدان القدرة على التحرك المتجاوز لواقع التخلُّف.

ولا يكتفي الشيخ بتحديد المشكلات، وإنما يدعو إلى حلِّها، فينظر إلى الماضي المجيد، ويذكِّر به، ويرشد من ثَمَّ إلى الطريق القويم المبني على أسس دينية سليمة، توحِّد وتؤتي القدرة على التحرُّك والبناء. ومما يقوله في هذا الصدد:

علام انسكابك يا أدمعُ ... وممَّ التهابك يا أضلعُ؟

ويا فلذة القلب مالي أرى ... نياطك في آهة تقطعُ

أَجفَّ المعين وخفَّ القطين ... فعضَّ الثرى وخلا المربع

وساد الفساد بأنحائه ... وهبَّت أعاصيره الزعزعُ

كأن لم يكن غربه بالحصين ... ولا شرقه المُثْمِرُ المسبعُ

ولا بين هونينه والخضمّ ... مناجيده الأَسُد الدُّرَّعُ

ولا بـــــين بصـــــة والأولـــــي صـِـــلالَ بهـــا سُـــمُّها المنقـــعُ

في هذه القصيدة يكشف ويحرِّض على استعادة العزِّ، وفي قصائد تالية يحدِّد سبل الوصول إلى العزِّ السَّالف، ومما يقوله:

ولو استقمت على الطريقة لم تــزل فـــي عــزَّةٍ، والعِــزُّ فـــي المجمـــوعِ

أَتســـودُ عاملـــةَ وكـــلَ ســـوادها فوضى، ومـــا مـــن ســـيِّدٍ متبـــوعِ

ولكن هذه الرؤية لا تبقى عامَّة، ففي كثير من قصائده ينظر إلى قضايا محدَّدة ويعالجها. ففي رؤيةٍ لإلحاق جبل عامل بلبنان الكبير يحدِّد طبيعة العلاقة التي نشأت بين الجبلين: جبل عامل وجبل لبنان، ويرى أنها غير عادلة وغير متكافئة، ويحذِّر من مصير أسود للبنان الذي قام على أُسس غير سليمة، ومما يقوله في هذا الصَّدد:

... واجتاحه لبنان، وهو أخ لـــه في كـــلَ لفـــظٍ للإخـــا مشـــروعِ

ألقـــاه فـــوق حشـــيةٍ مفعومـــةٍ بنعومـــةِ التَّمليـــق والتَّصـــنيعِ

وأضـــافه جـــزءاً إليـــه إضـــافة التَّنـــوين للمتحـــرِّك المرفـــوعِ

لبنـــان لا تقطـــع أخـــاك، وبـــرُّه لـــك، لا بمقطـــوعٍ ولا ممنـــوعِ

أَعلمتَ أنَّ ليومـــك الحـــالي غـــداً وكتابه لحســـاب أمســـك مـــوعي

ويؤكِّد في مكان آخر المعاني نفسها، محدِّداً فضل عاملة على جبل لبنان

واستئثار هذا الأخير بالخيرات جميعها، وانتماء لبنان جميعه إلى العروبة، فيقول:

ألا قَلْ للبنان، وهو الصَّغير وفي عاملٍ لم يزل يرضعُ

أحين تريَّش منك الجناح وفي عنقك استغلظ الأخدعُ

ضلعت فأخفرت عهد الجوار وساغ بحلقومك المطمع

أتيت بها أيَّ أعجوبةٍ بها جبل جبلاَ يبلعُ

فإن نفح الخيرُ واجهته وإنْ عصف الشرُّ تستضلعُ

ألست وعاملة توأمين يضمكما الحسبُ الأضوعُ

فما لي أراك أبحت الجوار ومن سنّةِ العُربِ أن يمنعوا

ويبدو أنَّ الشيخ عاش في عاملة تجربة كانت على قدرٍ كبير من القساوة، نلمس هذا في عدد من قصائده، وبخاصة في مراسلاته للسيِّد حسن القزيني، ومنها قوله:

ويسوقني القدر المتاح مقوِّضاَ رحلي لعاملةٍ على استكراهِ

فلقد خفضت بعاملٍ قدراَ، وإنْ ساوى بها الشمَّ الشوامخ جاهي

ومنها أيضاً قوله، في قصيدة أخرى، نلحظ فيها مرارة الشكوى وتعدُّد القافية ووجدانية البوح، فيبدو الشيخ كأنَّه على حافة اليأس:

هل حاكم منصف؟من لي به! وخلــت كنانة الكون من عدلٍ ومن نَصَــفِ

سهمي من الكون سهمٌ خائط كبدي مُروقَــهُ ومشــلّ عبئــه كتفــي

ويبدو أنَّ تجربة الشاعر الوطنية الاجتماعية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتجربة شخصية وجدانية، كان يكشف فيها عن واقع عاملة الذي يعانيه؛ فهو واقع متخلِّف يستشري فيه كيد الحسَّاد وذوي الأهواء، فيتمنَّى لو أنَّه لم يغادر النجف. ولكنَّه عندما يغادر عاملة يحنُّ حنيناً وجدانياً عميقاً إليها، ولنقرأ أبياتاً قلائل تصوِّر هذا الحنين:

ما بارقَ موهناً من عاملٍ وَمَضَــا إلاّ وأودع قلبي حسرةَ ومضــى

ولا تنشّقت مجتــاز النّســيم بهــا إلاّ وصار فؤادي للجوى غرضــا

ولا ذكرت بسفح المــرج معهــدنا إلاّ وذكراه أهدت للحشا مرضــا

أحبَّتي عن فناكم مُذ نأى جســدي أقام قلبي به من بعــده عوضــا

أهتزّ شوقاً إذا مــا عــنّ ذكــركمُ كطائر بلّــهُ الوســميُّ فانتفضــا

عطفاً على دنفٍ مرمى سهام جوىً لولا بقيَّة صــبرٍ عنــده لقضــى

في هذه المقطوعة، وبخاصَّة قافيتها، نحسُّ نغماً يوحي بالاضطراب والمعاناة الوجدانيَّة العميقة التي تجعل الهمَّ رابضاً في النَّفس.

وهذه المعاناة الاجتماعية ــ الوجدانية التي تشيع في المقطوعة مناخها الانفعالي، يعبِّر عنها الشاعر في عدَّة قصائد أخرى، منها قصيدة "عمَّ الفساد"

التي نلاحظ فيها جودة المطلع ووفرة الصُّور ونغماً موسيقياً، نحسُّه، على سبيل المثال، في البيت الأول، في تكرار حرف الهاء فيه الذي يجعلنا نحسُّ بهبوبٍ ما، هبوب ريحٍ عاصفة، وتتالي أمور يواجهها إحساس بالمرارة وإيمانٍ عميق مسلَّح بإدراك وفهم ناضجين. واللاَّفت هذا التساؤل العميق عن طبيعة الفساد، وعمَّا إذا كان صنيعة الزمن نفسه، وليس زمن الشيخ فحسب.

لن أطيل في التعليق على القصيدة، ولنقرأ أبياتاً عن مظاهر الفساد وسبل إصلاحه:

بـــدعٌ تشـــبُّ فَتَلْهـــبُ المحـــنُ ... وهـــوىً يهـــبُّ فَتَطفَـــأ السُّـــنَنُ

والناس لا نـــاسٌ فـــيحفظهم ... مـــا أنكرتـــه العـــينُ والأُذُنُ

عـــمَّ الفســـادُ فمنـــك يـــا زمنـــي ... تعميمـــه أم منـــك يـــا زمـــنُ؟

أَمِـــنَ اللّبايـــا ضـــرعُ قيحـــك أمْ ... من ضـــرعك التّقيـــيحُ يـــا لـــبنُ؟

ضع حيث شئت يداً فموضعها ... صـــلٌ، ولكـــن ملمـــسٌ خشـــنُ

اشربْ صـــداقة مـــن أردتَ فمـــا ... فـــي فيـــك إلاّ الآجـــنُ الأســـنُ

واقبض على من رحـــت تقبضـــه ... فـــالطيف ذاك، وكفّـــك الوســـنُ

مـــن لـــي بـــذي ديـــنٍ أطارحـــه ... آهـــات صـــدرٍ ملؤهـــا شـــجنُ

هي بين جـــانِحَتَيْ حشـــايَ لظـــىً ... وبمحجـــريَّ الوابـــلَ الهـــتنُ

وتكشف قصائد الشيخ، فضلاً عن الفساد الاجتماعي، الفساد السياسي، على مستوى السلطة وأجهزتها وموظَّفيها، فيرينا القاضي الذي يوصد أبوابه في أوجه المعدمين، هذه الأبواب التي يكون مفتاحها:

من لهذا البئـــيس أن يلـــج الخِـــدْ ر، ومفتاح قلبـــه ألـــفَ درهـــمْ

ويُرينـــا الموظَّف الآخـــر الذي يهمل مصالح المواطنين، ويوصلهم إلى مواطن اليأس، فيقول:

لـــو كـــان ذو الحـــقَ نوحـــاَ لمـــــــاتَ قبـــــل لقائـــــــهْ

أو كـــــان أيـــوب صـــــبراَ لمـــــــلَ طـــــول بقائـــــهْ

وقد كان من أخصِّ واجبات الصحافة أن تعنى بهذا الواقع، وأن تحمل عبء معالجته، ولكنها على النقيض من ذلك، لا تعدو كونها مظهراً آخر من مظاهر الفساد، لا يفهم أربابها منها سوى ما تدرُّه عليهم من ربح وفير عبَّر عنه الشيخ الشاعر بمفردةٍ موحيةٍ هي "صحاف"، لعلَّها تومئ إلى صحاف الطعام، نقرأ في إحدى قصائده قوله:

صحافة "الصِّحاف" فـــي عصـــرنا سياســـــة للحـــــاكم المســــتطيلْ

وُجُـــودُ مـــا يرضـــى بـــه لازمٌ فيهـــا، ومـــا يكرهـــه مســـتحيلْ

ألـــيس ذا عـــذراَ جمـــيلاَ لمـــن فرَّ عـــن "الصـــحاف" آلافَ ميـــلْ

الواقع البديل ــ الحلم

إن كان هذا هو الواقع الذي يكشف عنه الشيخ عبد الحسين صادق، أو يحرِّض بغية تجاوزه، ويصل إلى حدٍّ أن يقول "سهمي في الكون سهم خائط كبدي..."، في معاناة وجدانية مِلْؤُها الأسى، فهل كان يملك نظرةً إلى واقعٍ بديل؟

الحقُّ أننا نتلمَّس هذا البديل في ثنايا قصائد الشيخ، ويمكن لنا أن نصوغه، كما يأتي: يدعو الشيخ عبد الحسين صادق للعودة إلى الدين القويم في أصوله، الأَوْلَى أن يكون هذا الدين مالكاً القوَّة التي تمنعه وتنفِّذ أحكامه بتجرُّد كلِّي وتحكيم للعقل في مختلف الأمور الطارئة. فنقرأ له، على سبيل المثال، وصفاً للحاكم العادل:

من بدء فطرته ليوم وفاته ما عاش غير مطلَقِ دنياكِ

من لي به، والأرض خلو منه في هذا الزمان القاتم اللَّحاكِ

ووصفاً للقضاة:

يقضون فيه،ولو كان القضاء على نفوسهم، أو على أمٍّ لهم وأب

وتأكيده لأهميَّة العقل:

وعليك بالمعصوم، وهو العقل فا لعقل السليم يطابق الإيحاء

ويبدو أنَّ الشيخ كان يدرك الصعوبات التي تحول دون تحقُّق مشروعه، وربَّما كان يحسُّ باستحالة ذلك، وذلك في الوقت الذي كان يعاني فيه من استمرار الواقع المرير. فلجأ في التعبير عن معاناته إلى الحلم، يحقِّق عبره مشروعه السياسي الاجتماعي العمراني. نستشفُّ هذا الحلم في قصيدة فريدة متميِّزة يحتويها الديوان؛ وهي بعنوان: "أطياف عربيَّة"، وتتألَّف من أربعة أقسام، أو أربعة أطياف هي: طيف دولي، أي سياسي، وطيف علمي، وآخر عملي، ورابع عمراني.

نلحظ، بدايةً، العنوان، ونتوقَّف عند إضافة آمال الشاعر وأحلامه إلى "عربية"، الأمر الذي يعني تحديداً للانتماء وللتوجُّه الرَّامي إلى تحقيق مشروع شامل يحقِّق الذَّات من دون أن يكون تابعاً للغرب.

فعلى الصعيد السياسي، يحلم الشاعر بوطن عربي ملكه قويّ تخضع له الملوك. سلطانه واسعٌ محميٌّ بجيشٍ قوي. يوحِّد هذا الملك أبناء العربية تحت رايته في وحدةٍ غلاَّبة، لا يباعد بين أبنائها دينٌ أو حسب، وفي دولةٍ عادلة يرفل الحقّ في أبراد عزَّتها، ويحكم قُضاتها بالقسطاس. ويُسعد الحلم الشاعر فيهتزُّ قلبه فرحاً وينتبه، فإذا به طيفُ مرَّ في البال.

وعلى صعيد العلم، يحلم الشاعر بأن يكون في وطنه القوي، ذي الدولة العادلة، نادٍ للعلوم يؤمِّن للعرب وسائل حربٍ تعيد المجد الغارب ووسائل علمية تبني الوطن، مذكِّراً بمجد الشرق الذي انبثقت منه الرِّسالات، والذي سبق الغرب في القرون الغابرة أشواطاً، ويسعده هذا الحلم فيهتزُّ قلبه سروراً، فإذا به طيفٌ عبر في الخيال.

أمَّا الطيف العملي، ففيه رسم للإنسان العربي الذي يعمل في سبيل تحقيق المشروعين: السياسي والعمراني. يرسم الشيخ في حلمه صورةً لهذا الإنسان، فإذا به ينقل أقدامه إلى معبده، مغضياً على الفحشاء، مسيلاً لله دمعه، يمشي الهوينا غير تيَّاهٍ ولا مرح، متبتِّلاً لله، يؤدِّي عباداته على أكمل وجه، ويجتهد في سبيل توفير الخير لأهله ووطنه، تُسعده رؤية هذا الإنسان، فإذا به طيفٌ آخر يعبر.

ويبدو الحلم العمراني مشروعاً اقتصادياً يُتيح للأرض العربية أن تغدو حديقةً غنَّاء يعبق فيها الإيمان. ولكنَّ هذه الرؤية الاقتصادية تبدو طيفاً يُسعده مروره في البال لحظاتٍ غير طويلة.

إنَّ هذه القصيدة التي حاولنا عرض خطوطها العامة تلخِّص رؤية الشيخ عبد الحسين صادق إلى قضايا الوطن وانتمائه وسبل بنائه. وهي، في الوقت نفسه، تتميَّز بخصائص بنائية منها، أنَّ الشاعر لا يلجأ فيها إلى مقدِّمات، وإنَّما يبدأ بعرض حلمه مباشرة؛ وهو حلم يتألف من أربعة أطياف، كلُّ طيف يعرض في قسم من أقسام القصيدة التي يبدو فيها أثر الجهد في سبيل الإجادة، ولكنَّه يبقى جهداً يقرِّبها من الروائع العربية الأولى، ويبعدها عن تكلُّف الصناعة والبديع. ولعلَّ هذا الجهد محاولةٌ لتحقيق الحلم على الصعيد الشعري الذي قد نعدُّه طيفاً خامساً، أمكن للشاعر أن يحقِّقه، فلعلَّه يُحيي اللغة الشعرية التي كادت تُميتها الزخارف من نحوٍ أول والعجمة والركاكة من نحوٍ ثانٍ. ويُعيد للنبتة ارتباطها بجذورها.

نقرأ أبياتاً من الطيف الثالث:

جُنَّ الظّلامُ وغارت أعينُ الشّــهُبِ   مُذْ قصَّر الصُّبحُ شعرَ الغاسق الوقِــبِ

والدِّيكُ كبَّر والعصفورُ هلّل والــــ   قمريُّ سبَّح فوق الأملــدِ الرَّطِــبِ

والناسُ طَرّاَ تجافت عن مضاجِعِها   للبـــرِّ، للـــذِّكرِ، لـــلأورادِ للقَـــرَبِ

كـــلّ لمعبــــدِهِ أقدامُـــــهُ نَقِلَـــتْ   على سكينةِ قلـــبٍ خاشِـــعٍ وجِـــبِ

بـــالخيرِ يـــدعو لأهليـــهِ وجيرتـــه   وبالصَّلاحِ إلـــى إخوانِـــهِ العَـــرَبِ

يــــودُّ ودّاَ صـــــميمياَ نجـــــاتهم   من الذّميمينِ: سوء العيش والنّصَبِ

فاهتزَّ قلبي سروراَ فانتبهــتَ فـــإذ   مرئيُّ عينيَّ طيــفَ مــرَّ بالهُـــدُبِ

مواجهة إشكالية العصر: العلاقة بالغرب

ولكنَّ تحقُّق هذا المشروع الطامح إلى التغيير والبناء، يحتاج إلى مواجهة إشكالية العصر الحديث الأساسية؛ نعني بها إشكالية العلاقة بالغرب الذي يمثِّل الحداثة والاستعمار في آنٍ واحد.

يعرض الشيخ لهذه الإشكالية فيقرُّ بتقدم الحضارة الغربية، مؤكِّداً أنَّ الحضارة أدوار، وأنَّ إنجازات الغرب إنما أُسِّست على ما حقَّقه الشرق في مرحلة تاريخية سالفة، فنقرأ له قوله:

... منها تناثر في كل الورى حِكَـــمٌ   قد دوَّنته رجالَ الغربِ فـــي كَتَـــبِ

ومنه قـد قبسـت نـوراً فكلّلهـا   باللؤلؤ الرَّطبِ لا بالزُّبرجِ الكـذِبِ

فليشكر الغرب فضلَ الشرق منعشه   في قطرةٍ من عُزالى غيثه السَّكِبِ

أكبِرْ بخمسـة أبطـالٍ بـه نبغَـتْ   ما متّ واحدها للغربِ فـي سـبَبِ

ويرى أنَّ ما تجب الإفادة منه، وهو ما حقَّقته أوروبا من تقدُّم، يختلف تمام الاختلاف عن أوروبا الاستعمار. إنه، في الحقيقة، يُدرك تمام الإدراك طبيعة الاستعمار ويكشفها بلغةٍ فنيةٍ ممتعة. في ديوانه العديد من الأمثلة، نذكر مثالاً يخاطب فيه السياسة:

لك حاكةً مهرت بصُنعكِ، والرجيـ   ـمُ أبو الأبـالس أو أبـو الحُيَّـاكِ

اتخذتكِ "لنـدرة" شـعاراً ضـافياً   رحـب البنـائق واسـع الأوراكِ

مـا أنـتِ إلاّ قنفـذً مقلوبـةً   تَغـرين مسـتلميكِ فـي ملسـاكِ

ويهمّني أن أُشير هنا إلى أمرين، أولهما: خصيصة تكرَّرت في شعر الشيخ، وهي توافر النغم الموسيقي الموحي. إنَّ تكرار صوت السِّين هنا، يجعلنا نلمس طبيعة السياسة الملساء والموسوسة، وثانيهما، الصور المبتكرة التي تجسِّد السياسة الاستعمارية تمام التجسيد.

يرى الشيخ عبد الحسين صادق أن نفيد من العلم الغربي الذي تأسَّس على معطيات وفِّرتها الشعوب الإنسانية جميعها. والعلم في مفهوم الشيخ صادق، هو كل ما يسهم في تطور معرفة الإنسان وسعادته، وعلى العكس

منه يكون الجهل، فهو كل ما يُسهم في إيذاء الإنسان والإساءة إليه، فنجده يُخاطب الغرب متعجِّباً من مساوئه التي يعدُّها هو مجداً، فيقول:

ومن عجبٍ، وهي المساوي يعدُّها   بنو الغرب للغربيِّ مجــداً مــؤثَّلا

ويقول:

بني الغرب، رفقاً بالحياة ورحمــةً   فلم يُخلق الإنســانُ منّــا ليُقــتلا

حناناً على النوع الذي منه أنــتَمُ   لقد صار في قيد الهــلاكِ مكــبَّلا

وهو، هنا، يتحدَّث عن حقوق الإنسان البديهية. التي يقرُّها الإسلام. وقد تحدَّث عنها الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، عندما قال: إنَّ الإنسان إمَّا أخ لك في الدِّين أو "نظير في الخلق".

ويُقارن بين صنيع الغرب في العصر الراهن وصنيع العرب المسلمين في الماضي، ويؤكِّد عدم قدرة الغرب على الانتصار على الإسلام والمسلمين، فيقول:

ملكنا بحار العلم قــدماً فلــم نكــن   نَنيل الورى إلاّ الرحيق المسلســلا

وحين ملكتم قــد ملأتــم حياضــنا   وغَدراننا الصَّاب الأُجاج المحــنظَلا

توغَّل فينا صــوتكم فــاغراً فمــاَ   فغادرنــا مــا بــين فكّيــه مــأكلا

وبــــثَ ســــراياه لتحويـــل ديننـــا وهيهـــات حـــول اللهِ أن يتحـــوَّلا

وينتهي الشيخ، في نظرته إلى هذه القضية، إلى خطابٍ يؤكِّد فيه ضرورة أن يُقبلَ الشرقيون على العلم لعلَّهم يستعيدون ماضيهم، ويعطون الحضارة الإنسانية صفاتها الحقيقية، ولأنهم إن أخلدوا للجهل يخلدون إلى حفرةٍ هي، كما يقول:

فأخلدتَمُ للجهلِ، والجهـــلَ حفـــرةَ هي القبر،أو مطمورة الطّمسِ والبَلا

هــ قضيَّة المرأة

إنَّ العلم يطوِّر الإنسان ويُسهم في إسعاده. يؤكِّد الشيخ هذه المقولة، ولكن هل كان، في تأكيده، يدعو إلى تعلُّم كل من الرجل والمرأة؟ وبشكل عام نسأل: ما هو موقف الشيخ من قضية المرأة التي كانت مطروحة بإلحاح في تلك المرحلة؟

ينبغي، في هذا المقام، الإشارة إلى ما كان سائداً في تلك المرحلة من مواقف. فقد كان هناك تياران: الأول محافظ والثاني متحرِّر، على اختلاف في التفصيلات بين فئات كل تيار.

كان التيار الأول يرى، في اتجاهه الغالب، ضرورة تعليم المرأة، شريطة أن تبقى في خدرها وأن تحتفظ بحجابها. ورؤيته هذه تنطلق من اعتقادٍ مفاده أنّ العلم القويم يؤهِّل المرأة لأداء دورها الحقيقي والوحيد: زوجةً ومربِّية وسيِّدة بيت. وهو، إذ يغفل أي دور آخر للمرأة، وإذ ينظر إليها بوصفها أنثى ينبغي الحرص عليها عقيلةً، يقرِّر ضرورة الخدر

والحجاب. وخير من يمثِّل هذا التيار الشاعر أحمد محرَّم (1877 ــ 1945)، ومما يقوله في هذا الصدد:

أؤثر الخدر والحجــاب وأخشــى أن يُباح الحمى ويُغشــى الحــريمُ

أطلــب العلــم للفتــاة وحســبي أن يــزين الفتــاة علــمٌ قــويمُ[(1)]

أما التيار الثاني المتحرر، فكان يدعو، في اتجاهه الغالب، إلى تعليم المرأة ضد نوائب الدهر بما يتيحه من إمكانات للعمل المنتج اجتماعياً.

ويعود هذا التيار، في بداياته، إلى دعوة رفاعة الطهطاوي (1801ــ 1873) في كتابه: "المرشد الأمين للبنات والبنين"، الصادر عام 1872[(2)].

وخير من يمثِّل هذا التيار الذي يرى في المرأة، فضلاً عن كونها أنثى، كائناً قادراً على أداء عمل منتج اجتماعياً، قاسم أمين. ومن دُعاة هذا التيار، في عاملة، على سبيل المثال، عبد الرؤوف الأمين (فتى الجبل: 1906 ــ 1970). ومما يقوله في هذا الصدد:

ما ارتقــتْ أمَّــةٌ مــن النــاس إلاّ يوم سارتْ بــين الفتــى والفتــاة

[(1)] المرأة الجديدة، مجلد3، ص189.

[(2)] راجع في هذا الصدد: أحمد طه، المرأة: كفاحها وعملها، القاهرة: دار المعارف، 1964، ص12؛ مجد الدين ناصيف، آثار باحثة البادية، االقاهرة: المؤسسة العربية للتأليف، 1962، ص7.

كيف يرقى الشعب الذي أنت منـــه وبنـــوه فـــي جهلهـــم والبنـــات[1]

ويبدو واضحاً أنَّ الشيخ عبد الحسين صادق ينتمي إلى التيار المحافظ في تميُّز محدود. ذلك أنَّه يدعو إلى تعليم المرأة ليس لأنها نصف الأمَّة فحسب، بل لأنَّها تربِّي الأمَّة كلها. ولكنَّه يعتقد، في الوقت الذي يدعو فيه إلى تعليم المرأة، أنَّ السفور رأس الفساد المنذر بخراب العمران. ففي إحدى قصائده، على سبيل المثال، يفيض بذكر محاسن إحدى النساء، ويبتكر صوراً غزلية مستمدَّةً من مخزون الثقافة الدينية، وتوحي بما يريد الوصول إليه، ويقول مؤكِّداً على اتباع تعاليم الدين في مصدريْه: الكتاب والسنَّة:

فانفِ السفور فإنّـــه رأس الفســا د، المنـــذر العمـــران بـــالأهلاك

أيزيغ حكمك حائـــداً عـــن ســمته والعقـــل والفرقـــان منهوجـــاك

والســـنّة الغـــرَّاء ســـنّة أحمـــد نـــار علـــى علـــمٍ ذكـــت لهـــداك

ويُلاحظ أنَّ الشيخ كان يحرص على تناول هذه القضيَّة باستمرار، ويغتنم أي مناسبة تسنح له ليفعل ذلك، عامداً إلى إثارة المفارقات الطريفة الساخرة أحياناً. ففي إحدى قصائده، يسخر الشيخ من القضاة الملثَّمين الذين يحتجبون عن ذوي الحاجات ومن النساء السافرات، فيقارن بينهما، ويقول:

ليـــت أنّ القَضـــاة كـــانوا نســـاءً اليـــوم كـــي يكشـــفوا المحيّـــا؟

---

[1] العرفان، مجلد13، ص678.

الدِّيـــن وقضاياه

ويناقش الشيخ عبد الحسين صادق، بوصفه عالماً دينياً، قضيَّة الدِّين في مسائل تتعلَّق بالإيمان وبوحدة المسلمين، وبدعوات الإصلاح الديني، وهذه مسائل لا تزال مطروحة بإلحاح في أيامنا هذه.

يصل الشيخ إلى إيمانه من طريق إعمال العقل[1]، فهو في إحدى قصائده، يناقش آراء المفكِّرين في مسألة وجود الله، وينتهي إلى القول مخاطباً الدهري:

إذاً فـــلا بـــدَّ مـــن وحـــيٍ ومقتـــدرٍ ومـــن خبيـــرٍ بالـــذي يفعلـــه

فسمِّه، أيهـــا الـــدهريُّ تســـميةً فما المُسمَّى سوى الله العظيم عـــلا

والواضح أنَّ إيمان الشيخ المبنيّ على أساسٍ عقلي، يجعله ينبري للدعوة إلى الوحدة بين المسلمين في غير قصيدة. ويرى أنَّ أسباب التفرقة إنما تعود للأهواء التي تتلوَّن بألوان المصالح، وبخاصة السياسية منها، فيقول في إحدى قصائده:

... من لي بيومٍ يعاطيني مســـرَّته والمُسلمون جميعاً غيـــر أشـــتات

قـــل للشـــتيتين والإســـلام ديـــنهم معـــاً، ومـــولاهمُ خيـــر البريَّـــات

---

[1] إنَّ الميزة البارزة لدى الشيخ هي إعماله العقل والمنطق في مختلف الأمور، ولعلَّ خير ما يصلح للتمثيل على ذلك إحدى قصائده، والتي تنتمي للشعر المجلسي، ص56 من الديوان.

فـيمَ اخـتلافكَمُ والـدِّين وحَّـدكم أَسوَّغ الـدِّين تلـك الاختلافـات؟

سياسة الملك في ما بينكم فصـلت الله الله مـن تلـك السياسـات

...ردوا إلى الله والهادي النهي معـاً أمـر الدِّيانـة لا للظـالم العـاتي

ما حالكم في زمـانٍ فـاغر فمـه للقفكم غير حال الـذئب والشّـاة

إن دام هذا، ولم تـأووا لجامعـةٍ يَضِقْ على فردكم رحب الجماعات

وفي هذا الإطار من الفهم للدِّين يردّ على الدعوة الوهَّابية فيقول:

ذَرْ ذي وَعُجْ نحو شـراةٍ نبـذت تعظـيم رُسُـلِ الله أو تمجيـدها

فاتـلَ ولـو أنّهـمُ إذا ظلمـوا علـيهمُ يـا تاليـاً مجيـدها

تجـد لرسـل الله عنـد الله جـا هـاً واسـعاً لخلقـه مفيـدها

ولعلَّ هذا الإيمان بجاه الرسل والأئمة وتعظيمه لهم، جعله يتخذ موقفاً من إقامة المآتم الحسينية، يقول بضرورة إقامتها، انطلاقاً من إيمانٍ عميق يعود للقرآن والسنَّة، فنقرأ له قوله عن فئة:

تـرى إقامـة العـزاء بدعـةَ جديـدةَ يـأبى الهـدى تجديـدها

أمـا درت أنَّ النبـيَّ سـنّها لعمِّـه مستحسـناً مزيـدها

ألـم تـرد بـه صـحاحٌ جمَّـةَ لا يجهـل ابـن سـنّةٍ ورودهـا

... أَمُتَ يا إنصاف أم فقـدتَ يـا منصف، أم ضـللتَ يـا رشـيدها

أم لم يجـب تقليـد آل المصـطفى والمصـطفى ملزمنـا تقليـدها

ويبدو واضحاً أنَّ الشيخ يدعو إلى إقامة المأتم الحسيني، انطلاقاً من اتباع سنَّة النبيّ الذي أراد أن يُقيم عزاء لعمِّه الحمزة. وهذا يغاير تماماً ما كان يحدث في المآتم الحسينية من مظاهر لا تتعلَّق بالهدف من إقامة المأتم الحسيني. إنَّ هذه المظاهر هي التي انصبَّت عليها دعوة السيِّد محسن الأمين للإصلاح، أي أنَّها انصبَّت على ما كان يرافق المآتم من بدع ومنكرات، وليس على المآتم نفسها. ومن ذلك قوله: "... فمن ذلك إقامة شعائر الحزن على سيِّد الشهداء أبي عبدالله الحسين بن علي(عليه السلام) التي استمرَّت عليها طريقة الشيعة من عصر الحسين(عليه السلام) إلى اليوم. ولمَّا رأى إبليس وأعوانه ما فيها من المنافع والفوائد، وأنه لا يمكنهم إبطالها بجميع ما عندهم من الحيل والمكائد توسلوا إلى إغواء الناس بحملهم على أن يُدخلوا فيها البدع والمنكرات وما يُشينها عند الأغيار، قصداً لإفساد منافعها وإبطال ثوابها..."[1]

---

[1] السيد محسن الأمين، رسالة التنزيه، بيروت: دار الغدير، ص7.

الشاعر الشيخ سليمان ظاهـــر
في رحلة العمر وكتابة الشعر

بقلم: د.علي سلوم
(أستاذ الأدب العربي في الجامعة اللبنانية)

في بيئةٍ خلاَّبة قلَّ نظيرها، أثقلتها الأحداث، جسَّدتها أقلامُ ابنائها بمراسلاتٍ ولقاءاتٍ ومناظرات، كان الشعرُ فيها سيِّد الموقف. إذ من خلاله حُفِّزت الهمم، وتَبَارت القرائح، فصُقِلَ الفكرُ وظهر الإبداعُ جلياً عند الكثيرين ممَّن عجَّ بهم هذا الجبل الأشم، أعني به جبل عامل.

يقول المؤرِّخ شمس الدين الأنصاري الدمشقي في كتابه "نخبة الدهر في عجائب البر والبحر": "جبل عامل عامرٌ بالكروم والزيتون والخروب، وأهله وشعبه إمامية رافضة، وجبلُ جُبع هو جبل عالٍ كثير المياه والكروم والفواكه وكذلك جبل جزِّين"[1].

---

[1] نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، شمس الدين الأنصاري، ص221، ط 1923م.

في كَنَفِ هذا الجبل عاش شعراء ومفكِّرو النبطية، وتحت سمائه ترعرعوا وعبُّوا من تلك المناظر الخلاَّبة، فكانوا مرآةً عكست سحرها وجمالها، وصدىً ردَّدوا أحداثها بأشعارهم الرائعة.

هذه الطبيعة بما فيها من سحرٍ وجمال أمدَّت الشعراء بلوحاتٍ غذَّت أرواحهم نسجوا خيوطها بأسلاكٍ ملوَّنةٍ نسجتها عدسات أفكارهم في كلامٍ صادق وشعرٍ جميل.

في هذا الجو الرومنسي نشأ وترعرع الشيخ سليمان بن محمد بن علي بن إبراهيم بن محمود ابن ظاهر زين الدين العاملي النَّبْطي[1] .

ويعود نَسَبه إلى العلاَّمة الشهيد زين الدين المعروف بالشهيد الثاني[2]. والده من الرجال الصالحين محبِّي العلم والعلماء، كان صديقاً للكثيرين من فقهاء عصره. وقد ترك قرية دبين مع أخويه وأقام في النبطية وإليهم تعود الأسرة الظاهرية في النبطية.

وُلد الشيخ سليمان في العاشر من محرَّم سنة 1290هـ / 1873م في النبطية التحتا، وقد استبشر به والده الخير والعافية والنجابة وعلو الهمَّة. وقد صدقت نبوءة الأب فكان الطفل على قدرٍ وفير من الذكاء والموهبة بحيث أنَّه تفوَّق على أقرانه في مجالات الشعر والأدب وكان مجلِّياً في كل حقول الفكر والمعرفة.

بدأت الكآبة تتسرَّب إلى نفسه وهو في الثالثة من عمره إثر وفاة والدته، فحضنته خالته وهي الزوجة الثانية لأبيه. وما إن بلغ العاشرة من عمره حتى

---

[1] معجم المؤلِّفين، عمر كحالة، ج13، ص391، المكتبة العربية، دمشق، 1961.

[2] نقلاً عن ولده عبد الله في جلسة خاصة بتاريخ 1979/8/16.

أرسله والده إلى بعض الشيوخ ليحفظ القرآن ويُلمَّ بمبادئ العلوم والخط والإملاء، ممَّا جعله مهيَّئاً لمستقبلٍ فكري واعد. وقد تتلمذ الشيخ الشاعر على يد السيِّد محمد نور الدين الموسوي في النبطية الفوقا حيث تعلَّم منه النحو وقد لازمه قرابة ثلاثةِ أشهرٍ، إلى أن حضر إلى النبطية السيد محمد علي إبراهيم الحسيني عام 1303هـ، فلازمه الشاعر وقرأ عليه النحو والصرف والمنطق والكلام[1].

وما إن بلغ الشيخ الشاعر درجةً من الوعي حتى رحل إلى النميرية برفقة الشيخ أحمد رضا. وقد تلقَّيا العلوم في مدرستها على يد رئيسها السيِّد حسن إبراهيم الحسيني (أحد علماء تلك الفترة). وكانت تلك أول رحلةٍ يقوم الشيخ بها خارج بلدته، ثم انتقل بعد أشهر إلى بنت جبيل والتحق بمدرستها التي كانت آنذاك حافلةً بالعلماء والمفكِّرين. ولم تدم رحلاته هذه طويلاً، إذ سرعان ما عاد إلى بلدته النبطية والتحق بالمدرسة النُّورية في النبطية الفوقا وبقي فيها حتى عام 1309هـ إلى حين مجيء العلاَّمة السيِّد حسن بن يوسف مكي الذي أسَّس مدرسة عَمُرَتْ بالطلاب من كلِّ حدبٍ وصوب ومكث الشيخ سليمان فيها ما يقرب من خمسة عشر عاماً يدرس المنطق والبيان، ومبادئ الأصول على يد كبار شيوخ العلم. ونظراً لنبوغه أُتيح له أن يُلقي الدروس على الطلاب في نفس المدرسة في المنطق والبلاغة وأصول الفقه والتوحيد.

قرض الشيخ الشعر يانعاً وهو ابن خمس عشرة سنة وسلك فيه طريقاً جديداً اقتدى بهديه الشعراء العامليون من بعده. أُولع بالكتابة والتاريخ،

---

[1] مجلة العرفان، م56، ج3، ص213. من مقال للأستاذ حسين محفوظ.

وشُغف باللغة، راسل المجلات اللبنانية والمصرية والسورية والعراقية وزوّدها بالعديد من المقالات والأبحاث[1].

قال فيه الناقد محمد علي حشيشو: "الشيخ سليمان شاعر حضري في وسط البادية يُجيد انتقاء الألفاظ، واختيار عقائل المعاني وأوانسها إجادة تدلُّ على رسوخ معرفته في البلاغة. ووصَّافٌ بديع الوصف جميل الرصف يجعل الموهوم مرئياً والنائي دانياً، وله في وصف التمدُّن الحالي وما فيه من بهي المناظر وفخيمها غُرَرٌ لعبَتْ في العقول تَلاعب العيون في النفوس، وإذا وَعَيْتَها خُيِّل إليكَ أنَّه ترب تلك البقاع، ووليدها، ولو ظهر شاعرنا في مجتمعٍ راقٍ لكان ساعده ذلك على إظهار قواه الكامنة، ولوجدنا فيه آية البيان الساطعة، ومشرق الكلمة الزاهرة. وهو يحادث العامة بأسلوبه الشعري البديع كما يحادث الخاصة. وهذا دليل على أنَّ قوته الشاعرية كانت تُحدثُ في الأفكار تأثيراً بليغاً ينالُ به الرقي عن كثب[2].

وفي وصف شاعرية الشيخ سليمان يقول الشيخ محمد جواد مغنية[3].

" المقام لا يتسع للكلام عن صفات الشيخ وسائر جهاته. ولكن ما يهمّنا الكلام عنه هو تلك الصراحة والشدة على الظالمين". ويُكمل الشيخ مغنية فيقول: "كان الشيخ يقدِّر أهل الدين، ويحترم أهل العلم، ويغضب للحق، ويثور على الظلم والفساد، كما هي الحال عند شيعة الإمام علي، والشيخ سليمان في طليعة هؤلاء ".

---

(1) مقال الأستاذ محفوظ ، ص218.

(2) مقال للأستاذ حشيشو، العرفان، م2، ج10، ص504.

(3) كتاب من هنا وهناك، محمد جواد مغنية.

مؤلفات الشيخ سليمان: وهي كثيرة في العرفان والمقتطف والمقتبس. ومن كتبه المطبوعة والنادرة الوجود: "الذخيرة إلى المعاد" وهو كتاب نثر فيه أكثر من ثلاث وعشرين قصيدة، فيها ما يزيد على الألف ومائتي بيت من الشعر في التوحيد ومدح الرسول وأهل البيت والأئمة الطاهرين.

وقد ظهرت قمة شاعريته من خلال ديواني "الفلسطينيات، و"الإلهيات"، الأول طُبع سنة 1954 في المطبعة العصرية في صيدا، وفيه ما يقرب من ألف وتسعماية بيتٍ موزَّعة على ثلاثين قصيدة، وعدد صفحات هذا الديوان ماية وخمس وعشرون صفحة، وهذا الديوان غير متوفِّر إلاَّ عند ولده عبدالله وقد اطلعتُ عليه شخصياً.

أما الديوان الآخر فهو عبارة عن مجموعة قصائد في الدين والوعظ، وقد كتبها الشيخ في ظل الأحداث التي كانت تعصف بالمنطقة وتكاد تزعزع أو تطيح بإيمان أبناء قومه، وكان على شاعرنا التنبيه والتحذير. وهذا الديوان مطبوع أيضاً في المطبعة العصرية عام 1954 ويحوي أكثر من ألفي بيت شعر موزَّعة على ستٍ وثلاثين قصيدة يتراوح عدد أبيات كل منها بين خمسة عشر بيتاً ومائة بيت. وأكثرها يدور حول الله والوجود، وصفحات الديوان تبلغ مئة وثماني وثمانين صفحة. وقد بدأ الشاعر مؤلَّفه بمقدمة أشار فيها إلى غايته من التأليف والدوافع له.

إضافة إلى ذلك هناك مجموعة قصائد منشورة في مجلة العرفان وهي تحمل عصارة فكر الشاعر وتزيد على الخمس والأربعين قصيدة ومجموع

أبياتها يناهز الألفي بيت في مواضيع متفرقة، في الدين والسياسة والاجتماع والفلسفة والرثاء والوصف والتاريخ والمناسبات.

وهناك قصائد أخرى في مؤلفات "أعيان الشيعة" و"خطط جبل عامل" و"امالي الوحدة". ومطوّلة قِيلت في المهرجان الألفي لأبي الطيِّب المتنبي عام 1936 وأبياتها تفوق المائة واثنتين وسبعين بيتاً وهي مطبوعة نادرة.

وهناك ديوان شعر ضخم لا يزال مخطوطاً عند ولده عبدالله ظاهر وهو بعنوان "من وحي الحياة" وقصائده موزَّعة على عدة أبواب، منها: "الحسينيات" اثنتا عشرة قصيدة في دفتر واحد، "الهاشميات" سبع عشرة قصيدة في دفتر واحد، "الوصفيات" في دفترين، "الاجتماعيات" في دفتر واحد، "العبقريات" في دفترين، "النبويات" في دفتر واحد، "الوطنيات" في ثلاثة دفاتر، وتزيد صفحات كل دفتر على المابة.

وللشاعر ديوان مخطوط بعنوان: "الرباعيات" وهو في ثلاثة دفاتر، بدأ قوافي القصائد على الحروف الهجائية، ووصل فيها إلى حرف الميم وتشمل مواضيع مختلفة، وقد اطَّلعتُ عليها شخصياً ولكن لم يتسنَّ لي تصويرها لحرص ولده عليها.

وهناك الملحمة الإسلامية الكبرى، وهي سجلٌ للإسلام منذ النبي وصولاً إلى الدولة الحمدانية، وعدد أبياتها يقارب الألفين. وهناك مخطوطات أخرى في شتى أنواع المعرفة وقد وعد آنذاك ولده بطباعتها وإبرازها إلى حيِّز الوجود ولكن للأسف منذ ثلاثين سنة وحتى الآن لم نرَ شيئاً من ذلك.

وبشكل عام معظم مخطوطات الشاعر تتناول عقيدة الشيعة الإمامية وتاريخ الأُسر والأعلام منهم الذين تجاهلهم المؤرِّخون والمترجمون لغاياتٍ سياسية وطائفية.

بعد استعراضٍ موجز لهذا الكم الهائل من نتاج فكر الشاعر نرى أنَّ شعره يمثِّل ظاهرة فنية متميِّزة بخصائصه الأسلوبية التي جمعت بين القديم والحديث في الرؤية الشعرية، وهو صوت شعري عربي بارز، وصاحب رسالة فيها مختلف فنون الشعر ومجالات الحياة المختلفة السياسية والاجتماعية والفكرية والدينية. وقد استطاع الشيخ أن يجسِّد الاستجابتين الانفعالية والعقلية. وبالرغم من حفاظه على شكل القصيدة العربية الشطرية استطاع أن يوظِّف أكبر قدر من عناصر الصورة الشعرية في تشكيل شعره التي امتاحها من مفردات اللغة عبر تشكيلات كثيرة تختلف باختلاف مناطق الإحساس واختلاف القصد.

وشعره بشكل عام يحرِّك المشاعر ويهز غافيات الأحلام لأنَّه ثمرة تجارب متشعِّبة الأطراف في القلق والخوف على الدين والمجتمع. وفي آخر كلامنا عن الشاعر وعطاءاته لا بدَّ لنا من استعراض بعضٍ من أشعاره العذبة التي تهزُّ الأعماق وتسمو بالفكر إلى حد الروعة حيث يقول في الحنين:

إنْ تشترك يا وَرْقَ في وحي الهوى   وخطابِـــهِ وملاحِـــنِ العشّـــاقِ

فلنحن شتى في الهوى وفنونِــهِ　　فهــواكَ منتقــلَ وشــوقي بـــاق

وأنـــا بأصـــفاد الفـــراق مقيَّـــدٌ　　ولأنتِ يـــا ورقـــاءُ فـــي إطـــلاق

لو تشعرين بما تجُــنُّ جــوانحي　　لحملتِ مآلكــة الجــوى لفراقــي

ولَطرتِ لكن فوق أنفاســي إلـــى　　وطني الذي وشَجَتْ به أعراقـــي

وهذا خيال بلده يبقى مرتسماً في خاطره أينما حلَّ وأنَّى رحل فيقول:

آليـــتَ لا أســلوكِ عاملـــةَ ولـــو　　بســـواكِ طلّـــتَ كواكـــب الآفـــاق

أبداً خيالَكِ نصـــب عينـــي مـــاثلاَ　　فكأنّـــه الإنســـانُ مـــن أحـــداقي

وعلى صحيفةِ خاطري ما زال مر　　تسماً وبـــين حُشاشَـــةٍ وتراقـــي

والشيخ الشاعر بفكره ورجاحة عقله فرض وجوده ليس في وطنه وحسب بل في المنطقة بأسرها مما جعله محط أنظار كبار القادة العرب وها هو في مناسبة عظيمة إثر وفاة الملك فيصل الأول يشارك على رأس وفد فيلقي قصيدة نالت إعجاب الحضور واعتُبرت من أجمل ما قيل في رثاء فقيد. ومنها:

عين الجزيـــرة أثقلَـــتْ إنســـانَها　　بكَ والعروبـــةَ قلبَهـــا ولســـانَها

أذكـــى بصـــدرهما نعيُّـــكَ جُـــذوةً　　هيهاتِ أن يُطفي الأسى نيرانَهـــا

أثكَلْتَ أمَّـــة يعــربٍ مـــن بعـــدما　　آســـيتَ يـــا آســـيها أســـوانَها

وردَدْتَ يقظتهـــا إليهـــا بعـــدما　　وهَبَتْ لسلطان الكـــرى أجفانهـــا

يا راحلاً والعربُ خلـــف ســـريره　　قـــد شـــيَّعَتْ بســـريره عـــدنانَها

وجَرَتْ كجري الرافدين دموعُهـــا　　وكأنَّ من سُحُبِ الفَضـــا أجفانَهـــا

للهِ نفسٌ ليس يفنَى صـــنعُها الـــ　　باقي إذا أفنـــى الـــردى جثمانَهـــا

طـــارتْ مرافقـــةَ ملائـــكَ ربِّهـــا　　من بعدما حمد الـــورى طيرانَهـــا

وفي المهرجان الألفي لأبي الطيِّب المتنبي قال:

أَمِنَ النّجـــومِ نَظَمْـــتهنَّ قصـــائدا　　يفنى الزمانُ وما بـــرحنَ خوالـــدا

إنَّ الذي يهـــبُ الخلـــودَ قريضُـــهُ　　لهو الجديرُ بـــأن يكـــون الخالـــدا

* * * * *

قالوا ادَّعيتَ نبـــوَّةَ ولَكَـــمْ علـــى　　دعوى النبوَّةِ زوَّروا لـــكَ شـــاهِدا

جُمَـــلاً مُلفَقـــةَ يـــرون عِوارهـــا　　لـــو أنَّ فـــيهم للجـــواهرِ ناقـــدا

وإذا ادَّعيْتَ نبـــوَّةَ فلقـــد نَسَخْـــ　　تَ بها القريضَ وما نَسَخْتَ عقائدا

محمد علي الحوماني
شاعرُ ثورةٍ وإصلاح

بقلم: د. مريم حمزة
(أستاذة الأدب العربي في الجامعة اللبنانية)

تمهيـــد:

لقد رفد الجبل العاملي، على مرّ العصور، حركة الفكر والأدب، بكوكبة من العلماء الأجلاء والأدباء المبرّزين الذين أثروا تلك الحركـــة بعطـــاءاتهم وأمدّوها بفيض من روحهم وفكرهم، حتى غدوا منارات تضـــيء ســـماءنا، وترفع عنا حجب الجهالة العمياء.. ولا يزال التاريخ يسجّل، بـــأحرف مـــن نور، أسماء الكثيرين منهم؛ نخصّ بالذكر، على سبيل المثـــال، لا الحصـــر، حسن كامل الصباح في عالم الإختراع، والبهاء العاملي وأحمد رشيد رضـــا وسليمان ضاهر وعبد الحسين صادق ومحمد جابر آل صفا ومحمـــد علـــي الحوماني في عالم التأريخ والعلوم والأدب والشعر.

فمن هو الحوماني هذا...؟!

إنه واحد من أولئك الذين غصّ بهم الصرح العاملي، على رحبه... واحد من أولئك الذين لم يحظوا من حكوماتنا بالتقدير اللازم، فلم تلحظهم في مصاف المعدودين والبارزين ممّن أدرجت أسماءهم في مناهجها، ولم ترفع

عنهم حجب الأزمان وظلمها، حتى غدا راسخاً في الأذهان أن لا أدباء في بلادنا، سوى من لمعت أسماؤهم، وأن لا أدب غير أدبهم ولا فكر غير فكرهم!

لذا أراني في هذه القراءة معنيّة بإزاحة الستار عن علم كبير من هؤلاء الأعلام، عنيت به محمد علي الحوماني. فمن هو الحوماني هذا..؟!

أهو الأديب الفذّ الذي يتدفق قلمه سيَّالاً في الشعر، كما في النثر...؟!

أم هو الصحافي مؤسس المجلاّت، ومدبّج المقالات، وله في كل صحيفة مقال..؟!

أم هو المتمرّد الثائر... وله مع رجالات السياسة والإقطاع، صولات.. وجولات..؟!

أم تُراهُ" المصلح.. أم الإبن البارُّ لجبل عامل، ولبنان، والوطن العربي، يجهد في حمل القضايا... ورعاية الشؤون... وفي بلسمة الهموم والشجون..؟!

أم هو كل هؤلاء.. علم كبير، وصاحب علم وفير، وأدب غزير... تناهز مؤلفاته العشرين.. لذا، فإن أخشى ما أخشاه أن أضيع أو أقصّر، فلا أستطيع الإحاطة به، فهو بحر بلا ضفاف... شخصية متعددة المواهب والملامح... ماردٌ.. قدماه تتشبثّان بمسقط الرأس في "حاروف"... ورأسه يطاول محطّ الرحال في ما وراء بحر الظلمات!

وعليه، فإنني أستميح القارئ عذراً، كما أستميح الشاعر عذراً، لأنني لن أتمكّن في هذه القراءة السريعة.. المتواضعة، من الإحاطة بأدبه، ولا الوقوف على جميع المحطات الهامة في شعره، وما أكثرها...! بل سأكتفي منها

بإضاءات على جوانب ناقدة وجريئة في أدبه، محاولةً أن أميط اللثام عن الثورة والإصلاح في شعره.

لذا، أراني أبدأ بإعادة السؤال: من هو هذا الأديب..!؟!

حياته ونشاطه:

إنه أبو الرضا العلي محمد بن أمين، المعروف بالحوماني[i]، أبصر النور عام 1896[ii]، في حاروف.. قضاء النبطية. وعاش في كنف أبٍ جليل وأخ فقيه، فتتلمذ عليهما، وعنهما أخذ مبادئ الخط والقراءة. ثم أدخل كتّاب القرية، حيث قرأ جزء عمَّ، ليقرأ بعد ذلك "قطر الندى لابن هشام"، على يد السيد جواد فحص في جبشيت[iii]، وإذ أظهر الصبيّ تفوقاً على أقرانه، أدخله أبوه المدرسة الحميدية[iv] في النبطية، حيث درس النحو في "ألفية ابن مالك". وفي تلك المدرسة كانت باكورة شعره وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره.

وبعدها أخذ الفتى يتردد على العلاّمة السيد محسن الأمين[v] في شقرا، ليدرس عليه علوم اللسان وبعض نظريات المنطق[vi]. وفي عام 1922، طلب العلم في النجف، حيث درس بعض مبادئ الفقه والأصول والبيان والمنطق. بيد أنه ترك الدراسة هناك بعد سنتين، لأسباب تكثر حولها التأويلات والاجتهادات.

ويبدو أن شاعرنا لم يقرّ له قرار، بل كان دائم التغيير والتنويع؛ فبعد النجف دخل الجامعة العلمية في دمشق، حيث نال شهادة ثانوية خوّلته الدخول إلى جامعة لندن لدراسة الأدب الانكليزي، ولكنه كالعادة، سرعان ما قفل راجعاً بعد أشهر، متوثباً لارتحال جديد. وهكذا خارطة متعددة الالتواءات

والتعاريج، تنتهي بالعودة إلى الوطن بعد تحقيق خطوات على طريق التكوّن الثقافي والأدبي.

شاعرنا دائم الترحال والتجوال، إنه ذلك الرحّالة الذي شرّق حتى أشرف على الصين، وغرّب حتى هبط بلاد السكسون، ثم جال في القارة الافريقية يجوب قطراً ويغادر قطراً، فإذا أمعن في غربته خاض بحر الظلمات إلى أميركا[vii].

بيدَ أن أسفاره لم تكن ذات طبيعة واحدة، ولا ذات هدف واحد، بل إن بواعثها لم تكن واحدة، فهي طوعيّة حيناً، وقسرية حيناً آخر.

أما الطوعية، فأبرزها رحلاته المتكررة إلى القارة الأميركية، مرشداً روحياً للجالية اللبنانية مرة[viii]، وداعياً من دعاة القومية العربية مرة[ix]، وساعياً لدعم مشاريعه الإصلاحية مرة أخرى[x]، وكذلك هي زياراته المتتالية للمملكة العربية السعودية[xi].

وأما القسرية فأبرزها رحيله إلى الأردن منفياً من قبل الاحتلال الفرنسي عام 1925[xii]، وفراره إلى بغداد عام 1945 أثر صدور ديوانه الناقد "فلان"، الذي يهاجم فيه سائر أجهزة الحكم في الدولة اللبنانية[xiii]، ثم لجوؤه إلى مصر ليمكث فيها عشر سنوات متتاليات.

أما نشاطاته فمتنوعة مزدحمة، يترك كل منها بصمات واضحة في حياته وأدبه. نبدأها بالتدريس الذي زاوله في لبنان كما في خارجه، إذ تولى هذه المهنة في مدرسة قريته بادئ ذي بدء[xiv]، ومن ثمّ في مدرسة شقرا[xv]، وبعدها في المدرسة الأميرية في النبطية، كما تولى تدريس مادة الأدب العربي في "كلية التربية والتعليم" في طرابلس الشام[xvi]. وفي الخارج تولى

التدريس في كل من إربد والسلط في الأردن، كما في "الجامعة العلمية" في دمشق[xvii].

وفي مجال الصحافة، نشير إلى أن الحوماني قد أسس مجلة العروبة عام 1935[xviii]، وجعلها منبراً لبث آرائه وإعلان مواقفه، كما عمل مع بعض المفكرين[xix]، على إصدار مجلة الأمالي، وبعدها مجلة "مع الناس" عام 1947، وكثيرة هي الصحف اللبنانية والعربية التي نعمت بقصائده ومقالاته[xx].

أما نشاطه الأدبي، فقد جاوز كل نشاط. ولعلّ العوامل التي أسهمت في تكوين شخصيته الأدبية تنحصر في ثلاثة:

أولها: عامل أسري؛ فلقد فتح الصبي عينيه في بيت معنيّ بالأدب والمعرفة، يتطلع إليه أهل القرية بإجلال واحترام، فيجتمعون فيه ليلاً في المناسبات،حتى إذا انفضّ العامة منهم، عمرَ المجلس بالخاصة من الأدباء والشعراء يستمرون مع أخوة الشاعر في مطارحة الأدب ومساجلة الشعر، حتى ساعات متأخرة من الليل[xxi]. لقد أولع الصبي منذ صغره بالشعر، وأعجب بالشعراء العامليين، بحيث كان يطمح لأن يكون في مصافهم، الأمر الذي جعله يطلب إلى أبيه أن يهديه السبيل التي توصله إلى تلك المنزلة، فيشير الأب عليه بأن يكثر من حفظه لأشعار العرب[xxii]. وإذ لم تكن تلك الأشعار تعني في المحيط العاملي سوى أشعار الفحول من المتقدمين، أدّى بنا ذلك إلى الحديث عن **العامل الثاني**، ألا وهو عامل البيئة التي فيها نشأ الشاعر وتأثر، عنيت الجبل العاملي الذي كانت له خصوصياته التي جعلت حركة الأدب فيه لا تخبو، مغترفة من التراث الشيعي بشكل عام، ومن معين

النجف بشكل خاص، على الرغم من جفاف الحركة الأدبية العربية[xxiii] في عصور ما يسمى بالانحطاط، فما إن كانت بدايات النهضة ولم يجد الشاعر العربي عموماً والعاملي خصوصاً في ماضيه القريب، ولا في حاضره ما يكفيه أو يعينه على النهوض من كبوته، ارتدّ إلى القديم، إلى عصور الازدهار الأدبي، يغترف من معينها، ويتأثر خطى أدبائها، ويبالغ أحياناً، بحيث لم يعد الشعر حينها، برأي البعض، إلا تقليداً ومحاكاةً لما جاء به الأسلاف، أو إحياءً واستشرافاً لمرحلة جديدة، كما يرى البعض الآخر.

أما العامل الثالث الذي كان له دور الإسهام في توجيه شاعرنا، كما في توجيه معظم الشعراء العامليين، فهو الرحلات العلمية الدينية، ولا سيما الرحلة إلى النجف، حيث يتأثر الطلاب العامليون هناك، ولا شك، بمعطيات الثقافة النجفية، بما تيسّر للطالب الطموح من الاطلاع على التراث، عبر دراسة الآداب العربية والعلوم الإسلامية[xxiv]. وإذا عرفنا أن الحركة الأدبية في جبل عامل قامت، وفي معظم العصور، على أكتاف رجال الدين، تبين لنا ذلك الأثر المزدوج الذي خلّفته الثقافة النجفية في أدب شاعرنا: أثر مباشر مسّهُ، كما مسّ غيره من طلبة العلم، عندما كان طالباً في النجف، وآخر غير مباشر تسرّب إليه عبر الأدباء من العلماء العامليين الذين عايشهم في موطنه جبل عامل. والجدير بالذكر أن دائرة هذا الأثر توسّعت، فجاوزت إطار الجامعة النجفية، بكل ما تعنيه من التراث الديني، لتطاول المجتمع العراقي بأسره، حيث كان يتولّد، من حين لآخر، احتكاك بين الحوماني وبعض الشعراء العراقيين، ولا سيما في جلسات الشاي التي كانت تستغل في أكثر الأحيان للمناقشات والمطارحات الأدبية[xxv].

إن هذه العوامل مجتمعة كوّنت لدى الشاعر عبقرية فذة وشاعرية فياضة، أتت أُكُلها ثماراً طيبة، هي ما يناهز العشرين مؤلفاً بين شعر ونثر؛ فمن الدواوين: "ديوان الحوماني" الصادر 1927، و "نقد السائس والمسوس"[xxvi] 1928، و "القنابل" 1930، و "حواء" 1943، و "فلان" 1945[xxvii]، و "النخيل" 1953، و "أنت أنت" 1954، و "معلقات العصر" 1960.

أما في النثر، فهناك: "وحي الرافدين" 1944، و "بين النهرين" 1946، و "مع الناس" 1948، و "بلاسم" 1950، و "الأصفياء" 1955، و "دين وتمدين" 1958[xxviii]؛ هذا عدا مجلة العروبة التي أسسها عام 1934، وعدا المقالات والخطب التي ألقاها في المؤتمرات، وبعض القصص والمخطوطات التي لم تنشر، وبعض المؤلفات التي وردت أسماؤها دون أن نتمكن من العثور عليها.

شعره السياسي:

أما على الصعيد السياسي والاجتماعي، وهو موضوع هذا البحث، فقد كانت لشاعرنا مع السياسة صولات وجولات، ومع المجتمع شؤون وشجون، حتى غدت أمور السياسة والمجتمع جزءاً من روحه وخاطره، وحتى لكأن نفسه باتت تتأجج فتفيض شعراً سياسياً ثائراً تارة، وشعراً اجتماعياً إصلاحياً تارةً أخرى؛ إذ أن الواقع العاملي بخاصة، واللبناني والعربي بعامة، كان أيام شاعرنا حافلاً بالمآسي والأحداث الجسام التي شغلت الكثيرين من الأدباء والمفكرين، وشكلت تربة خصبة يستمدون منها موضوعاتهم، فتعالت أصواتهم، وارتفعت صيحاتهم، منددة بالظلم والاستبداد مرة، وعارضة ذلك

عرضاً مؤسفاً للحال مرة، وثائرة متمردة مرة أخـرى؛ ذلـك أن الظـروف والخصوصيات قد تقوّي اتجاهاً عند شاعر، وتضعفه أو تكبته عنـد شـاعر آخر. ويبدو أن الحوماني كانت له ظروفه وخصوصياته التي جعلتـه يقـف موقفاً لافتاً من ذلك الواقع الأليم، فينذر له حيزاً كبيراً من حياته، ويكرّس له جانباً مهماً في أدبه.

أما **أولى** هذه الظروف، فكان الفقر الشديد الذي جثم على صدر الشاعر منذ طفولته، ولعلّ **ثانيها** ما غذته، في نفس الفتى، المدرسة الحميديـة فـي النبطية، من مقارعة للظلم، وعدم استكانة أمام الجور والطغيان. أضف إلـى ذلك ما رآه، بأم العين، من صـور البـؤس والإهمـال والتخلـف والغـبن والحرمان والظلم والاستبداد مما تناوله العديدون من المفكـرين والشـعراء أمثال الشيخ محمد حسين شمس الدين الذي يقول:

سـمعاً فعامـل خطبـه جلـل   يكفيـه عـن تفصـيله الجمـلَ

ناخت على الجبل الخطوب ضـحىً   فقل السلام عليـك يـا جبـلَ[xxix]

أو ما قاله محمد جابر آل صفا:

إذا جئـت القـرى ألفيـت فيهـا   وطيس الجـور يتّقـد اتقَـادا[xxx]

وتنقل مجلة العروبة صوراً من ذلك، كتلك التي جاءت على لسان أحـد العامليين، وهو يصف المظالم المحدقة بهم من كل جانب: "... لقـد قتلونـا مادياً ومعنوياً، قتلهم الله، فاستعانوا علينا بالحكومة، واستعانت بهم الحكومـة

علينا، فأصبحنا كالنعجة بين قصابين، لا ملاجئ، ولا مدارس، ولا معاهـد، ولا... ولا... ولا..." [xxxi]، مع ما تحمله هذه اللاءات الثلاث مـن الشـعور بالغبن والإهمال، ومع ما تصوره مـن شـتى مظـاهر الفقـر والتخلـف والاستعداء. ولا يخفى عن بالنا أن الحوماني لم يكن أديباً شاعراً فحسب، بل كان، إلى ذلك، صحافياً وصاحب مجلة، بما للصحافة من عين ناقدة، نافـذة، ولسان بارع لاذع، وقلم جريء ساخر، يضع النقاط على الحروف والأصابع على الأوجاع والجروح.

لعلّ الحوماني هذا، صحافياً وأديباً وشاعراً، كان في طليعة من ثـاروا على ذلك الواقع الأليم، بل لعلّه كان من أجرأ الذين وقفوا في وجـه الظلـم والتسلط والقهر، والذين عرفوا مكمن العلة والداء؛ لقد "صدمت الأيام صدره حنقاً على شعبه البائس.. الذي تمثل لديه... أسـماكاً فـي شـبك العمـائم والزعامات"[xxxii]، وهالته تلك الهوة التي تفصل بين "الزارع والزعيم"، وآلمته خيانة بعض تلك الزعامات وتواطؤها مع العدو، فإذا به ينـتفض ثـورة لا تستكين؛ يواجه بقلمه الصحفي حيناً، وبفيضه الشعري حينا، رجال الإقطـاع السياسي، ويشنها عليهم حرباً شعواء، لا هوادة فيها ولا لين، بدءاً بـالزعيم، رأس الهرم، وانتهاءً بالرمز الأصغر، الذي قد يكون مختاراً، أو ناطوراً، أو مفتاحاً انتخابياً، مروراً بكل أدوات السلطة الإقطاعية ورموزها.

ويبدو أن جذوة تلك الثورة لم تكن وليدة الحقبـة التـي مـارس فيهـا الحوماني عمله الصحافي في الثلاثينات، ولا وليدة الفترة التي صـدر فيهـا ديوان "فلان" في الأربعينات، إنما كانت لها جذور تعود إلـى العشـرينات، وتحديداً إلى ديوانه "نقد السائس والمسوس" الصـادر عـام 1928، والـذي يتمحور حول موضوعات نقدية سياسية واجتماعية، بيد أن ذلك النقد لم يكن

بعدُ، يحمل روح ثورة حقيقية، ذلك أنه كان ولا شك، يفتقر إلى النضج السياسي والفني، فيمسّ الموضوع مسّاً خارجياً دون أن يستطيع النفاذ إلى جوهر القضية، أو قل دون أن يتمكن من النفاذ بك إلى ذلك الجوهر، أو أن يجعلك تتعاطف معه فتحب ما يحب وتكره ما يكره، وتطالب بما يطالب، كما هو الحال في ديوانه "فلان" الصادر عام 1945، والذي يشكل ثورة حقيقية على مجمل النظام السياسي القائم آنذاك، توازيها ثورة فنية، من أبرز معالمها أحادية الموضوع؛ ذلك أن الشاعر قصر الديوان على موضوع واحد، هو نقد النظام السياسي، ولعله خطا بذلك خطوة فريدة، لم يسبق لشاعر معاصر له، في جبل عامل على الأقل، أن خطا خطوة مماثلة، بل جلّ الذين تناولوا هذا الموضوع، على كثرتهم في الجبل العاملي، تناولوه في قصائد متفرقة مبثوثة في دواوينهم الشعرية.

إن الشرارة الأولى في ثورة الحوماني انطلقت من الجبل العاملي، لتطال أولئك الذين وجد فيهم الشاعر أعداء لذلك الجبل، ولتطال سلطة الإقطاع السياسي المتحكمة برقاب العباد. لقد حاول أن يدكّ هذه السلطة عن طريق خلخلة مقوماتها وتفنيد سيئاتها، مبتدئاً، وبكثير من السخرية المرّة، بالمقومات التي تجعل من الشخص زعيماً على البلاد؛ فمن أراد أن يكون زعيماً فما عليه إلا أن يتجرّد من العلم والمعرفة، وأن يستخلص لنفسه عصابة ممن لا يبصرون شيئاً ولا يفقهون، وأن يحمل مسدساً، وينفخ الصدر، ويقرنب الشاربين:

أيها الأعزل هل ترغب في أن تتزعَّمْ

قرنب الشارب واقعنس وشنخر وتعرَّمْ

واحمل "الفرد" على جنبــك، و "الفــرد" مدمــدمْ

ثــم جــرّد عصــبة أعقلهــا أعمـــه أبكـــمْ

لقب الأخلاق والعلم علـــى الحكــم محــرَّمْ(xxxiii)

ثم يتناول مسلك هؤلاء الزعماء، وعلاقتهم بأبناء شعبهم، فإذا هم نفعيون وصوليون، عبّاد للمال والنفوذ والأهواء، نسوا مصالح شعبهم المسكين، بـــل ابتزّوا أمواله وهضموا حقوقه وتركوه يتضوّر جوعاً، ويرزح تحت أعبـــاء الفقر، وأصبح الحكم لديهم وسيلة لملء الجيوب وانتفاخ الكروش:

وذي كـــرشٍ إن مشـــى ســـبّحت لديه الحصى وله الطود خـــرّ(xxxiv)

لقد روّجوا للفساد وضربوا بالقيم وبالدين عرض الحائط، بحيــث عـــاد الشاعر يستذكر فيهم عهد الوليد بن يزيد، عهد الفسق والفجور:

عاد عهــد الوليــد فينــا جديــداَ أوَ مـــا تبصـــر الولائـــد تشـــدو

أصـــبحت بيننـــا الزعامـــة زقّـــاَ والموالي تروح فيه وتغـدو(xxxv)

وإذا كان الصلف والاستهتار عنوان زعامتنا، فمـــن الطبيعـــي إذاً، أن ينظر هؤلاء الزعماء إلى أبناء الشعب من عليائهم بعين الاحتقار، على أنهم همج رعاع، لا يفهمون إلا لغة التأنيب والتوبيخ، ولطالما حفل الجبل العاملي بقصص وأخبار من هذا القبيل! وما همّ هؤلاء الزعماء إن ضـــحوا بأبنـــاء الشعب من أجل تكريس زعامتهم وديمومتها! فهؤلاء لم يُخلقوا إلا لتمجيدهم

والتسبيح لهم! وما المشكلة في أن يقسموا الناس إلى كتل وأحزاب، يعمل كل منها لحساب هذا الزعيم أو ذاك:

ألكلّ رهطٍ فـــي الســـماء شـــريعة ولكـــل ربٍّ مـــنهم أتبـــاع؟[xxxvi]

ويعتصر الألم صدر الشاعر وهو يرى أبناء جبله، يتمزقون ويتناحرون، هذا ينضوي تحت لواء "حزب الطلائع"، وذاك يدين بمبادئ "حزب النهضة"، فتتأصل العداوات، وتتغذى الأحقاد، وتزهق الأرواح في سبيل هذا الزعيم أو ذاك! ويطفح الكيل عندما يرى أن هؤلاء الزعماء يتواطأون مع المســتعمر ضد أبناء شعبهم، فيعلنها عليهم حرباً شعواء، كانت أشعار دواوينه ومقالات مجلته مسرحاً لها، وها هو يهدد ويتوعد:

فـــدعهم يعيثـــوا بأوطاننـــا لنا ولهم في غـد موقـف[xxxvii]

وإذا كان الحوماني قد اتخذ القلم وسيلة لحملته ضد الإقطاع، فقد كـان لهـذا الإقطاع أسلوب آخر في الرد، لا يمتّ إلى الحرف بصلة؛ لقد كانت العصـا سبيلهم للاقتصاص منه، فقد انهالوا عليه ضرباً مبرحاً "بالعصي والنبابيـت" في صيدا، وبتغطية، كما يقول الحوماني نفسه، من المسـؤولين الفرنسـيين هناك، لذا وجّه بعد الحادث برقيتين: الأولى للمفوض السامي "الكونـت دي مارتيل"، ومما جاء فيها: "... لا تحسب يا سيدي الكونت أن في بلادك فقـط شعباً حياً يمعن في تنمية أدمغة رجاله للتفكير، وتنمية أناملهم للتحرير ففـي بلادنا الآمنة بوجودكم فيها، أيضاً شعب يجتهد فـي تنميـة أدمغـة رجالـه وأناملهم... إن أدمغة مفكري قومك وأناملهم تتضخم ببطء وخلال عشـرات السنين تحت سماء الثقافة العالمية الحرة، وأما أدمغتنـا وأناملنـا فتتضـخم

بسرعة فائقة.. تحت العصي والنبابيت..."[xxxviii]. كما وجّه البرقية الثانية إلى "بتشكوف" الحاكم الإداري من قبل المفوضية الفرنسية في صيدا، والذي كان مجتمعاً معه قبل الاعتداء مباشرة، وفيها يقول: "... قد لا يؤلمني أن أُضرَب ويُشَجّ رأسي وتُكسَر أناملي في أية جهة من الأرض.. وأما أن أُضرَب بعد زيارة المستشار... وفي المدينة التي ينشر عليها لواء الأمن وفي أكبر شوارعها وعلى أيدي أناس ينتمون إليه، فذلك ما يؤلمني..." [xxxix].

وإذا كانت هذه هي حال الثوار والمصلحين في كل صوب، فإن هذا الحادث لم يثنِ الحوماني عن أهدافه، بل زاده عناداً وإصراراً، فها هو يقول مخاطباً أبناء جبل عامل: "... ولم تكن هذه الفعلة الشنعاء لتغضّ من جماحي، وتقتل في نفسي ثورة لا يخمدها إلا قتل الجهل فيكم ورفع العبودية عنكم..." [xl]. ولا غرابة أن يلاقي هذا الحادث إستحساناً عند بعض المفكرين والأدباء، أمثال مارون عبود والياس أبي شبكة؛ فقد بعث إليه الأول قائلاً: ".. آلمني جرحك، وعزّاني أنه نبيل، ففي سبيل الإصلاح والتهذيب دمك المهراق، ليكن النبي مثلك الأعلى، وحسبك الإمام الشهيد قدوة... شفى الله المعتدين من مرضهم المزمن، وأنت سليم معافى، يقويك الاضطهاد، ويجعل قلمك حديداً لا يلين..." [xli].

أما أبو شبكة فقد استنكر الحادث بأسلوب طريف إذ قال: "في حين كانت الأقلام تستنكر الاعتداء عليك بالأساليب التقليدية، كنت أصغي إلى أصوات فرح وابتهاج تتصاعد من أعماق نفسي... لأن المكروه الذي حلّ بك حمل إليّ بشرى... فقد أيقنت أخيراً أننا أصبحنا في عهد العصا، إذن في المرحلة الأخيرة من مراحل الإقطاعية..." [xlii].

وتتوغل ثورة الشاعر في كل قرية عاملية، ففي كل بقعة ظل لسلطة الإقطاع، وثمَّ قمع وإرهاب، وثمَّ تذمّر واستياء؛ فإذا لم تحضر السلطة بشخص زعيمها، فهي حاضرة بشخص من يمثله خير تمثيل، ومن يقوم بدوره خير قيام: إنه **المختار!** فباسم الزعيم يختال المختار ويمشي صلفاً، تحف به حاشية من الأنصار الأشداء؛ إنه البوق المروّج لسلطة الزعامة؛ عليه تُعقد الآمال إذا ما جرى استفتاء حول زعيم، وفي بيته تُحاك المؤامرات ضد أبناء ضيعته، وتُدس الدسائس، وتُبذر بذور الشقاق، ويُدفع كل طرف في القرية لضرب الآخر. وإذا كان المختار يقدم ولاء الطاعة والإخلاص للزعيم، ويسهر على مصالحه، ويكون عيناً له على أبناء شعبه، فلمَ لا ينعم بالحظوة لديه! وكيف لا تكون له مكتسبات، هي في الغالب على حساب الشعب المسكين الذي يقع ضحية الزعيم والمختار على حد سواء. وكيف لا يكون المختار الآمر الناهي في ضيعته، له أن يحكم باسم الزعيم، وليس للناس حق في اعتراض أو شكوى، إلا الشاعر الذي تمرد، وثار، منبهاً أبناء الشعب من حبائل المختار ومكائده، ومع ذلك فقد التفت إلى ذلك المختار المضلِّل، محاولاً ردعه وإرجاعه عن غيّه، مذكراً إياه بيوم الحساب، وبالثواب والعقاب، لكن دون جدوى:

أيهـــا المختــــار لا توصــــد علــــيهم كـــل بــــابِ

إن في تحريرهم، لو شئت، شـــيئاً مـــن ثـــوابِ

قال: يـــا ســـيد! لـــو شـــئت لخففـــت عتـــابي

كيـــف أدعـــوهم إلـــى الله، وبـــالله عـــذابي

فعلى الريش منامي، ومــن الخــزّ ثيــابي[xliii]

والناطور كذلك، لم يكن بمنأى من ثورة الحوماني، فقد وفّاه الحســاب، عندما جرّده من الأخلاق، معتبراً إياه لصاً يسرق أرزاق الناس بدل الحفــاظ عليها. ومهمة الناطور حماية أملاك الناس وأرزاقهم من اللصوص، فما بال المقاييس تنقلب، وتصبح أرزاق العامليين بحاجة إلى من يحميها من الناطور وزبانيته! بل إن هذه الأعمال تصبح مشروعة إذا كان من يقوم بها هم رجال البيك وأتباعه! وإذا بالشاعر يتّبع مع الناطور أسلوب الترغيب مرة، وأسلوب الترهيب مرة أخرى، محاولاً إعادته إلى رشده، مبيّناً له أن ما يفعلــه لــيس سوى خيانة لشعبه، مذكراً إياه بما أمر به الدين وبما نهى عنه، وبمبدأ الثواب والعقاب:

أيها الناطور لــم نعهــدك فــي الكــرم وبــالا

أفكنــت اللــص.. أم أدليــت للــصّ حبــالاَ؟!

لا تخــنْ.. إن علــى الحــق يــد الله تعــالى

وإذا لــم تخــف الله، فحــاذر أن تَغــالا[xliv]

وتتخطى ثورة الحوماني البقعة العاملية لتشمل لبنان بأسره، وإن بقي جبل عامل المحرك لتلك الثورة، من خلال علاقة هذا الجبل بالأنظمة السياسية اللبنانية المتعاقبة، فقد ظل الجبل العاملي، أو ما أصبح يُعرف بالجنوب اللبناني فيما بعد، عرضة للإهمال والنسيان من قبل تلك الأنظمة، مما أثار حفيظة الكثيرين من القيّمين والمستنيرين ومنهم الحوماني، الذي طاولت ثورته جميع المؤسسات السياسية اللبنانية. فقد جاء في رسالة وجهها إلى رئيس الحكومة آنذاك: "... البلاد في حاجة ماسّة إلى المدارس والمستشفيات والطرقات ومياه الشفة والري... إن جبل عامل كمدينة تشتمل على مئتي ألف نفس، ليس فيها مدرسة ثانوية ولا مستشفى ولا شبكة طرق..."[xlv].

من هنا فإن ثورته التي كانت شرارتها قد بدأت مع ديوانه "نقد السائس والمسوس" وديوان "القنابل"، قد غدت أعمق وأشمل وأعنف في ديوان "فلان"، إذ لم يعد الشاعر ينظر إلى المشكلة السياسية نظرة مجزّأة، على أنها مسألة وزير تارة، ومسألة نائب تارة أخرى، بل بات ينظر إلى المشكلة على أنها مشكلة نظام متكامل، بما في ذلك الأجهزة السياسية والادارية والقضائية والصحافية أيضاً. لقد وضع يده على جوهر القضية وعالجها بالعمق، لذا لم نعد نراه يتناول النائب على أنه نائب فقط، ولا يتناول الوزير على أنه وزير فقط، ولا يتناول الموظف بصفته الوظيفية فحسب، بل يتناول كل واحد منهم على أنه يمثل حجراً في البناء السياسي القائم، وبالتالي فإن أي ضعفٍ أو خللٍ يصيب حجراً من ذلك البناء، سيؤثر حتماً على ما حوله، ويترك انعكاسات سلبية على البناء بأكمله مما يؤدي إلى انهياره برمته.

إن الحيّز الأكبر من ثورة الحوماني كان من نصيب المجلس النيابي، لما للنواب من علاقة مباشرة بأبناء الشعب الذي يمثلون؛ وأبناء الشعب هم مـــن أوصلهم إلى مقاعد البرلمان. هذا وإن الحمم الملتهبة انصبَّت علـــى رؤوس نواب الجنوب، الذين كانوا يغدقون الوعود على العامليين قبل الانتخابـــات، ولكنهم يتنكرون لوعودهم بعد الانتخابات ولا يفون بشيء منها.

إنه يوجّه إلى المجلس وأعضائه طعنة في الصميم عندما ينـــزع عـــنهم شرعية التمثيل، متهماً إياهم بالاحتيال والتزوير، واتباع شتى الطرق الملتوية للوصول إلى النيابة:

أيهـــا النائـــب مـــا عنـــدك والتمثيل زور؟[xlvi]

وأنى لهؤلاء أن يمثلوا الشعب حقاً وهم الذين اشتروا أصوات النـــاخبين بالمال حيناً وبالوعود المعسولة حيناً آخر:

حـــين يحتـــاج إلـــى صـــوتك بـــين الناخبينـــا

ضارعاً يعطيك من توشـــية القـــول فنونـــا[xlvii]

إلى أن يقول:

يشتري الصـــوت بخمسين ولم يبلغ نصابه[xlviii]

ولعمري كم كان الشاعر مرّاً في نقده، حين صوّرهم راكعين ساجدين، ولكن ليس للرحمن، بل لكرسي البرلمان:

من رأى الكرسيَّ في مقصورة التمثيــل تَعبــدْ

خشب الجوز لـه يركع في المجلس ويُســجد(xlix)

إنهم أبداً في قفص الاتهام، يرميهم الشــاعر بالســرقة، وباســتغلال المناصب لملء الجيوب، ويخص بالذكر منهم نواب الجنوب الذين يســألهم سؤال العارف المتجاهل عن سرّ الغنى الفاحش، وتبدُّل الحال غير الحــال! أم هي اللقمة ينتزعونها من فم الشعب الجائع:

صادق المجلس بالأمس علــى عشــرين ألفــاَ

وعلى أضعافها عشــراَ وزاد الضــعف ضــعفاَ

بعضها حــال أثاثــاَ يخطــف الأبصــار خطفــا

واستحال البعض في أبهائــه لهــواَ وقصــفاَ(l)

وكأنه ينتزع آخر خيط من خيوط الثقة بينهم وبين أبناء الشعب، عندما يتهمهم بالتواطؤ مع الاستعمار، من أجل الحفاظ على مقاعدهم النيابية، متهماً إياهم بالجاسوسية على أبناء شعبهم:

كل عــين مــنكم حالــت مــع الحكــم عيونــا

يتجسســن فــلا يبقــين فــي النــاس دفينــا

كـــــل حـــــرّ يتحـــــرّاهم أدانــــــوهُ فـــــدِينا

كـــل جاســـوس لكـــم لقّننـــا الغـــدر فنونـــا

أيها الشـــعب أمـــا تـــدري بكيـــد الخائنينـــا[ii]

ويصل الأمر إلى حد نـــزع صفة المواطنية عنهم، ذلـــك أن ولاءهـــم للخارج، وليس لوطنهم وعروبتهم:

فإذا ذِكّـــرُ الفرنســـيس علـــى الأكـــؤس يعلـــو

وإذا يعـــرب فـــي الأفـــواه يُجفـــى ويُمـــلّ

قلت: ما أصلكم؟ قالوا: لنـــا بـــاريس أصـــلُ[iii]

أما الحكومة، رئيساً وأعضاء، فلم تكن أصعب منالاً على قلم شـــاعرنا، الذي تناول هؤلاء بصفتهم هيئة تنفيذية تقبض على مقدرات البلاد. وهو لـــم يغيّر مع الحكومة النهج الذي انتهجه مع مجلس النـــواب، ذلـــك أن كليهمـــا ينتميان إلى طينة واحدة، وإلى نظام واحـــد، وبالتـــالي فالأهـــداف واحـــدة، والتعاطي مع الشعب واحد، اللهم إلا في تناوله إياهم على أســـاس حقـــائبهم الوزارية، لا يستثني منهم أحداً، مبتدئاً برئيسهم الذي انتظر هـــذه الفرصـــة سنوات طوالاً، و"غنى لها خمسين عاماً وأنافا"، فإذا ما تحقق لـــه مـــا أراد، عمل على إشباع مصالحه الخاصة ضارباً بمصير شـــعبه وبلـــده عـــرض الحائط، ناسياً ما يمليه عليه الواجب الوطني والشعبي، حتى غدا رمزاً للجور والفساد وعبئاً على كاهل الشعب لا يطاق، "وإذا كـــان رب البيـــت بالطبـــل ضارباً" فما على الوزراء إلا أن يسيروا على منواله ويتأثروا خطاه، لا سيما

إذا عرفنا أن الحقائب لا تتم على أساس الكفاءة والخبرة؛ فوزير المعارف لا يمت إلى المعرفة بصلة، ووزيرا المال والزراعة أعماهما الطمع والجشـــع، ووزير العدل الذي يفترض فيه أن يكون مثالاً للعدل والإنصاف، فحدّث عن ظلمه ولا حرج، وهكذا تكرّ السبحة لتطال الوزراء جميعاً:

رئـــيس الـــوزارة نعـــم الـــرئيس فـــــلا تســـــألوني عمـــــا وَزَرْ

... ووزير الزراعـــة فـــي نعمـــةٍ وأنعـــمُ منـــــه وزيـــــر الــــذهب

وأمـــا المعـــارف فاســـلِمْ بهـــا فقـــد قـــام فيهـــا أميـــر الأدب!

ولا تســـأل العـــدل عمـــن يليـــه أأنصفَ فـــي حكمـــه أم ظلـــمْ[liiii]

ويضيق الشاعر ذرعاً بهذا الواقع السياسي الأليم، ويُشحن صدره غيظاً لهذا الزمان الغادر الذي يقلب الموازين رأساً على عقب، فيؤتي الحظوظ من ليس أهلاً لها، بينما يبقى الأكفياء الأصفياء طيّ الإهمال والنســيان، فيثـــور ويسخط ويشكو إلى الله مما آلت إليه الأمور، وتستحيل ثورته سخرية مـــرة وهو يتوجه إلى رئيس الحكومة ناعتاً إياه "بصاحب الدولة" مرة، و "بصاحب العزّة" مرة أخرى:

صاحب الدولـــة يـــا أضـــحك خلـــق الله ســـنّا!

قضـــت الدولـــة فـــي عهـــدك أن لا نطمئنـــا

فـــإذا الآمـــن، بالغـــدر علـــى بابـــك يُمنـــى

وإذا بالنفر الغادر يمشي مطمئنا[liv]

وتتجلى السخرية ممزوجة بشيء من التذمر والتمرد إذ يقول:

صاحب العزة يا محبوب قلب الشعب، قل لي

كنت تقتات على الوجبة من خبز وخلّ

ما الذي رقّاك من أدنى إلى أعلى محلَ؟

أهو الحظ المواتي في الزمان الترللي!

عبثاَ سبحانك اللهم أن تقنع مثلي

أنّ في صفحك عن بعض الورى بعض التجلي

عفوك اللهم لا الحق ولا الحكمة تملي

قدر يلهو، ومن لهو بنا هذا التولّي[lv]

وهكذا تلتهب ثورة الحوماني لتلتهم كل شيء، فتطال هذه المرة رئاسة الجمهورية، فرئيس الجمهورية هو المسؤول الأول والأخير عن كل ما يحصل للبلاد، لذا لم ير فيه شاعرنا سوى عامل من عوامل الهدم والتدمير، وتاجر يتاجر بمصير الناس، ومتآمر يتواطأ مع المفوض الفرنسي ضد مصلحة شعبه ووطنه "إنه قدوة سيئة لرجال الحكم في لبنان"، ولا يخرج من دائرة المصلحة الفردية والمنفعة الشخصية:

كيف لا ترعن الجوارح منا، ورئيس الأعضاء في الجسم أرعن

سمنت فيكِ يا بلادي رجال لم تلِ الحكم فيكِ إلا لتسمن(lvi)

وهكذا تنعدم الثقة بكل أركان الحكم، وبكل ما يدّعون تحقيقه من أجل مصلحة البلاد؛ حتى الاستقلال، فإنه بنظر الحوماني، ليس سوى مسرحية، أبطالها شخصيات أسطورية، ويبدو أن هذه المقولة كانت قد سرت على ألسنة بعض الشعراء الذين اعتبروا أن تشرين هو شهر الكذب، وليس نيسان كما هو شائع، وفي ذلك يقول موسى الزين شرارة:

تشرينُ شهرُ الكذبِ حين دعوهم الأبطالَ في لبنان، لا إبريلَ (lvii)

وهكذا، لا يقف الشاعر الثائر مكتوف الأيدي، ولا يكتفي بمجرد عرض مؤسف للحال، بل ينبّه ويحرّض ويهدد ويتوعد:

أيها الأعيان أوغلتم بنا حتى عيينا

سوف تبكون كما جُرْتم علينا فبكينا

وستلقون من الآلام ضعفيْ ما لقينا(lviii)

إلى أن يقول متوجهاً إلى الشعب:

أيها الشعب أفق وانظر وحاسب وتوعّدْ

وإذا لـــم يُجـــدِ تحـــذيرك فـــازجرْ وتهـــدّدْ

وإذا لـــم يُفـــدِ الزجـــرُ فحطَـــمْ كـــل مقعـــدْ[lix]

وبما أن ثورة الحوماني تحمل طابع النقد والإصلاح، فإنها طالت وجوهاً أخرى من ذلك النظام عندما تصدت للإدارة والصحافة والقضاء، تكشف فيها عن مواطن الفساد، وتظهر العلل والثغرات. فإذا السـلطة القضـائية التـي وجدت لتقضي بين الناس، إذا هي قضاء عليهم، وإذا بالقضاة الذين علـيهم حل مشاكل الناس، هم المشكلة بعينها، إنهم والسياسيون ينتمون إلـى طينـة واحدة، ويعملون وإياهم جنباً إلى جنب على ضرب أبناء الشعب وسَوْقِهم إلى الهلاك:

زعـيم الـبلاد وقاضـي العبـا   دِ، ذيّـاك لـص وذا صـائدُ

فهـذا يسـوقهم للهـلاك   سـواماَ، وذاك لهـم قائـدُ[lx]

ويحاول الشاعر أن يسقط هالة هؤلاء القضاة، تلك التي يضفيها علـيهم لباسهم المميز الذي هو بنظره مجرد غطاء يسترون به عيوبهم:

أو قضـاة سـتروا العـار بحسن الطيلسانِ[lxi]

أما الصحافة، فإنه ينظر إليها نظـرة الخبيـر المجـرِّب، وحيـث أن الصحافة في البلاد الراقية اللسان الناطق والفكر الواعي والوجه الإعلامـي الحضاري، فقد نعى الحوماني على لبنان وجهه الحضاري هذا، لأن معظـم صحفه مأجورة، وهي مسرح لأقلام مأجورة، وبالتالي فإن الفكر غدا عبـداً

للمال، يتدفق من هنا وهناك، وغدت الصحافة أداة بيد أصحاب هذه الأمـــوال تنفذ مآربها، وتحقق أهدافها:

بعض هذي الصحف الكبـــرى كثيـــر الســـقطاتِ

...زرتَ يومـــاً مـــا صـــحافياً كثيـــر الهفـــواتِ

قال: قـــد أكـــره أحيانـــاً علـــى تلـــك الهنـــاتِ

كـــم حقيـــرِ الفكـــر وافـــاني جليـــلَ الخـــدمات

بيّضـــتّ غـــرٌّ أياديـــه ســـوادَ الكلمـــاتِ[lxii]

وكذلك هي حال الإدارة التي هي ركيزة الدولة الأساسية، إنها بنظـــره "أسوأ إدارة في العالم"، ذلك أنها لا تعتمد الكفاءة ولا الخبرة أساساً في تعيين موظفيها، بل تعتمد في ذلك الحصص والمحسوبيات لهـــذا الـــزعيم أو ذاك. وعليه، فهي عرضة للإهمال والاستهتار في غياب الأهلية والرقابة وفقـــدان مبدأ الثواب والعقاب. فها هو مكتب الموظف يتحول إلى غرفـــة للنـــوم، أو للتسلية واحتساء القهوة والشاي مع الـــزملاء والأصـــحاب، فيمـــا تُتـــرك المعاملات تتراكم وتتكدس لتُلقى بعد ذلك في أدراج النسيان:

أيهـــا النـــائم فـــي أروقـــة الحكـــم تنبّـــهْ

لا تكن في قلـــم العـــدل علـــى العـــدل مســـبّهْ

تجـــد المغفـــي علـــى أوراقـــه يعبـــد ربّـــهْ

أمِنَ السكرِ أم السكّر جافى النـــوم جنبـــهْ؟[lxiii]

فلا غرابة إذن أن تشيع الوساطة والرشوة، وأن تتنوع هــذه الرشـــوة وتختلف باختلاف الموظف وصاحب الحاجة، فتكون هديـــة مـــرة، ونقديـــة صفراء رنانة مرة أخرى:

جئتـــه فـــي حاجـــة فـــازورّ عنـــي واشـــمأزا

فعرضتَ الأصفر الرنّـــان للحاجـــة رمـــزا[lxiv]

وهكذا يمضي الشاعر مفتشاً في كل زاوية من زوايا النظام والمؤسسات عن علة يعالجها، أو عن بؤرة فساد يحاول ردمها، حتى نذر في سبيل ذلـــك ديواناً بأكمله هو ديوان "فلان" الذي يعد بحق ثورة للنفس وللكيان وترجمـــة للأحاسيس وللوجدان، فيكون ثمن ذلك هذه المرة، إتـــلاف الـــديوان وإبعـــاد الشاعر سنوات عن أرض الوطن.

ويمضي الحوماني في ثورته خارج الوطن اللبناني ليتصـــدى للقضـــايا الكبرى في الوطن العربي وهي يومئذٍ ثلاث: الاستعمار، والوحدة العربيـــة، وقضية فلسطين.

أما **الاستعمار** فلقد ذاق الشاعر مرارته منذ صغره، يوم كان الأتراك لا يزالون يجثمون على صدر الأمة العربية، مخلّفين المآسي والويلات. وتأتي الحرب العالمية الأولى فيحسب العرب أنهم قـــد اســـتراحوا، لكـــنهم كـــانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار، إذ أنهم أفلتوا من قيد، ليقعوا في قبضة شرك

آخر، شرك الفرنسيين والانكليز الذين بسطوا سلطتهم على البلدان العربيـــة كافة.

وإذا كانت الرصاصات العاملية هي "الرصاصات الأولى، كمـــا يـــذكر السيد حسن الأمين، التي أطلقت بوجه الاستعمار في ديار الشام، وكان جبـــل عامل هو الثائر الأول على الاحتلال الأجنبي بعد الحرب[lxv]، فليس غريبـــاً إذن، أن تتفجر ثورة ذلك الشاعر وهو ابن الجبل العاملي، بحماس وعنـــف، وأن تتميز مواقفه من الاستعمار بالصلابة والجرأة، مما يودي به إلى تحمل مرارة التنكيل والنفي والتشريد.

لقد اتخذت ثورة الحوماني وجهاً قومياً، إذ كان يـــرى الهـــدف واحـــداً والمستعمر واحداً، سواء كان فرنسياً أو انكليزياً أو تركياً أو صهيونياً؛ فلقـــد حاربه على أنه وجوه مختلفة لعملة واحدة. وقد آلمه ما حلّ بالشعوب العربية من ظلم المستعمر وعسفه، وما يلاقيه العربي من ظلم النفي والتشريد والبعد عن الأهل والوطن، كيف لا؟ وقد ذاق هو مرارة هذا النفي أكثر من مرة:

اليعربـــي يبيـــت عنـــكِ مشـــرّداَ والأعجمي على عروشك قائمُ[lxvi]

ويقول:

أفللغريـــــب تَشـــــاد، فاتنـــــةَ فيكِ القـــرى وتَزخـــرَف المـــدنُ؟

بنـــوكِ فـــي الآفـــاق يلفظهـــم برٌّ وتخفـــق تحـــتهم ســـفن[lxvii]

إن شعر الحوماني المندِّد بالمستعمر، كان حاضراً في كل مناسبة؛ فــإذا ضرب المستعمرون دمشق ودمروا أحياءها، تفجرت عاطفة الشاعر غضــباً وشعراً وثورة:

سلْ عرصة الميدان كم هُتكتْ بها   من خدر يعرُبَ أوجــةٌ ومعاصــمُ

تحت الســنابك والقنابــل فوقهــا   أمٌ مدلَّهــةٌ وطفــل بـــاغمُ[lxviii]

وإذا اندلعت الثورة السورية الكبرى ضد الاستعمار، راح الشاعر يشيد ببطولات العرب، ويحيّي صمودهم بفخر واعتزاز:

وفيالقٍ حشــد العــدو خميســها   في مــأزق غصــت بــه لهواتــهُ

طلعــت عليـــه كتيبـــة عربيـــة   فجرت على أسيافهم مهجاتــه[lxix]

وإذا جرت معركة ميسلون، راح الشاعر ينتشي عزاً وفخاراً، معتبــراً إياها رمزاً للبطولة والتضحية والاستشهاد، مشبهاً إياها بموقعــة كــربلاء، متخذاً منها ومن سواها من المعارك، العبر، محذراً العرب من التباكي على أمجادهم الضائعة تارة، ومن الندم على تلك الأمجاد تارة، لأنهم في ذلك إنما ينسون حاضرهم ويضيعون مستقبلهم:

الألــى عــزّزوا، مضــوا وبقينــا   ننشد العزّ مــن رفــات أبينــا[lxx]

لذا أطلقها صرخة مدوّية، رافضاً أنصاف الحلول، داعيــاً إلــى حمــل السلاح في وجه المستعمرين؛ فإما الحياة بعزٍ وكرامة، وإما الشهادة:

أيهـــا البـــاكي علـــى أنـــدلسٍ   وعلـــى تـــونس، هـــوِّن وتـــأسَّ

وثـــب الضـــيغم مـــن مكمنـــه   وانتهى زمجرةَ ما كان همسا[(lxxi)]

أعمل السيف في الرقــاب لتحيــا   آمنَ السربِ أو تموت شهيدا[(lxxii)]

وهكذا أخذت النـــزعة القومية تتأصل وتنمو في نفس الشاعر، وسط جو من الحماس القومي الذي كان قد شرع في تحريك القلوب والأقلام منذ بدايات القرن العشرين، وكان له في الأدب اتجاهات ظـــاهرة، أبرزهـــا المفـــاخرة بالأمجاد والأسلاف[(lxxiii)]. وقد اتخذت هذه النـــزعة طابعاً حماسياً في المرحلة الأدبية الأولى لدى شاعرنا الذي يقول:

ســـــائلوا التـــــاريخ عنّـــــا   كيـــــف دوّخنـــــا الـــــبلادا

أنجبــــــت قحطــــــان منّـــــا   أسُـــداً تهـــوى الجـــلادا[(lxxiv)]

ومن هذا المنطلق القومي، أخذ الشاعر يتعاطى مـــع قضـــايا الـــوطن العربي، فيغضب، مثلاً، ويثور لحال الجزائر التي أفقدها المستعمر ملامحها العربية:

ويحَ الجزائر! مـــا لأوج تراثهـــا   غربت أهلّتَـــهُ ولمّـــا تطلـــع[(lxxv)]

وبهذا الدافع القومي نفسه، راح يرقب الأحداث من حوله، فينظر بعـــين حذرة إلى الأفكار التي بدأت تغزو المجتمع العربي، بهـــدف تفتيـــت عـــرى

القومية العربية، وضرب الدعوات الآيلة إلى توحيد الصف العربي وتحقيــق الوحدة العربية، تلك الوحدة التي طالما تحمس الشاعر لها، وأسف لما يقــف في وجهها.

وتبرز على الصعيد العربي مشكلة كبــرى، هـــي **مشــكلة فلســطين،** فتستحوذ على نفوس الشعراء العرب بعامة، والعامليين مـــنهم بخاصـــة ولا سيما الحوماني الذي حمل لواء هذه القضية مدافعاً عنها ما استطاع إلى ذلك سبيلا؛ هذا الدفاع كان في البداية، وقائياً، إذ حاول التنبيه إلى خطر التـــدفق الصهيوني على أرض فلسطين؛ إلا أن دعوته تلك لم تلقَ أذناً صاغية، بـــل كانت صيحة في واد، إذ لم يقابل هذا السيل الجارف من الصـــهيونية، كمـــا يقول، "إلا سيل من القرارات جارف، يتدفق من الجامعة العربية... ولكنـــه كالسراب... ومن وراء ذلك شعب حائر"[(lxxvi)].

ولكن فلسطين تُقسّم، وينتصر الصهاينة، فيحاول الشاعر أن يجد ســـبباً مقنعاً لغلبة اليهود، رغم التفاوت العددي بينهم وبين العرب، فيرى أن العــدد وحده لا يكفي ما دامت الـــ "أنا" والرغبة في الزعامة تسيطر على كل عربي "فويل لأمة كل فرد فيها أمة"[(lxxvii)]. فيتألم الشاعر، لفداحة الخطب، ويصــب جام غضبه على القادة العرب الذين اعتبرهم مسؤولين أولاً وأخيــراً عـــن ضياع فلسطين ولم يتورّع عن تسميتهم إذ يقول:

مـــلأ الـــدنيا ريـــاض بـــالوعود	**وكساها مـــن رصـــاص الدمـــدمِ**
فحسبنا الأرض مـــادت بـــاليهود	**وتلاشـــوا بـــين شـــدقيْ مـــردمِ**
الســـــعودي غــــداة انتفضــــا	**هـــــدرت فانتفخـــت أوداجـــهُ**

والعراقـــي علـــى جمـــر الغضـــا تتنـــــــزى للســـــما أثباجـــــهُ

وفتـــى الأردن أقعـــى ومضـــى يســـأل الزرقـــاء مـــا تحتاجـــهُ

هكــــــذا أبطالنــــــا خاضــــــوا الـــــــردى

ينشـــــدون النصـــــر بـــــين الأكـــــؤس[lxxviii]

وهنا يشكو إلى النبي ما آلت إليه حال الأمة:

يا أبا المرسلين حسبك أنا قـــد ضـــرعنا للســـامريّ خـــدودا

خذلوا ربهم وكانوا مع الحق، أناسيَّ، فاستحالوا قرودا[lxxix]

لذا كانت الصدمة موجعة، والخيبة قاتلة، وكانت الهدنة هزيمة ســاحقة مُنيَ بها العرب:

ثـــم مـــاذا كـــان والكـــون دجـــا والســـــماء امـــتلأت بالشـــــهب

بيد أن اليأس لم يقضِ على الرجاء في نفس الشاعر، والخيبة لم تـــوهن الإرادة والعزيمة، والصدمة لم تقتل فيه روح الثورة، بل أجَّجتها من جديـــد، فإذا به يتوجه إلى بلفور قائلاً:

لـــن تعيـــد الحـــق فينـــا بـــاطلاَ بالذي تأتي ولا النور ظلامـــا[lxxx]

ثم يلتفت إلى العرب داعياً إياهم إلى محاربة العدو ثقافياً، قبل مقاطعته سياسياً واقتصادياً، ومحاربته عسكرياً، معتبراً أن قتال الصهاينة أكثر ضرورةً للإنسان العربي من الغذاء، وأن الدفاع عن الأرض إنما هو جهاد مقدس ودفاع عن العروبة والإسلام:

جدِّدي عهدك، جدَّدنا الشبابا ورصدناكِ شعاباً وهضابا

أنتِ يا أنشودة الله، على كل مبعوثٍ تنزّلتِ كتابا(lxxxi)

مذكراً العرب بمجدهم المشرق، محاولاً أن يستمدّ من الماضي مدداً وقوة:

كم ظمئنا قبلاً فحال بنا الظِمءُ حماساً حتى وردنا "السينا"

وحملنا على السحاب أمانينا فطرنا حتى بلغنا "الصينا"

أفلا خطوة إلى حيث نحيا ويعود "الوليد" فيناجينا(lxxxii)

شعره الاجتماعي:

وإذا كان الحوماني قد سلّط عيناً ناقدة على القضايا السياسية في لبنان والعالم العربيٍ، فإنه سلّط العين الأخرى على انعكاسات هذه السياسات على المجتمع اللبناني عموماً والعاملي منه بوجه خاص؛ فإذا تحدث عن مساوئ النظام السياسي وفساد الإدارة والصحافة والقضاء، فإنه لاحظ، ولا شك، ما خلّفه ذلك من مآسٍ على الصعيد الاجتماعي، وعلى حياة الناس ومعاناتهم

اليومية، لا سيما وأنه لم يكن بمنأى عن تلك الأجواء الصعبة، لذا وجد لزاماً عليه، أن يحارب كل مظاهر العلل والفساد، من غلاء واحتكار واستغلال، حيث يصوّر الغلاء شبحاً يخيف الناس ويرعبهم، إذ لم يعد بمقدورهم أن يحصلوا على لقمة العيش.. حتى الموت... باتوا يحسبون لنفقاته، كل حساب:

ما ترى الأشياء في عهد "فلان" تتعالى[(lxxxiii)]

كل ما تطلبه، حتى الردى، يطلب مالا[(lxxxiv)]

وقد شهد الحوماني بأمّ العين، يوم كان مسؤولاً عن جمعية الإصلاح، كيف يُحتكر الأرز والسكر والطحين، فآلمه أن تخزّن هذه المواد في المستودعات، في حين ترتفع أسعارها بحجة فقدانها من السوق. وقد كان هذا الأمر دافعاً للشاعر، لنظم مجموعة من القصائد، أدرجها تحت عنوان "مستودع الحي"، حيث يكشف عن ألاعيب المحتكرين والمتاجرين بحياة الناس وأرزاقهم، فتراه يخاطب السكر، مثلاً:

أيها السكّر في مستودع الحيْ تكلّمْ

بعضنا شفّ هزالاً منك، والبعض تورّمْ

أي لونيك تصبّانا فكان الكل أبكمْ

أهو لون الفاتن المعشوق أم لون المتيّمْ[(lxxxv)]

إلى أن يقول:

فخـــزين الـــرز والســـكر مجهـــول المكـــانِ

فهـــو لا يوجـــد إلا عنـــد لـــصٍّ بهلـــواني

أو لصوصٍ من ذوي التـــاج بنـــا والصـــولجانِ

أو قضـــاةٍ ســـتروا العـــار بحســـن الطيلســـانِ

ولقـــد يعلمـــه بعـــض رجـــال البرلمـــانِ(lxxxvi)

ونتيجة لكل هذا ازداد الفقراء فقراً، والأغنياء غنىً، بحيث أن هوّة ســحيقة باتت تفصل بين طبقتين: واحدة تتضوّر جوعاً وأخرى تقتلها التخمة، وبــات القوي يأكل الضعيف:

أنـــت يـــا مســـتودع الحـــي أرزاً وطحينـــا

سمنت فيك رقاب تأكـــل المهـــزول فينـــا(lxxxvii)

ويقول مخاطباً القرش:

كنت يا قرش فقيـــر الشـــعب محـــدود اللســـانِ

تســـأل البـــائس فـــي أطمـــاره عمـــا يعـــاني

وأراك اليـــوم خفـــاق الحشـــا، طلـــق العنـــان

بين عزف وشراب من دفــوف ودنـــانِ[lxxxviii]

وهكذا فإذا كان شعر الحوماني فيما خص الجوانب السياسية المحلية والعربية يتخذ شكل نقد ثائر، فإنه فيما يخص الجانب الاجتماعي يتخــذ شــكل نقــد إصلاحي؛ وكما تصدى للمسؤول السياسيٍ، إقطاعياً كان أو قائداً أو رمزاً من رموز النظام، فإنه التفت إلى الشعب أيضاً، يحمله قسطاً من تبعات ما آلــت إليه حاله، ومن هنا جاءت تسميته لأحد دواوينه "نقد السائس والمسوس".

ويحاول الشاعر أن ينبّه ذلك "المسوس" ويبث في نفسه الــوعي وروح الإرادة والعزيمة، وأن ينتشله مما يتخبّط فيه، فيلتفت حوله فإذا العلل كثيرة، فالجهل مسيطر، والأمية متفشية، والفساد مستشرٍ بين الشباب، ووضع المرأة زريّ رديء، والفلاح مسكين مظلوم، والبلاد في حال لا تُحسد عليــه. إزاء ذلك لم يقف الشاعر متفرجاً ولا مستسلماً، بل حاول التعــرّض لكــل هــذه المشكلات، عاملاً على التخفيف منها قولاً وعملاً. فإذا رأى الأمية متفشــية بين عامة الناس، أولى هذه المسألة اهتماماً بالغاً، معتبراً إياها البند الأهم في بنود حركته الاصلاحية، ذلك أنه كان يرى انحطاط أمته ناتجاً عــن إهمــال دور التعليم فيها، وأن لا خلاص ولا إنقاذ لشعبه ووطنه إلا بتزويده بــالعلم والمعرفة. وإذا كانت الحركة الفكرية في الجبل العاملي لم تنضب، فهي كانت تقتصر على الطبقات الميسورة والأسر العريقة التي كان بمقدورها، وهــي تعي أهمية التعليم أن تقصده أينما كان. لقد ساد الجهل وعزّت المعرفة نتيجة للفقر والطغيان السياسي واستخفاف زعماء الإقطاع بأمر الــبلاد ومســتقبل أبنائها. وفي هذا المجال يرى الشيخ علي الزين أنه "لولا طموح بعض أبناء القرى لأن يكونوا وكلاء عند زعماء الإقطاع... ثم حرص المحافظين مــن

رجال الدين على التمسك بتراث آبائهم وأجدادهم من العلوم الدينية لعزّ في البلاد وجود من يحسن القراءة والكتابة"[lxxxix].

من هنا كانت دعوة الحوماني المتقدمة إلى إلزامية التعليم، واعتباره أكثر وجوباً من الصلاة نفسها، وكانت دعوته إلى كف يد الهيمنة السياسية و "حمق الزعامة" الاقطاعية عن كل مجالات التعليم:

فأنت إذا جئت دار العلوم رأيت الجهالة عنوانها

وكيف تنير وكفّ السياسة أودت بمن شاد بنيانها[xc]

ومن هنا أيضاً، كانت دعوته عدم الاستخفاف بمهنة التعليم، بل السموّ بها والرفع من قدر المعلم الذي هو "السبب الأول في حياة أمته.. والأمة إذا لم تستضئ بنور معلميها، فلا تلبث أن تخبط في ديجور جهالتها"[xci].

إذا ما احتفت برجال العلوم بلادٌ فبشَر بعمرانها

وإن خذلت أمة ساهراً عليها، فانذر بخذلانها[xcii]

والحوماني نفسه ذاق مرارة هذا الاستخفاف خلال الفترات التي مارس فيها التعليم، حيث طرد مرة، ونفي مرة، وغُبن مرات، فليس غريباً إذن، أن يتألم وهو يرى أنه يؤتى بالجهلة لتولي المسؤوليات التعليمية، فيما يستغنى عن أصحاب الكفاءات، أو يساقون إلى النفي والتشريد:

وإن خدم المجدَ كَفّت يداه وسيقَ لأرواد أو إربدِ[xciii]

ويجدر التنويه بأن الحوماني لم يتصدّ لهذه المسألة نظرياً فحسب، بل ترجم ذلك عملياً عندما راح يسعى من خلال "جمعية الإصلاح" إلى تأسيس مدرسة ليلية تعمل على تعليم الأميين من أصحاب الأشغال، وتأسيس مدرسة لتثقيف الناشئة الذين تجاوزوا الصفوف الابتدائية، وإنشاء نادٍ لإلقاء المحاضرات العلمية والأدبية. كما راح يحث المهاجرين العامليين على بناء معاهد وجامعة في جبل عامل مبيناً لهم أن الخلاص من براثن الاستبداد لا يكون إلا باستئصال جرثومته، وأن استئصال هذه الجرثومة لا يكون إلا بقتل الجهل المخيّم على تلك الهضاب، ولا يقتل الجهل إلا بنشر العلم و "لن ينشروه إلا بتشييد المدارس والمعاهد"[xciv].

كما أولى الشاعر أهمية لمشاكل الشباب الذين بهرتهم زخارف الغرب، فظنوا ذلك حضارة، وتمسكوا بقشور المدنية الغربية، تاركين لبابها، ولم يدروا أن الغرب لم يزدهر إلا بعلومه وآدابه، أما هم، فقد تنكّروا لعاداتهم وتقاليدهم وتراثهم وعلومهم وآدابهم، وفهموا الحضارة على أنها مسخٌ للباس، وقصٌ للشوارب، ومسحٌ للِّحى:

فسلْ من تفرنج لِمْ قلّدوه فقصوا الشوارب إلا نَتَفْ

كأن الرقيّ بمسخ اللباس ومسخ السبال ومسح اللحى[xcv]

وهذا ما جر علينا الويلات، وجرّد شبابنا من القيم والأخلاق، وأشاع بينهم كل انحراف أو فساد، فباتوا عبيد الحضارة الغربية المزعومة! لذا يطلع عليهم الشاعر بجملة من النصائح والإرشادات، يخصص لها باباً في ديوانه "نقد السائس والمسوس" سماه "باب الوصايا"، حيث يوصيهم بالابتعاد عن كل

باطل، وبنبذ التقاتل والتحاسد والتناحر.. إنه يوصـيهم بـالتحلّي بالصـدق والوفاء، وإعانة الفقراء، والبرّ بالوالدين والإخوان والوطن، وبالتمتع بالإتزان والحلم والوقار، "فالرجل لا يكون عظيماً ما لم يعظم عمله، ولن يكون عظيم العمل ما لم تعظم همته، ولن يكون عالي الهمة ما لم تسمُ به نفسه، ولن يكون سامي النفس ما لم ينهض به جِدّه، ولن يكون ناهض الجِدّ ما لم يقطع الشطر الأول من حياته مكباً على كتابه، مستظهراً زخرف الحياة الدنيا[xcvi]" لذا نراه يتوجه إلى كل شاب بالقول:

بنـيَّ احـتفظ بـاثنتين اثنتـين تصـون بهـاءك أن يـذهبا
وقـارٍ تهابـك فيـه النفـوس وحلـمٍ يصـونك أن تغضـبا[xcvii]

ولا ينسى شاعرنا المرأة التي تحتل حيّزاً مـن شـعره، لا سـيما وأن قضيتها كانت قد بدأت تستأثر باهتمام الأدباء والمفكرين منذ مطلـع القـرن العشرين؛ فلقد دعا الحوماني إلى تعليمهـا وتهـذيبها، ونـادى بتحريرهـا وخروجها إلى ميدان العمل الاجتماعي:

علّموهـا الفنـون فنّـاً ففنّـا هي أولى بالعلم منكم ومنّـا[xcviii]

بيد أنه رسم لتحررها حدوداً وضوابط، أهمها العفة والحشـمة، وعـدم الانجراف بما يأتينا من الغرب:

بنيّتـي اسـتتري بالحيـاء فما عِيبَ مَنْ بالحياء اسـتترْ[xcix]

ولم يُغفل الحوماني من أدبه تلك الفئة المستضعفة من أبناء شـــعبه، ولا سيما في جبل عامل، حيث ازدحمت مظاهر البؤس والشـــقاء، وعـــمّ الفقـــر والحرمان الغالبية العظمى من الشعب العاملي، فتحركت تجاه ذلك عواطـــف الأدباء الذين هزّتهم المأساة، فأعملوا فيها أقلامهم، مصورين حيناً وناقـــدين حيناً آخر. فها هو موسى الزين شرارة يقول:

لو زرت عامل أشجاك الشقاء بـــه وما يكابد مـــن بـــؤس وحرمـــان

فلا ترى غير جوعـــان وجائعـــة وغيـــر ظمآنـــة فيـــه وظمـــآنِ[c]

والحوماني كعادته، سبّاق إلى التحسس بآلام شـــعبه، والتعـــاطف مـــع الفقراء والمستضعفين. وبروح ثائرة وعين دامعة، ينظر إلى الفلاحين الذين كانوا يشكلون السواد الأعظم من الشعب العاملي. أولئك الذين يقعـــون بـــين مخالب الإقطاعيين وجشع أصحاب الملكيات من جهة، وينوؤون تحت وطأة الضرائب المفروضة عليهم من جهة أخرى. وهكذا يتعب الفلاح ويشقى ليله ونهاره، صيفه وشتاءه، مقابل نـــزر يسير مما تنتجـــه الأرض، إذ يتعـــاون على سلبه الإقطاعيون والعشّارون والجباة والمرابون، فيما الحصة الكبـــرى تكون من نصيب الأسياد:

ترى الزارع الغرّ يطوي الشـــتاء ويحصـــــد لكـــــن لأســـــيادهِ[ci]

ويقول أيضاً مصوراً الغبن اللاحق بالفلاح:

لــه العشــر ممــا جنــى كاســباَ   وللبيــــك تســــعةَ أعشــــارهِ[cii]

حتى خادمة "البيك" التي درجت العادة على أن تخدم في دور "البكوات" من أصحاب الإقطاع، وفي دور الوجهاء والمتنفّذين، فقد التفت الحوماني إلى قضيتها، إذ ساءه وضعها المزري، وآلمتهُ صورة العبوديــة المقيتــة التــي تجسدها. فالخادمة كانت تخضع، بنظر شاعرنا، لعبودية مزدوجة، ذلك أنهــا لم تكن عبدة للبيك إلا لأنها عبدة للرغيف، للقمة العيش، للفقر الذي غدا سيفاً مسلطاً على الرقاب، ووجهاً من وجوه التحقير والإذلال وتحكم القوي بلقمــة الضعيف:

وســــاهرة فـــــوق تنورهــــا   تـــديح الرقـــاق قبـــل الغلَـــسْ
قضت عمرهــا عبــدة للرغيــف   فما تعــرف النــوم إلا خَلَــسْ[ciii]

خاتمـــــة:

وأخيراً لا بد من القول أن الحوماني قضى حياته بحراً زاخراً بالمشاكل والهموم، تضطرب أمواجه وتتلاطم، فلا يقر ّله قرار، يلقي عن عاتقه عبئــاً ليحمل أعباء، وهكذا هو أدبه، ثائر عنيف مرة، وهادئ إصلاحي مرة، وناقد ساخر مرة أخرى. وهكذا هو شعره، شعر النفس الموجَعة التي بُحّت مــن الصراخ، فها هي تحاول أن تضغط على الوجع في مكانــه، فــي مجلــس الوزراء أو مجلس النواب، أو في ساحة البرج التي طالما تردَّدَ ذكرها فــي

ديوان "فلان"، حتى غدت رمزاً للظلم والقهر والتعسف وخيبة الرجاء، يناديها فلا تجيب:

ســاحة البــرج أجيبينــي فقــد بُحّــت لهــاتي

وجرت في الطرس من لون دموعي كلماتي[civ]

***

ساحة البرج، عِمي يا ســاحة البــرج مســاءَ!

كــم رجونــاكِ لتهــدينا، فخيّبــت الرجــاءَ[cv]

***

ساحة البرج أنيري واعتمي مــا شــئت فينــا

ذهب الكنـــز الــذي فيــك رصــدناه ســنينا

يوم كــان الحــق فــي قلــب ســراياك دفينــا

ورجونــا الأســد الخــادر أن يجفــو العرينــا

ويعيــد الحــق فــي أهليــه وضّــاحاً جبينــا

فـــإذا بالليـــث يـــنقضّ فيرديـــه طعينـــا

وإذا عهــدك قبــل اليــوم عهــد المخلصــينا

وإذا العهــد الـــذي أقبــل عهــد الخائنينــا

سطع النور، فلم نبصر بــه حتــى عمينــا[cvi]

ساحة البرج أما فيكِ لهذا العهد قبر!

فبماذا ندفع البلوى وقلب العدلِ صخر! [cvii]

إلا أن ساحة البرج لم تبلّ للشاعر ظمأً، ولم تشف غلاًّ، وتطاول العهد... وأناخ بكلكله على صدره، فشكا الحال إلى نبي الأمة، وطالت الشكوى، وظل بعيداً عن الأهل والوطن حتى أواخر حياته، يبعث بآهات الحسرة والألم:

لبنان! يا بلد الجمال متى يحلو لأهلك فوقك السكن![cviii]

فما إن تحقق له هذا الحلم أو كاد، وعاد إلى أرض الوطن، وإلى أرض جبل عامل، بل إلى أرض مسقط الرأس في حاروف، حتى كان له الموت بالمرصاد، فمضى شاعرنا عام 1964، تاركاً في الجبل العاملي وفي لبنان ودنيا العرب، بل في كل بقعة حلّت فيها نفسه الشاعرة، وروحه المتوثبة، دوياً ما زال يضجّ في أسماعنا وأرواحنا، وما زال يهزّ منّا الكيان والوجدان.
أكتفي بهذا، دون أن أزعم أنّ قراءة كهذه، استطاعت أن تحيط بنتاج أديب سخيّ العطاء، علّه يتيسّر لنا في دراسة لاحقة أن نضيء على جوانب أخرى من أدب هذا الرجل، راجية أن أكون قد وفّيت بعضاً من حق أديب مغمور، في عصر ينبغي أن يُرفع الغبن فيه عن أدباء وعارفين من أمثال شاعرنا الكبير... محمد علي الحوماني!

هـوامـش البحـث

1- ورد الاسم على هذا النحو في مقدمة ديوانه الأول "ديوان الحوماني".

2- يوسف أسعد داغر: مصادر الدراسة الأدبية، ج1، ص 345.

3- جبشيت قرية مجاورة لقرية الشاعر.

4- أسس هذه المدرسة العلامة السيد حسن يوسف الحسيني بعد رجوعه من العراق عام 1891، ونعتها بالحميدية نسبة إلى السلطان عبد الحميد الثاني، كما جرت العادة في ذلك العصر، إذ كانوا ينسبون كل مؤسسة عامة إلى السلطان تيمناً باسمه. (أنظر محمد جابر آل صفا: تاريخ جبل عامل، ص 249).

5- هو السيد محسن بن عبد الكريم الأمين، من مواليد شقرا في جبل عامل (1879م-1951م)، حاز على درجة الاجتهاد في الفقه من جامعة النجف. أقام في دمشق مرشداً دينياً ومسؤولاً شرعياً عن الطائفة الشيعية هناك. له مؤلفات هامة، نذكر منها: "خطط جبل عامل" والموسوعة الكبرى "أعيان الشيعة"، التي تضم ستة وخمسين مجلداً.

6- وردت هذه التفاصيل عن حياته في كتابه "دين وتمدين"، ج1، ص 134، و ج2، ص 107 و 135، وفي مقدمة ديوانه: نقد السائس والمسوس.

7- الحوماني: دين وتمدين، ج2، ص 19.

8- انظر جعفر الخليلي: هكذا عرفتهم، ص 284.

9- انظر جريدة الاصلاح، عدد 9 تموز 1929.

10- انظر مجلة العروبة عدد 36، ص 36 و 37.

11- علمت من السيد رضا الحوماني، ابن الشاعر، خلال مقابلة أجريتها معه، أن والده ظل يقوم بهذه الزيارة في رجب من كل عام حتى وفاته.

12- نفي بسبب نشاطه المعادي للانتداب الفرنسي، وبث روح الحماس في صفوف طلابه ومن خلال أشعاره، لا سيما خلال الثورة السورية الكبرى وموقعة ميسلون الشهيرة.

13- سيكون هذا الديوان المحور الأساسي لحديثنا عن ثورة الحوماني.

14- انظر محمد كاظم مكي: الحركة الفكرية والأدبية في جبل عامل، دار الأندلس، ص 203.

15- الحوماني: دين وتمدين، ج2، ص 20 و 274.

16- نُشرت بعض المحاضرات التي كان الشاعر يلقيها على الطلاب، في مجلة العروبة، في الأعداد: 10-11-15-21-22-25-27-29.

17- ورد ذلك في نبذة عن حياة الشاعر لمحمد قره علي في جريدة الحياة البيروتية، عدد 552.

18- انظر الحوماني: دين وتمدين، ج1، ص 376.

19- هم السادة: عبد الله المشنوق، عمر فروخ ومحمد خيري النويري.

20- نذكر منها: العرفان والأديب في لبنان، والرسالة والمقتطف والهلال في مصر، والساعة في بغداد، والمدينة المنورة في السعودية.

21- الحوماني: دين وتمدين، ج1، ص 341.

22- الحوماني: مقدمة "نقد السائس والمسوس" ص. ج..

23- انظر محمد كاظم مكي: الحركة الفكرية... ص 196.

24- انظر علي الزين: مع الأدب العاملي، مطبعة ساميا، بيروت، ص 18-19.

25- الحوماني: دين وتمدين، ج1، ص 165.

26- "نقد السائس والمسوس" وهو ديوان يضم أربعة أبواب: الأول في نقد السائس أو المسؤول، والثاني في نقد المسوس أو الرعية، والثالث في النقد الاجتماعي، والرابع يندرج ضمن النصح والإرشاد.

27- المقصود بـ "فلان"، رئيس الحكومة آنذاك، بل كما يقول الشاعر، المقصود "كل رجل كان قبل أن يحكم موضع احترام الأمة وتقديسها ثم ينتهي بالحكم إلى المكانة التي ينحدر بها من القمة إلى الحضيض" (انظر مقدمة هذا الديوان ص 10).
ويروي الشاعر أنه فيما كان الديوان قيد الطبع، حضر "أربعة من رجال الأمن الأشداء" وأتلفوه "بالمقاريض"، ولم يسلم منه سوى ست نسخ كان الشاعر قد

أخرجها قبل إتلافه. (انظر هذه التفاصيل في دين وتمـــدين، ج2، ص 171). إلا أنني لم أعثر إلا على نسخة واحدة موجودة في الغرفة المقفلة في مكتبة الجامعـــة الأميركية في بيروت.

28- هو مؤلف ضخم يقع في ستة أجزاء، صدر الجزء الأول منهـــا ســـنة 1958، أمـــا الجزء الأخير فقد صدر بعد وفاة المؤلف.

29- محمد كاظم مكي: الحركة الفكرية، ص 242.

30- محمد جابر آل صفا: تاريخ جبل عامل، دار متن اللغة، بيروت، ص 211.

31- مجلة العروبة: عدد 25، ص 28.

32- الحوماني: نقد السائس والمسوس، مقدمة، ص واو.

33- الحوماني: "فلان"... ص 142-143.

34- الحوماني: نقد السائس... ص 81.

35- الحوماني: القنابل... ص 62.

36- الحوماني: النخيل... ص 80.

37- الحوماني: نقد السائس... ص 112.

38- و 39 تجد نص هاتين البرقيتين كاملاً في مجلة العروبة عدد 26 ص 28.

40- مجلة العروبة، عدد 27، ص 31.

41- مجلة العروبة، عدد 24، ص 29.

42- مجلة العروبة، عدد 27، ص 5.

43- الحوماني: فلان...، ص 116-117.

44- الحوماني: فلان...، ص 121.

45- الحوماني: رسالة موجهة إلى رئيس الحكومة تجدها في مقدمة ديوان "فلان"... ص 14.

46- الحوماني: فلان.. ص 161.

47- نفسه... ص 162

48- نفسه... ص 163

49- نفسه... ص 50

50- نفسه... ص 168

51- نفسه... ص 46-48

52- نفسه... ص 172

53- الحوماني: نقد السائس... ص 23.

54- الحوماني: فلان... ص 148.

55- نفسه... ص 173.

56- الحوماني: النخيل... ص 29.

57- العرفان... م 35، ج10، ص 1453

58- الحوماني: فلان... ص 46-47.

59- نفسه... ص 51.

60- الحوماني: الديوان... ص 195.

61- الحوماني: فلان... ص 96.

62- نفسه... ص 242

63- نفسه... ص 226

64- نفسه... ص 250

65- مجلة العرفان نيسان 966 ص 1015.

66- الحوماني: الديوان... ص 16.

67- الحوماني: النخيل... ص 23-24.

68- الحوماني: الديوان... ص 16.

69- نفسه... ص 10.

70- الحوماني: النخيل... ص 61.

71- نفسه... ص 31 و 33.

72- الحوماني: القنابل... ص 12.

73- أنيس المقدسي: انظر العوامل الفعالة في الأدب العربي الحديث – العوامل السياسية – ج1، مطبعة المقتطف...

74- الحوماني: الديوان... ص 37.

75- الحوماني: مع الناس... ص 11.

76- مجلة العروبة، ج1، ك2، 1947، ص 2.

77- مجلة العروبة، ج1، ك1، 1947، ص 7.

78- الحوماني: النخيل... ص 43.

79- نفسه... ص 15.

80- نفسه... ص 43.

81- العروبة، ج1، ك2، 1947، ص 58.

82- الحوماني: النخيل... ص 64 ("السينا"، هو نهر السين في فرنسا، و "الوليد" هو القائد خالد بن الوليد.

83- سبق وذكرنا أن "فلان" رمز لكل مسؤول في الحكم.

84- الحوماني: فلان... ص 224.

85- نفسه... ص 224.

86- نفسه... ص 95-96.

87- نفسه... ص 86.

88- نفسه... ص 136.

89- علي الزين: العادات والتقاليد في العهود الإقطاعية، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، ص 187.

90- الحوماني: نقد السائس... ص 62.

91- الحوماني: انظر دين وتمدين... ج 1.

92- الحوماني: نقد السائس... ص 86.

93- نفسه... ص 63.

94- جاء ذلك في خطاب ألقاه على المهاجرين العامليين في أميركـــا، ونشـــرته مجلـــة العروبة، عدد 10، ص 395-397.

95- الحوماني: نقد السائس... ص 89.

96- الحوماني: المآسي... ص 42-43.

97- الحوماني: نقد السائس... ص 152.

98- الحوماني: الديوان... ص 73.

99- الحوماني: نقد السائس... ص 148.

100- مجلة العرفان، مجلد 46، ج4، ص 339.

101- الحوماني: نقد السائس... ص 72.

102- نفسه... ص 74.

103- نفسه... ص 105.

104- الحوماني: فلان... ص 68.

105- نفسه... ص 60.

106- نفسه... ص 74-75.

107- نفسه... ص 12.

108- الحوماني: النخيل... ص 23.

ـــــــــ ندوة صيدا ـ جزين ـــــــــ

- المكان: مركز حلقة التنمية والحوار ــ صيدا ــ مجدليون

<u>الشـــعراء:</u>

- الشاعر بولـــس ســـلامة
- الشاعر عاطــف كـــرم

<u>المحاضرون:</u>

- د.أحمــد أبــو ملحــم
- الشاعر علـــي هاشـــم

بولس سلامة: الشاعر الملحمي
1902 ـ 1979

بقلم: د.أحمد أبو ملحم

(أستاذ الأدب العربي في الجامعة اللبنانية)

يحقّ لجزين أن تفاخر العرب، وتدل عليهم بفضلها في حمل قضاياهم، والذَّوْد عن مصالحهم والريادة في مشاريع نهوضهم، كيف لا؟ وهي التي أنجبت سبعة كباراً:

أوّلهم: نجيب جرجس عازوري (1878 ــ 1916م)، صاحب كتاب "يقظة الأمة العربية"، ومؤسس أول حزب عربي ينادي باستقلال العرب وجبه الصهاينة قبل أن يشتد عودهم ويقدروا على اغتصاب فلسطين[1].

---

[1] نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، دراسة وتعريب أحمد بو ملحم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، طـ 2، 1998. وهو القائل: (إن ظاهرتين هامّتين متشابهتي الطبيعة، بيد أنهما متعارضتان لم تجذب انتباه أحد حتى الآن، تتضحان في هذه الآونة في تركيا الآسيوية، أعني يقظة الأمة العربية وجهد اليهود الخفي لإعادة تكوين مملكة إسرائيل القديمة على نطاق واسع. ومصير هاتين الحركتين هو أن تتعاركا باستمرار حتى تنتصر إحداهما على الأخرى، وبالنتيجة النهائية لهذا الصراع بين هذين الشعبين اللذين يمثلان مبدأين متضاربين يتعلق مصير العالم بأجمعه. وليس للمرةالأولى على كل حال تناقش في الأقطار العربية مصالح أوروبا في حوض البحر الأبيض المتوسط؛ لأن هذه المنطقة تصل بين ثلاث قارات وثلاثة بحار كانت على مدى عهود متفاوتة مسرحاً لأحداث سياسية أو دينية، فكتبت مصير العالم).

وثانيهم: نجيب يوسف عازوري، صاحب مجلة "أمنية العرب"، في البرازيل 1913، ومؤسس أول جمعية فدائية عربية تتصدى للاستعمارين الغربي والعثماني على حدٍّ سواء.

وثالثهم: غريغوار حجار، مطران العرب في فلسطين، والذي كان المدافع الأول عن الحقوق العربية في فلسطين، والمقاوم لمشاريع الاستيطان الصهيوني قبل قيام دولة إسرائيل سنة 1948.

ورابعهم: سليمان كنعان(1)، عضو متصرفية جبل لبنان، وهو الذي واجه الانتداب الفرنسي بعدما تبين له أنه استعمار غربي حلَّ مكان استعمار عثماني، وأيَّد الانفتاح على الداخل العربي مما حدا بفرنسا لنفيه عن لبنان، واستمرّ في منفاه على موقفه.

وخامسهم: البطريرك المعوشي، وهو الذي عُرف بتوازنه وتجرّده ومعارضته للتيار الانعزالي والرجعي المدعوم بالأسطول السادس الأميركي في انتفاضة 1957، على الرئيس كميل نمر شمعون.

وسادسهم: بولس سلامة، وهو الذي نكرس الحديث له في هذا اللقاء الذي صادف الذكرى الواحدة والستين لتكريمه في الكلية العاملية في بيروت، سنة 1949، بمناسبة صدور ملحمة "عيد الغدير" أول ملحمة عربية.

وسابعهم: مسعود الخوند الذي فقدناه سنة 2006، قبل أن ينجز الموسوعة التاريخية الجغرافية التي بدأها سنة 1994، أتمّ منها حوالي

---

(1) سليمان كنعان، داعية الاستقلال، بقلم يوسف صقر، السفير، 12 آذار 1999، العدد 8246، ص13، سنة 1856، انتُخب سنة 1909 عضواً في مجلس إدارة متصرفية جبل لبنان.

عشرين مجلداً، لقد قام بعمل يحتاج إلى فريق متعدد الاختصاصات، ومؤسسات كبيرة تتبنّاه، لقد ارتقى مسعود الخوند إلى مستوى الإنجاز الرسالي في ميدان تنمية الوعي والمعرفة، كما آمن برسالة أمته العربية إلى العالم إذ كان قومياً عربياً بامتياز.

سبعة كبار لعبوا أدواراً مهمة على المسرح السياسي والفكري والأدبي، ملأوا الدنيا وشغلوا الناس ليس في لبنان فحسب، بل على مستوى الوطن العربي، كانت لهم هذه الأدوار لسبب بسيط ومهم في آن ألا وهو ريادتهم من جهة وشعورهم الطبيعي بالانتماء إلى محيطهم العربي واندماجهم فيه لدرجة أنه هيأهم ليلعبوا هذه الأدوار انطلاقاً من جزين وصولاً إلى مدى اتساع الوطن العربي من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي.

سأحاول في هذا اللقاء الإجابة عن بعض الأسئلة التي تتناول بولس سلامة كشاعر: ماذا ترك لنا بولس سلامة من الشعر؟ ما هي الفنون الشعرية التي طرحها؟ مركِّزاً على ملحميته.

بالرغم من أن بولس سلامة ترك لنا مؤلفات نثرية تفوق في حجمها المؤلفات الشعرية، إلا أن شهرته كشاعر هي الغالبة عليه، ولعل السبب يعود إلى أنه أجاد في الشعر من جهة، ولأنه وضع أول ملحمة في اللغة العربية، فلذلك عُرف بالشاعر، ولم يُعرف بالناثر.

بعد المقدمة، لا بدّ من لمحة سريعة في تاريخ الملحمة لدى الشعوب القديمة ولدى العرب خاصة.

تعريف الملحمـــة

الملحمة اسم مستحدث أطلق على منظومات الشعر القصصي من أمثال الإلياذة والأوديسة والانياذة. وأول من استعمل هذا اللفظ في العربية هم المغاربة عندما أطلقوه على الشعر المنظوم في أحوال أمة أو قوم، وفصّلت فيه وقائع الحروب والتاريخ.

والملحمة لغة: الوقعة العظيمة، وفسروا نبي الملحمة بنبيّ القتال أو نبي الصلاح، ويقولون: ألحم فلان الشعر؛ أي: حاكَه.

نعثر على الملاحم لدى جميع الشعوب التي عرفت عصوراً من البداوة قبل الحضارة، فلدى المصريين شعر نبتاهور، ولدى الهنود (المهابهارتا)، وللعبرانيين بعض مظاهر الملحمة في التوراة. ولليونان الإلياذة والأوديسة، وللرومان أنياذة فرجيل، ولفرنسا رولان، ولألمانيا هيله براند، ولإيطاليا دانتي، ولإنكلترا ملتن، وللفرس شهنامة الفردوسي، وللترك منظومة شهودي.

وفي الجاهلية كان شعر المعلّقات أقرب الشعر العربي إلى الشعر القصصي الملحمي، وأولها معلقة الحارث بن حلزة لإفاضته في وصف وقائع بكر وتغلب، وتغنّيه بفوز قومه، ونكال عدوه، ومفاخر عشيرته؛ وتلاها من حيث القرب إلى الشعر الملحمي معلّقة عمرو بن كلثوم، وزهير بن أبي سلمى، ويلحق بالمعلقات باعتبار أنها ملاحم عربية: مجمهرة بشر بن أبي خازم وأمية بن أبي الصلت، ثم منتقبات مهلهل ابن ربيعة، ودريد بن الصمة، والمنخل بن عويمر، ثم مذهبة قيس بن الخطيم، ومشوبة النابغة الجعدي، وأخيراً ملحمات الفرزدق والكميت والطرماح.

ومن مظاهر الملحمة في الأدب العربي قصص عنترة العبسي، ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري.

واتجه الأدب في عصر النهضة لسدّ الثغرة في فن الملحمة، ولكن أكثر الملحمات التي ظهرت ما هي سوى محاولات لم تستكمل نضجها. ومن أمثلتها في الأدب الحديث: عمرية حافظ إبراهيم، وعلوية محمد بن المطلب، وبكرية عبد الحليم المصري، وخالدية أبو ريشة، كما لا ننسى محمد لعمر أبو ريشة، والإلياذة لأحمد محرم، وأرض الشهداء لإبراهيم العريض، وملحمة العرب لحليم دموس، وملحمة قدموس لسعيد عقل. على أن أفضل ما يمثل الملحمة في الأدب العربي الحديث هي ملحمة عيد الغدير لبولس سلامة، والتي أردفها بملحمة أخرى هي ملحمة الرياض؛ تتحدث الأولى عن بطولات الهاشميين انتهاءً بكربلاء، والثانية تتحدث عن استيلاء السعوديين على السلطة.

أما الرحلة الخيالية، نسيبة الملحمة، قديمة جديدة؛ قديمة نثراً، جديدة شعراً. ففي التراث العربي: حديث المعراج النبوي، وكتاب التوهّم للمحاسبي، ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري، والتوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي، ووصف الآخرة في الفتوحات المكية لابن عربي.

والجديد منها شعراً ثورة الجحيم لجميل الزهاوي، وعلى بساط الريح لفوزي المعلوف، وعبقر لشفيق معلوف، والحلم المريع لمحمد الفراتي، وشاطىء الأعراف لمحمد الهمشري، وترجمة شيطان لعباس محمودالعقاد، والمعري يبصر لأنيس المقدسي.

ـ مؤلفـــات بولس

1 ـ علي والحسين

هي لشاعر القضاء وقاضي الشعراء، نظمها في 27 تشرين الأول عام 1946م. في قسمها الأول: اثنان وأربعون ومائة بيت في عليّ، وأما قسمها الثاني فقد بلغ سبعاً وثمانين بيتاً في الحسين. كتبها كما يقول في تصديرها بين عشية وضحاها. نشر القصيدة في كتيب صغير (إحدى وعشرين صفحة من الحجم الصغير) نسيب الشاعر المحامي إلياس سلامة.

2 ـ فلسطين وأخواتها[1]

قصيدة طويلة نُشرت عام 1947م، طرح فيها قضية فلسطين ووعد بلفور وتحدث عن فضل الشرق على الغرب، وجاء على ذكر القومية العربية وملوك العرب.

3 ـ الأمير بشير[2]

قصيدة طويلة، نُشرت عام 1947م، نظمها بمناسبة نقل رفات الأمير بشير من اسطنبول إلى لبنان، يصف فيها مجالسه وسياسته، ويتحدث فيها عن الكرامة الوطنية والسيادة والتمثل بالأبطال الغابرين.

---

[1] لم أجدها، ذكرها منصور عيد، بولس سلامة، (بيروت: دار الشرق، ط ، عام 1992 م)، ص 8.

[2] المصدر عينه، ص9.

4 ــ عيد الغدير[1]

أول ملحمة عربية، ملحمة شعرية تتناول أهم نواحي التاريخ الإسلامي وخاصة الهاشميين العلويين وما يتعلق بهم منذ الجاهلية حتى آخر دولة بني أُمية، تقع في ثلاثة آلاف وخمسماية بيت.

5 ــ ملحمة عيد الرياض[2]

ملحمة شعرية يتغنَّى فيها ببطولات عبد العزيز آل سعود الذي فتح الرياض وأسَّس لملك آل سعود، وخاض حروباً طويلة ضد الشريف حسين ملك الحجاز وآل الرشيد أمراء حائل والزيديين أمراء اليمن، وقدَّم للملحمة بالدافع لوضعها سيما أنها جاءت بعد ملحمة عيد الغدير، وأراد أن يردّ على التساؤلات التي تطرح بعد موضوعين متناقضين، ثم تحدث عن الشعر الملحمي، وانتهى بالحديث عن الحقيقة والخيال.

6 ــ عيد الستين[3]

نظمها في عيد ميلاده الستين، ويذكر د. منصور عيد أنها تقع في ستماية وثمانين بيتاً، تناول فيها قصة حياته. هذه مأثوراته في الشعر.

وأما في النثر فقد ترك **حديث العشية**: مجموعة أحاديث إذاعية، **ومذكرات جرح** يروي فيه قصة مرضه، **والصراع في الوجود**: بين الأدب

---

[1] بولس سلامة، عيد الغدير، جميع الحقوق للمؤلف، ط24، ك2، عام 1949م.

[2] بولس سلامة، ملحمة عيد الرياض، د.ط مارس عام 1955- المطبعة البولسية- حريصا.

[3] عيد، منصور؛ بولس سلامة، ص20.

والفلسفة، **وحكاية عمر**: في قسمها الأول ترجمة لحياته وفي قسمها الثاني مجموعة مقالات متفرقة، **وخبز وملح**، **ومع المسيح**، **ومن شرفتي**، **وتحت السنديانة**، **وليالي الفندق**، **وفي ذلك الزمان**.

يقع شعر بولس سلامة تحت ثلاثة عناوين: شعر المناسبات، والشعر الملحمي، والشعر الوطني والوجداني. ولسوف نتحدث فقط عن شعره الملحمي في رائعتيه: عيد الغدير وعيد الرياض.

أ ــ عيــد الغديــر

تتألف عيد الغدير من ستة وأربعين نشيداً بالإضافة إلى الخاتمة، وهي متفاوتة الأطوال، فقد يقع النشيد في تسعة أبيات، وقد يطول إلى مائة وخمسين بيتاً (معاوية).

في النشيد الأول صلاة وابتهال إلى الله أن يُنزل عليه ما يبعث الصخر حياً للخلاص مما هو فيه من مرض مؤلم ألمّ به ولم يبرحه، وأخضعه لست وعشرين عملية جراحية طرحته الفراش حتى أصبح جزءاً من السرير:

إنَّ حظــي مــن الحيــاة ســرير صرت منــه فلــم يعــد خشــبا[1]

ويتبع التألم بدعاء ليسدد الله خطاه وليطهر فؤاده وينزه عقله. وفي سبيل الكمال يجري يراعه في شعر باسم زين العصور ونور الشرق وليث الحجاز، وصقر البوادي، وبطن الميادين الزاهد الأبيّ رب الكلام من بعد طه وصهره ووصيه، ويختم النشيد الأول بقوله:

---

[1] سلامة، بولس؛ عيد الغدير، ص34.

يا سماء اشهدي ويا أرض قــرّي   واخشـــعي أننـــي أردت عليـــا[1]

بعد الصلاة ينتقل من نشيد الجاهلية إلى قريش إلى هاشم فعبد المطلب، فمولد محمد مروراً بصلاة الاستسقاء، وكان فجر الإسلام بإسلام خديجة فعلي وتجبر قريشُ الرسولَ على الهجرة ويتبعه علي إلى يثرب ليعمل في الأرض كأكّار، وتحلم عاتكة بصخرة تزلزل مكة ويكون تفسيرها باعتراض الرسول تجارة قريش، وتقفوها بدر ويُظهر عليّ فيها بطولة لا تضاهى ويتزوج من فاطمة بنت محمد لتنجب الحسن والحسين، ويعرج على الخندق وخيبر والسلسلة وحنين ليصل إلى أهل البيت ويوم الغدير، وهو الذي أعطى اسمه للملحمة من باب تسمية الكل باسم الجزء. وبموت الرسول تتعقد الأمور ويتوالى على الخلافة أبو بكر وعمر وعثمان بن عفان، وقد أسرف وبزخ وأرضى الأقارب، فكانت الثورة بعد نفي أبي ذر الغفاري، وخلافة علي وأيام الجمل، وصفين، والخوارج واغتياله بيد عبد الرحمن بن ملجم، وينهي هذا الفصل برثاء أمير المؤمنين؛ لينتقل بعدها إلى معاوية وابنه يزيد، فالدعوة إلى الحسين وإرسال مسلم إلى الكوفة ومقتل أصحابه فيها ثم مصرعه ورحيل الحسين ونزوله كربلاء سائلاً: بم تستحلون دمي؟ ليصل إلى الوقيعة والساعة الرهيبة، وغب الوقيعة، والطواف وينتهي بالخاتمة.

هكذا تدور ملحمة عيد الغدير على شخصيتي علي والحسين ومقدمة عن الجاهلية والدعوة، بأناشيد منفصلة عن بعضها البعض، الرابط الوحيد هو شخصية علي بن أبي طالب ومن بعده الحسين بن علي.

---

(1) لمزيد من الاطلاع يمكن العودة إلى الملحمة.

يسرد التاريخ بأمانة لا تضاهيها أمانة من وجهة نظر الشيعة، على أنه أقسم بالعظمى أنه استقى معلوماته من السنة. وتشكل قصيدة علي والحسين التي صدرت في كتيب قبل الملحمة، جزءاً أو نستطيع القول: إن الملحمة توسعة للقصيدة.

ب ــ عيــد الريــاض

وإذا انتقلنا إلى عيد الرياض يطالعنا بولس سلامة بنشيد عنوانه أحلام الجزيرة، يتحدث فيه عن الشقاء والهوان اللذين يخيمان والأحلام التي تسترجع بطولات عنترة وكرم حاتم وذي قار، ويطوف بالتاريخ عبر ولادة الرسول والدعوة وبطولات العرب في الفتح ليصل إلى عمر بن الخطاب فاتح القدس وصديق النصارى ومن القدس يطل على نكبة فلسطين بادعاء الصهاينة الحق فيها ويهاجم وعد بلفور ويتهم الغرب بمشايعة الصهاينة وبيع العرب وتهجيرهم من أرضهم لينعم فيها الغرباء. ويتذكر خالد بن الوليد ومعركة اليرموك وحقوق العرب في فلسطين التي تحميها سيوفهم، ويذكّر بصلاح الدين وحطين ويعود للحديث عن مجازر الصهاينة في دير ياسين وغيرها، وينهيها بمقطع حكمي آية في الروعة، حيث يقول:

أمّــة العــرب والنــداء ابتهــال   ليس يغني عــن القتيــل الرثــاء

حسبكم من ضروب هزء الليــالي   أن علــيكم تنصَّــب الأوصــياء

قَصّــرٌ فــي عيــونهم أو رقيــق   جــاز فيــه التنكيــل والإفنــاء

وإذا بيـــع بالـــدنانير عـــدل فالجنـــاة القضـــاة والفقهـــاء

ودموع الحُمـــلان تغـــري نيـــوب الذئب فيها، فالصـــرخة اســـتهواء

أطمـــع الغَـــرب أن غضـــبتنا الجلى رجـــاءٌ وحقّنـــا اســـتجداء

وأظنّ أن هذا النشيد كُتب سنة 1947م، قبل نكبة فلسطين بسنة واحدة وكعادته أدمجه في الملحمة.

بعد أحلام الجزيرة ينتقل إلى الوهابية، فيتحدث عن ابن تيمية وابن عبد الوهاب واتفاقه مع آل سعود ويُنَقِّلُ الكلام بين سعود وعبد العزيز الأول وسعود الكبير، المؤسس الأول للسعودية، وعبد الله، وما وقع من مشاحنات بين الإخوة وأبناء العم استفادت منها الدولة العثمانية، التي كلفت محمد علي باشا والي مصر إعادة الوضع إلى ما كان عليه قبل الدعوة الوهابية، ويعرّج هنا ثانية على فلسطين والهدنة التي فرضت لإنعاش الصهيونية، تمهيداً لابتلاع الهلال الخصيب:

أنعشـــوه بهدنـــة فـــإذا صـــهيون تســـــتقبل الحيـــــاة منـــــاعم

تبلع البحـــر وهـــو ملـــح أجـــاج وتسيغ البرّ العـــريض الغلاصـــم

عينهـــا "للهـــلال" عـــين أكـــولٍ هدَّه الصـــوم قبـــل مـــدِّ الـــولائم

ثم يعود إلى فيصل وجلوي ومشاحنات أبناء فيصل وانتصار آل الرشيد وهرب آل سعود إلى الكويت، ويضع إصبعه على الجرح عندما يصف حال العرب:[1]

قيّد العرب في الجزيرة جهل وانقسام وعزلة ومكاره

همل كالقطيع إذ كل رأس لسواه من الرعية كاره

كل فخذ قبيلة، كل بطن دولة في انعزاله ونفاره

يعرب ذلّ في الضمائر، بعد العزّ، بعد ارتفاعه واشتهاره

مطلع الشمس مطلع لأمانيه وأفق الغروب جدّ انتشاره

فغدا ريشةً بملعب أرياح هلوع الجنان في كسر داره

هؤلاء العرب الجهّال المنقسمون المعزولون، القطعان الأذلاء الذين كانوا مطلع الشمس وأضحوا ريشة بملعب الأرياح، ينتظرون مخلصاً منقذاً، فإذا هو المولود عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود.

هذا الأمير هو الذي قاد مسيرة العودة إلى الرياض بمساندة الإنكليز حلفاء مبارك الصباح (سنة 1901م)، واستردّ الرياض وخاض الوقائع مع ابن الرشيد والشريف حسين وانتصر عليهما، ونصّب نفسه أميراً فسلطاناً فملكاً على الجزيرة لا ينازعه أحد، وقلب اسمها إلى المملكة العربية

[1] سلامة، بولس؛ عيد الرياض، ص134.

السعودية. ويختتم الملحمة بتحية لبنان إلى الملك سعود بن عبد العزيز، وقد تولى الملك بعد أبيه.

دراسة ومقارنة

بعد هذا العرض للحوادث التي تدور الملحمتان حولها نتساءل: هل تنطبق عليهما سمات الملاحم؟ ولمعرفة ذلك لا بد من معرفة ماهية الملحمة لنتأكد من مطابقة عمل بولس سلامة عليها.

عرّفها بولس سلامة نقلاً عن الفرنجة بأنها[1]: قصيدة طويلة النفس موضوعها البطولة، وهي سرد المغامرات البطولية يرافقها شيء من اللامألوف، قوامها السرد، وهي من التاريخ وفي معظمها خيال وبطلها يأتي بالعجيب الخارق، وعلى الشاعر أن يكون متأثراً بالشعور الذي يخلعه على أبطاله.

وفي مكان آخر ينتقد بولس سلامة تعريفاً للملحمة يطلب إلى الشاعر أن يترك شخصيته جانباً ليتناول الأبطال والجماعات والوقائع الحربية والمناقب القومية بأسلوب قصصي تكثر فيه الخوارق[2].

وإذا أردنا مقياساً سليماً، فما علينا إلا العودة إلى الينبوع مع أرسطو في فن الشعر وإلى المصب مع باختين. يقول أرسطو في تعريف الملحمة[3]: القصة يجب أن تنظم نظماً يعتمد على الحركة والعمل، كما في التراجيديات،

---

(1) سلامة، بولس عيد الرياض، ص15.

(2) المصدر عينه، ص18.

(3) أرسطو، فن الشعر، ص130، حققه مترجماً حديثه: شكري محمد عياد، القاهرة: دار الكتاب العربي والنشر، د.ط عام 1982.

وأن تدور حول فصل واحد تام مكتمل له أول ووسط وآخر. وينبغي ألا يكون نظم الحوادث كما في التاريخ. ويعطي أرسطو هوميروس نموذجاً فهو لم يحاول أن يروي قصة الحرب بأكملها، وإن كانت ذات بدء ونهاية، لأنها مفرطة في العظم بحيث يصعب النظر إليها مجتمعة... اقتطع منها جزءاً واحداً، واستعان بكثير من لواحقها كإحصاء السفن... وغيره من الشعراء يجمعون لقصائدهم بطلاً واحداً وزماناً واحداً وفعلاً واحداً متعدد الأجزاء. ويقول في مكان آخر: الشعر الملحمي أشدّ قبولاً لغير المعقول... ويؤثر الشاعر استعمال المستحيل المعقول على استعمال الممكن غير المعقول.

يقول باختين: هناك ثلاث سمات رئيسة للملحمة كنوع محدّد، ألا وهي:

1 ــ الماضي القومي البطولي الذي يكون بمثابة موضوع للملحمة، وهذا ما أطلق عليه غوته وشيلر تسمية الماضي المطلق.

2 ــ الأسطورة القومية تكون في أصل الملحمة.

3 ــ ينقطع العالم الملحمي عن الزمن الحاضر.

ويضيف: عالم الملحمة هو عالم الماضي القومي البطولي، عالم البدايات والقمم في التاريخ القومي، أي عالم الآباء والأجداد الأولين الصالحين. الشاعر والسامع يقعان في زمن يتطابق وفي مستوى من القيم واحد، بينما يقع عالم البطل المتخيّل على مستوى من القيم والزمن مغاير تماماً ولا يمكن الوصول إليه... وتكون الأسطورة القومية وسيطاً[1].

---

[1] باختين، ميخائيل، الملحمة والرواية، ص 32 دراسة وتعريب: جمال شجيد، (بيروت: معهد الإنماء العربي، ط 10، عام 1982م).

وتشكل الأسطوة جزءاً لا يتجزأ من الملحمة[1]

وهل تنطبق معايير الينبوع أو المصب على ملحمتي بولس سلامة؟

فهل نظم بولس سلامة في عيد الغدير قصة لها أول ووسط ونهاية، وتدور حول فعل واحد وزمن واحد وبطل واحد؟

وهل كان موضوع ملحمة عيد الغدير البطولة القومية في المعارك مع الأعداء الخارجين؟ وهل وسّط بولس سلامة الأسطورة للوصول إلى هذا العالم الأول الفاضل الخالد... وهل استطاع أن يكون كشاعر على مستوى السامع بعيد جداً عن مستوى البطل وزمانه؟

إذا تصفحنا عيد الغدير خاب أملنا في العثور على موضوع مترابط من البداية إلى النهاية، موضوع يدور حول فعل واحد في زمن واحد لبطل واحد. وخاب أملنا أكثر إذْ رأينا أن البطولة التي تحدّث عنها الشاعر ليست بطولة قومية في مقارعة الأعداء القوميين، بل هم أقرباء وأنسباء وأبناء جلدة واحدة، آمن البعض برسالة الإسلام وقاومها آخرون، ثم تفرَّق المسلمون إلى فرق، وامتدت أحداث الحروب بينها قروناً طويلة ولما تنتهِ بعد. لم يوسط بولس سلامة الأسطورة للوصول إلى قيم بطليه علي والحسين، بل على العكس رفض كل متخيل حولهما، مع أن هناك الكثير من الناس يلفّون شخصيتي علي والحسين بهالات من المتخيلات تصل إلى حدود القداسة، وربما تصل إلى الألوهية. وهو لم يستطع أن ينفصل كشاعر عن بطليه، وربما نجده يتوحد معهما ويحكي بلسانهما وينطقهما ما يحس هو ويشعر،

---

[1] المصدر عينه، ص 36.

حتى قال: "كلما مرّ في خاطري مصرع أمير المؤمنين وابنه الحسين تلهّب صدري نصرة للحق ونقمة على الباطل[1].

وإذا انتقلنا إلى الملحمة الثانية ملحمة عيد الرياض وعرضناها على المعايير نفسها، فماذا نجد؟

نجد أن بطل الملحمة هو عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل من آل سعود مؤسس الدولة السعودية، هو معاصر للشاعر خاض حروباً ضد آل الرشيد حكّام حائل، وضد الشريف حسين شريف مكة، وضد الزيديين حكام اليمن، وهو لم يخض حرباً واحدة ضد أعداء العرب، ولا نستطيع بأي حال أن نضعه بين الجدود الأوائل الصلحاء، بل هو رجل معاصر وأولاده ما زالوا يتوارثون الحكم ويتداولونه حتى الآن. إذاً، ليس هناك انقطاع بين زمن البطل وزماننا، ولم يكن بولس سلامة بحاجة إلى أن يوسط الأسطورة لفهم قيم زمن عبد العزيز، وبالتالي لم تكن الأسطورة جزءاً من ملحمة الرياض. وأكثر من ذلك، لقد تقيّد بولس سلامة بتاريخ نجد الحديث لأمين الريحاني، وكتاب "جزيرة العرب في القرن العشرين" لحافظ وهبة، ولقد كان حريصاً جداً على أن يذكر في الهوامش المصادر التي استقى منها، والأحداث التي جرت بدقة متناهية، كذلك فعل في عيد الغدير عندما نقد المصادر وأبى إلا أن يعود إلى مصادر السنّة حتى لا يقول قولاً فيه انحياز لعلي، لقد نظم التأريخ وابتعد عن الأسطورة.

---

[1] سلامة، بولس، هلي والحسين، ص3.

لكن إذا عرضناهما على المعيار الذي وضعه في مقدمة ملحمة عيد الرياض: "إن الملحمة قصيدة طويلة موضوعها البطولة، أو قل هي سرد لمغامرات بطولية يرافقها شيء من اللامألوف وقوامها السرد"[1]، لكانتا ملحمتين بكل معنى الكلمة، ولا يقلل من قيمتهما ما أحسّه بولس سلامة من غمز ولمز في عيون البعض، وربما في تصريحاتهم بأن ما نظمه ليس سوى مطولات مدحية سفحها صاحبها لينال بعض المكاسب المادية، فأهدى الأولى لشاه إيران، وأهدى الثانية للملك سعود بن عبد العزيز، واستشرف هو ما قد يتقوله الناس، فانبرى يدافع ويقول: "ومثل هذا الإقدام يوقظ فكرة التناقض، فيتساءل المتحذلقون كيف تأتّى لهذا الشاعر المسيحي أن يجمع بين الشتاء والصيف على سطح واحد؟... أَوَثبة من الشيعة إلى الوهابية؟ أم تراجع عما قال بالأمس؟" وتابع يقول: "وليعلموا أن الشاعر الجدير بهذا اللقب يتعالى عن مزالق الطائفية ويتحامى سمومها، فما يستهويه إلا البطولة... فإن من تغنّى في الأمس بالإمام علي، وشدا اليوم بمآثر ابن سعود، لا يتعذر عليه إن شاء الله أن يشيد غداً بمجد المهاتما غاندي، فيتلاقى التشيع والوهابية والتصوف الهندي على قلم واحد، ولا تناقض"[2].

ويبرر بولس سلامة ملحمة عيد الرياض بفقر الشرق إلى الملاحم، وأن العروبة المستيقظة الآن في صدور أبنائها في الغرب الأقصى إلى منتهى جزيرة العرب لأحوج ما تكون إلى التَّمَثُّل بأبطالها الغابرين، وإني لأضيف اليوم إلى الغابرين بطلاً من المعاصرين.

---

[1] سلامة، بولس، عيد الرياض، ص15.

[2] المصدر عينه ، 8-9.

وإذا كان من جوهر الملحمة أن تشتمل على الخوارق، فلقد وجدت في ابن سعود بطلها الذي أولج الواقع في الأسطورة، والأسطورة في الواقع[1]. وفي مكان آخر يتحدث عن أن الملحمة في دمه[2]، لأنه تعشق القوة في أبيه ومنه، "وكان الناس في قريتي يتناقلون أخبار يوسف الجر (ووالد بولس سلامة) و"الكباش" الذي ينتقل معه من قرية إلى قرية، والعمدة التي يرفعها، ويتناقلون أيضاً كياسته يوم لوى ذراعه في كباش مع يوسف بك الزين في كفرمان".

ونحن لا نقف كثيراً عند الدوافع التي أملت عليه الخوض في غمار هاتين الملحمتين، سواء أكانت دوافع شريفة تمجد البطولة أم دوافع تكسبية. ما يهمنا هو مدى مطابقة العملين اللذين وضعهما بولس سلامة على معايير الملحمة كما تعارف عليها النقاد. ومما لا ريب فيه أن بولس سلامة كان كما قال: "الملحمة في دمي وقد خلقت شاعراً ملحمياً"، وكان الناس يستشعرون فيه هذه الموهبة لذلك كانوا يطالبونه بأن ينظم تاريخ العرب شعراً... فنفسه الملحمي واضح تمام الوضوح في كل ما كتب. من هنا كانت اقتراحات الشيخ عبد الله العلايلي والشيخ عبد الحسين شرف الدين تتلاقى على هذا الصعيد.

ويعترف هو بمآخذ يمكن أن تؤخذ عليه، منها اعتماده على التأريخ، ويبرر ذلك بأن ترجيح لغة الصدق على لغة الاختلاق ليس عيباً[3].

---

[1] سلامة، بولس، عيد الرياض ص10.

[2] المصدر عينه، ص 4-5.

[3] المصدر عينه، ص17.

وكذلك يتحدث عن مصاعب السرد وخلو الحوادث من حبكة غرامية يغدو عليها القلم ويروح. ويردّ المأخذ الأول إلى تكاثر الأحداث والأسماء، ويرد المأخذ الثاني إلى رصانته وجديته وابتعاده في سلوكه وعيشه عن أمور الحب والغرام والشراب.

ومع هذا المأخذ، لا بدّ لنا أن نردد مع أنيس الخوري المقدسي قوله: "ليست أكثر الملاحم البطولية التي ظهرت حتى الآن في الأدب العربي إلا محاولات لم تستكمل نضجها بالنسبة إلى ما عند الإفرنج في ذلك. على أن أفضل ما يمثل الملحمة الحقيقية في أدبنا الحديث كتاب "عيد الغدير"، وهو قصائد شتى تقع في ما يقرب من ثلاثة آلاف بيت من البحر الخفيف، ومداره على أهل البيت العلوي في أهم ما يتصل بهم منذ الجاهلية حتى مأساة كربلاء" [1].

ونعترف كما اعترف المقدسي من قبل، أن بولس سلامة أجاد في نظم عيد الرياض بعد صدور كتاب المقدسي، إجادة تحله المحل الأول بين ناظمي الملاحم العربيةوترفع ملحمتيه إلى مصاف الحسان بين الملاحم العالمية.

ولا يضير عمله افتراءات شيخ شيعي يدّعي أن قصد بولس التفريق بين السنة والشيعة[2]. وقد نسي هذا المعمم أن الشاعر لم يعتمد سوى مصادر السنّة فيما كتبه عن الإمام، كما نسي المفتري أن الذي قدم للملحمة شيخ سنّي

---

[1] المقدسي، أنيس الخوري، الإتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، ص 394-95، (بيروت: دار العلم للملايين، ط2، عام 1960م).

[2] سلامة، بولس، حكاية عمر، ص 162-165.

معمم لم يعرف بين المشارقة والمغاربة المعاصرين من هو أوسع منه اطلاعاً ولا أشمل منه يراعاً وأطيب حديثاً؛ عنينا به عبد الله العلايلي.

كما لا يضيرها زعم آخر أن الشاعر صانع الشيعة، ويشهد الله أنه لم يفكر إلا بعليّ بطلاً، سواء لديه شيعة تعدّ بالملايين أم كان منفرداً لا ذرية له ولا أتباع[1].

وغنيّ عن القول، كما يقول بولس سلامة في حكاية عمر، أن الأقطار العربية استقبلت ملحمة عيد الغدير بإعجاب شديد؛ لأنها فاتحة لا سابقة لها، فتلقاها الشيعة بالتهليل، وقد شكروا الشاعر في المساجد، وتلقت السنة الراقية الناظرة إلى مجد العرب في صدر الإسلام الملحمة بالترحاب لصدورها عن يراع مسيحي تنزّه عن الطائفية. أما الذين ما برحوا يجادلون في أولوية الخلافة جدلاً بيزنطياً، فظلوا بين صامت وغائب[2] وإني اليوم بعد نصف قرن على ولادة الملحمة الأولى في اللغة العربية أشهد أن الشاعر كان صادقاً فيما كتب، لقد كان مسيحياً، ولكنه لم يكن طائفياً، ولطالما ردّد قولاً: "علّمتني الحياة أن الدِّين والتعصب لا يجتمعان، بل يجتمع التعصب والطائفية... الطائفية أشد خطراً من الكفر بما تنبت من مفاسد، وما تثير من فتن، ولتجدن المتجرين بها أرقّ الناس ديناً وأكثرهم رياء وملق لسان، ولعلّهم يسترون مركب الدونية فيهم بما يتصنعون من غيرة على الدين، دفعاً لتهمة الزندقة

---

[1] المصدر عينه، ص65.

[2] سلامة، بولس، عيد الغدير، ص 164-166.

عن أنفسهم، وما هم بالأبرياء[1] أما وقد أتيت ببعض ما أُخذ عليه، فلا بدّ من أن آتي ببعض ما له:

1 ــ لقد كان صادقاً فيما قال؛ لأنه في سلوكه اليومي لم يكن طائفياً، فلقد أطلق على أبنائه أسماء لا دينية كرشاد وسهاد ونهاد... كما كانت صداقاته تتجاوز حدود الطوائف، ويكفيه أنه قال: في عنق الشاعر العربي دين للإسلام، سواء كان الأديب مسلماً أو مسيحياً؛ إذ أنه لم يجرِ قلم بالفصاحة إلا وعليه رشاش من غيث القرآن الكريم...

ولقد استعار هذا الكلام مرة ثانية بعد ربع قرن أحد كبار المفكرين العرب في العصر الحديث، أقصد ميشيل عفلق ونصاعة هذه الحقيقة تتضح في ملحمتيه كما في مقالات كثيرة سطرها.

2 ــ يختزن الشاعر عروبة ووطنية صافيتين بريئتين من كل زيف أو مراهنة أو تعصب طائفي أو ديني أو قطري مقيت، فهو يعرّف نفسه قائلاً:

أنا من يعشق البطولــة والإلهــام والعــدل والأخــلاق الرضــيّا[2]

وهو لا يفتأ يدعو لصون تراث العرب، ولا يرضى عن صرح العروبة بديلاً، ويجأر مطالباً بإقامة هذا الصرح؛ إذ يقول:

يا ميامين يعرب أنــتم الإخــوان صــونوا تــراثكم عربيــا

---

[1] المصدر عينه، ص 225.

[2] المصدر عينه، ص 317.

كل صرح سوى العروبة واهٍ فارفعوه ثبت الأصول قويّا

شيّدوه للسلم إما استطعتم فإذا خاب فليكن دمويا[1]

3 ــ يهاجم الصهاينة والذين أنزلوا الصهاينة أرض فلسطين، وشرّدوا أهلها:

ما لصهيون في فلسطين حقٌ دنّس المنزلون والنزلاء

كان محكى الأمثال أن بني صهيون في الروع نعجة جمّاء

فمتى عادت السخال أسوداً وتباهت على الأَسود الجِراء

شركاء الذئاب كيف غويتم فنصرتم صهيون وهي الوباء

بعتم العرب بالأبخسين قدرا فلقد سئتمُ نفوساً وساءوا

كل بيت من شركم فيه صخر كل أنثى من غدركم حسناء

للبغايا في الأرجوان اختيال والعذارى نصيبهن العراء

قد بعثتم في العرب جذوة حقد تكتسيها الأصباح والأمساء

بفم الشيخ لعنة حين يمضي ومع الطفل تولد البغضاء[2]

---

[1] سلامة، بولس، عيد الغدير، ص 312.

[2] سلامة، بولس، عيد الغدير، ص.ص 62 ــ 64.

4 ـــ يهيب بالعرب أن يتذكروا خالد بن الوليد، ويتساءل:

أفحتم على فلسطين أن يشقى بنوها وينعم الهجناء
خالد بن الوليد إرثك نهب ورثته الرّعاع واللّقطاء
فكأن اليرموك لم تبلَ فيه ضُمَّرٌ يعربية جرداء
يوم ربقت، من صهلة الخيل "بيزنطا" وبادت كتائب خرساء

5 ـــ بثّ في تضاعيف ملحمتيه وبشكل خاص في ملحمة عيد الرياض أمثالاً وحكماً تنمّ عن أصالة وقوة في رصد الحاضر واستشراف المستقبل، فلنسمعه يقول:

أمّة العرب والنداء ابتهال ليس يغني عن القتيل الرثاء
حسبكم من ضروب هزء الليالي أنّ عليكم تنصب الأوصياء
قَصّرٌ في عيونهم أو رقيق جاز فيه التنكيل والإفناء
وإذا بيع بالدنانير عدل فالجناة القضاة والفقهاء
ودموع الحُملان تغري نيوب الذئب فيها، فالصرخة استهواء
أطمع الغَرب أن غضبتنا الجلى رجاء وحقنا استجداء[1]

---

[1] سلامة، بولس، عيد الغدير، ص66.

لقد رثى العرب الشهداء وذرفوا الدموع، لكن هذا الرثاء وهذه الدموع لا تُغني عن الشهداء.

وكم هي الصورة بليغة عندما ترانا في عيون الغرب أرقّاء عبيداً يجوز فينا التنكيل، ويرى أن الجناة قضاة. ويخلص إلى هاتين الحكمتين البليغتين:

ودموع الحملان تَغري نيوب الذئب فيها، فالصرخة استهواءُ

أطمع الغرب أنَّ غضبتنا الجلى رجاءٌ وحقّنا استجداءُ

وحمل أفكاراً ثورية؛ إذ كره الهدنة والمهادنين في حرب فلسطين الأولى سنة 1948م، واعتبرها إنعاشاً للصهيونية:

هل فلسطين بعد هُدنة شؤم غير شلو تناوشته اللّهاذم

تلَّ أبيب كان أدنى مساغاً من كؤوس الطلا بكفَّ منادم

أنعشوه بهدنة فإذا صهيون تستقبل الحياة مناعم[1]

6 ــ استشرف المستقبل وعرف أن الصهيونية سوف تبتلع ما حول فلسطين، فلنسمعه يقول:

عينها "للهلال" عين أكول هدَّه الصوم قبل مدِّ الولائم[2]

---

[1] سلامة، بولس، عيد الغدير، 91.

7 ـــ ردَّ بولس سلامة إحدى الحجج التي تقول: إن العرب ليسوا أهل ملاحم؛ لأن الملحمة تتطلب صبراً وجلداً وطول نَفَس ومطاوعة لغة تكفي لآلاف الأبيات من الشعر، فبرهن في ملحميته، وقد أربت الأولى على ثلاثة آلاف وخمسماية بيت، والثانية على سبعة آلاف بيت؛ أن هذه حجج واهية عندما تُقْدِمُ الموهبة الشعرية والإرادة على مغازلة الإبداع ومعايشة العمل الفني شهوراً طويلة أو سنيناً. أفلا تكفي هذه التي ذكرتها لبولس سلامة، أولها أنه أول عربي ينظم ملحمة باللغة العربية، وآخرها الردّ العملي على من اعتقد أن العرب والملاحم لا يتفقون؟ أفلا تكفي هذه وتلك لنضعه في مصاف الشعراء العظماء؟ وإن فاته الكمال، فما الكمال إلا لله عزّ وجلّ.

---

(2) المصدر عينه.

الشاعر الراحل عاطف كـــرم

الإنســـان والشـــاعر

بقلم: أ.علـــي هاشـــم

(شاعر ومربٍّ وكاتب)

أهلاً بكم، وشكراً لكم على تحملكم مشقَّة الحضور، والشكر كل الشكر إلى "حلقة التنمية والحوار" في مجدليون، وإلى "المجلس الثقافي للبنان الجنوبي" على رعايته الحثيثة للطَّاقات الجنوبية اللبنانية، خصوصاً في مجال الإبداع الفنِّي والأدبي. إنَّه لمن الصعب أن تجد واحداً من رجالات العلم والفكر والإبداع في الجنوب حقَّق ما حقَّقه من غير أن ينطلق من رحاب مجلسنا الكريم. وها هو اليوم، يكرِّم عشرة من كبار شعرائنا الجنوبيين الراحلين ممَّن كان لهم مساهمتهم اللاَّفتة في البناء الشعري الجنوبي بشكل خاص واللبناني العربي، بشكل عام. وهنا، لا بدَّ من إنحناءة تحمل كلَّ معاني الإجلال والإحترام إليكِ يا جزِّين، وإلى كل ما يُحيط بكِ من قرى وبلدات تنضوي تحت جناحك، وأنتِ تختالين بما منحكِ الخالق من فرادةٍ في الطبيعة، وفرادةٍ في الرجال. وإنِّي لأشكر للكبير حبيب صادق ثقته بي حين أسند إليَّ مهمة الكلام على الشاعر الكبير، شمس جزين التي لا تغيب، الشاعر المرحوم عاطف غطَّاس كرم...

وأبدأ بالسؤال الذي لا بدَّ منه، وهو: مَنْ هو عاطف غطَّاس كرم؟

واستناداً إلى ما ورد في مقدِّمة ديوان الشاعر الذي أشرف على جمعه وتبويبه مشكوراً، الدكتور ميشال جحا، فإنني أَقْتَطف منه ما يلي:

" وُلِدَ الشاعر في جزِّين، في السابع والعشرين من شهر شباط 1916، وتوفي في بيروت في الثامن عشر من تموز 1983. والده المحامي غطَّاس كرم، ووالدته السيدة لطيفة رحيِّم. وله أربعة أخوة هم الدكاترة: فؤاد، وأنطون الأديب والأستاذ المعروف، روبير، وأندريه. وشقيقتان هما: الدكتورة جمال حرفوش، وسامية زوجة أنطون هاشم. درس في الجامعة الأميركية في بيروت، ونال شهادة (B.A) في الهندسة سنة 1930، وشهادة الماجستير (M.A) سنة 1956. وقد انصرف إلى التعليم في الجامعة الوطنية في عاليه، ثم في الإنترناشونال كولدج منذ سنة 1943 أستاذاً للرياضيات، ثم رئيس دائرة الرياضيات فيها حتى تقاعده[*]. وإلى جانب تولِّيه التدريس... فإنَّه كان نقيباً للمعلِّمين في لبنان طيلة عشر سنوات (1960ـــ 1970)... وهو أحد مؤسِّسي "إتحاد المعلمين العرب" عام 1960، وقد وقَّع وثيقة الاتحاد باسم معلِّمي لبنان.

كما مثَّل لبنان في مؤتمرات تربوية عدَّة... وإلى ذلك كان عضواً في لجان تعديل المناهج التربوية في الامتحانات الرسمية منذ عام 1948 [**].

---

[*] مقدمة الديوان، ص: 8 ـــ 9.

[**] مقدمة الديوان، ص: 12– 13.

" وهو الذي سعى إلى الاحتفال بعيد المعلِّم الذي عُيِّن في التاسع من آذار من كل عام".

أُصيب عاطف بفقدان شقيقه الأستاذ والأديب والناقد المبدع المرحوم الدكتور أنطوان غطَّاس كرم (1921 ــ 1979). كما أُصيب بالمأساة التي حلَّت بلبنان الذي أحب، وفي ذلك يقول:

"... مأساة لبنان أوجعتني وآلمتني حتى الموت، وما تزال... ولعلَّ أشد ما يؤلمني وجود مئاتٍ من تلاميذي وأصدقائي من حملة الحراب وقادة الخراب والدمار. وبين هؤلاء من كنتُ أتوسَّم فيهم الجدية والعمل والبناء المثمر والخير العميم..."(*)

رحم الله عاطف كرم كم كان شفَّافاً! وكم كان بعيد النظر...!

هذا هو ، وباختصار شديد عاطف غطَّاس كرم الإنسان... فمن هو عاطف غطَّاس كرم الشاعر؟

والآن نسأل: ماذا في الديوان؟

إذا تصفَّحنا الديوان، لاحظنا أنَّ القصائد تدور على محاور ثلاثة هي: الوطن ــ الطبيعة ــ المرأة. مع استبعاد واضح للشعر السياسي الذي يكاد يكون خارج اهتمامات الشاعر، إلاَّ في مواقف قليلة ونادرة، كقصيدة: "أسطورة المجد من يا مصر يرويها" التي ألقاها في مهرجان "ميدان التحرير" في مصر بحضور الرئيس جمال عبد الناصر...

وفيها يكشف عن مكنونات نفسه التي تتجاوز الصراع السياسي المحلِّي المقيت إلى آفاق أوسع وأرحب فيقول:

(*) مقدمة الديوان، ص: 16 ــ 17.

أقولها حـــرَّةً، عربـــاءَ، صـــافيةً: مَنْ للعُروبَةِ إنْ نـــادى مُناديهـــا؟

مَنْ للملاحِمِ إنْ أجَّـــتْ مجامرُهـــا إلاّكِ يا مصرُ، أو سُلّتْ مواضـــيها

لنا فلسطينُ، نادَتْ مصرُ، فاجتمعَتْ دنيا الأعاربِ، قاصـــيها ودانيهـــا

ولن نكَفَّ وفـــي أوطانِنـــا عَـــرَبٌ حتى نَعيدَ إلى الأوطـــانِ أهليهـــا

رسالةَ الدَّهرِ مـــن لبنـــانَ أنقلَهـــا عن بعلبكَّ إلى الأهـــرامِ أهـــديها

أُخَوَّةً بيننا يا مصرُ ما انفصـــمت يوماً عُراها ولا خابـــت أمانيهـــا

ومثلُ ذلك ما ورد في قصيدته: :"عودة اللاجئين" التي كانت إحدى القصيدتين الفائزتين في مسابقة الشعر ونُشرت في مجلة الآداب عام 1955... لكنَّ المؤسف أنَّ أمنيات وأحلام وإخلاص هذا الرجل ذهبت كلُّها أدراج الرياح، فماذا عساه يقول في العرب بعد الذي يجري اليوم على أرض فلسطين من ناحية، وعلى أرض العرب أنفسهم من ناحية ثانية؟!

وبما أننا دخلنا في صميم موضوعنا، فإنِّي سأتوقف أولاً أمام الشكل الشعري الذي اعتمده عاطف كرم ألا وهو "القصيدة العمودية الكلاسيكية". حيث نلاحظ وكأنَّ هناك علاقةً تكاد تكون مقدَّسة بين الشاعر وهذا النوع من الشعر. فهو لم يتخلَّ عنها ولو لمرَّةٍ واحدة، وكأنَّها العشيقة الودودة التي لا يرى الحياة إلاَّ فيها.

لقد ظلَّ عاطف كرم أميناً على البيت الذي ترعرع فيه، وعلى التربية التي تلقَّاها وخصوصاً في ما يتعلق بالأدب عامةً وبالشعر بشكلٍ خاص.

وظلَّ أميناً على تراثه حين راحت الأيادي السوداء تعبث به، فخلطت الغث بالسمين حتى يتمَّ التمويه، وذرُّ الرماد في العيون... ولعلَّ عاطف كرم استشعر في أعماقه أنَّ أي شكل آخر من أشكال التعبير الشعري سوف لن يسع جلجلة صوته، ودويَّ معانيه. إنَّه الشاعر الكلاسيكي بامتياز الذي عرف كيف يطوِّع الوزن، ويعابث الروي والقوافي، ويعزف شعره عزفاً حتى تتولَّد من القصيدة جوقة موسيقية متكاملة، فيحوِّل الموسيقى والإيقاع إلى رذاذ بارد ينثره علينا...

والقصائد في الديوان تراوحت بين المقطوعة والقصيدة والمطوَّلة. ولعلَّ أهم ما يُلفت فيها تلك الأناشيد التي كان يُفْرِغ فيها ما يستطيع من الوجدانية والفن، والمعاني، والانسياب...

غير أنَّ هذا الكلام على تعلُّقه بالقصيدة العمودية لا يعني أنَّ الشاعر كان أسيراً لها، لكنَّ المتأمِّل يتحسَّس تلك اللمسات الرشيقة التي أحدثها في كيان هذه القصيدة، فراح يبعث فيها دماً جديداً "والمقصود هنا الشكل" يحرِّكها، يُقرِّبها، يتباعد بها، يهزُّها، يُزيِّنها، يوقعها، وبإمكانك القول: يراقصها وهو يزُفُّها إلينا. إسمعوا معي بعضاً مما جاء في ذلك النشيد الجميل، بعنوان: "نداء البقاء" وهي قصيدة مهداة إلى الشاعر سعيد عقل، حيث يقول:

إذا الحـــــــــــــبُّ مـــــــــــــــات

حبيبـــــــــــــي، دَعِ الــــــــــــذكريات

لهـــــــــا غـــــــــدُها الكائنــــــــــات

طويـــــــــــت المُنــــــــــى

ومــــا مِــــنْ غـــــدٍ بيننـــــا!!

أنحيـــــا عهـــــودَ الســـــرابْ؟

لقــــــد كــــان ذاكَ الشــــبابْ..

وَصَـــــــــلنا فغـــــــــاب!!

عِطــــــاش.. عِطـــــــاش أزَلْ

أمـــــا مـــــــن أمــــــل؟!

أحِسُّــــــكَ مِـــــلءَ دمــــــي

فراغـــــا وبــــــي ترْتمــــــي

وتــــــذبُل فـــــي مَبْسَــــمي

وتنهـــــارُ فـــــي مســــــمعي...

ويمضي الشاعر على هذا الإيقاع العنيف في حركته، وفي توثُّبه موغلاً في ومضاته التي تظنّها طالعةً عليك لتقول لك: "هكذا يكون الشعر".

وهكذا يتنقَّل بنا بين قصائده، وأناشيده جذلانَ طَرِباً، كما في قصيدته: "أتمضي ولا موعدُ"، حيث يقول:

أتمضــــــــــي ولا موعِـــــــــدُ

ويُضْـــــــــني السُّـــــــــهاد

جُفُـــــوني... وأنـــــت قريـــــبْ!

وإمَّـــــــا دعـــــــاني الغـــــدُ

وســـــــاءل عنـــــكَ الفـــــؤادْ

فمـــــــــــاذا أجيـــــــــــب؟

ومثل هذا كثير في ثنايا الديوان، الأمر الذي يشير إلى تمكُّن هذا الشاعر من ناصية قصيدته، وإلى رصانته ورزانته، وفُتُوَّة شاعريته. بل أكثرُ من ذلك، إلى اعتزازه الذي لا يخفى، برقيٍّ قصيدته.

أكتفي بهذا القدر من الكلام على الشكل الشعري لأنتقل إلى اللغة.. والشعر أولاً وآخراً لغة، كان بودِّي لو أُعطي ما أستطيع من النماذج لذا سأكتفي بالاستناد إلى ما سبق وذكرنا أيضاً.. وهنا أُشير أوَّل ما أُشير إلى ما تميَّزت به لغة الشاعر من بساطة وعفوية وانسياب.. لكنَّ كل ذلك ما هو إلاَّ خداع خارجي، حيث تُخفي هذه البساطة والعفوية ما تُخفي من وقع وهدير داخليين.. تأتيك فصاحة عاطف كرم شبه عارية وربما عارية تماماً.. وهذا الغنى اللغوي ــ ولا أقول التَّرف ــ والذي لا يحدّ، ولا يمكن الإحاطة به ما هو إلاَّ مؤشِّر أساسي على شاعرية الشاعر، أيِّ شاعر.. تأسرك لغة عاطف كرم. تغويك وتخادعك حتى تظنّها أسهلَ من السَّهل.. وحتى توقعك في شَرْكِ الادِّعاء والقدرة على الإتيان بأفضل منها.. لكنَّ مَنْ يحاول لا بدَّ وأن يتذكَّر كلام ابن المقفَّع على البلاغة حين قال: "البلاغة هي الكلام الذي إذا سمعه الجاهل ظنَّ أنَّه يُحسِن مثله".

وحين نتكلَّم على اللغة، لا بدَّ من التطرُّق إلى فنيَّة الشاعر في عمله، وأوّل ما يسترعي الانتباه ذلك الدفقُ الذي لا ينقطع من الصور الراقية والشفَّافة والمبتدَعَة التي تحاكي بألقها، وسحرها البناء اللغوي للنص. صور تنساب وتتلاحق أحياناً كما نهر يجري وأنت تظنّه ساكناً، والتي تتفجَّر أحياناً أخرى محرِّكةً ذلك الصخب الجميل الذي لا تعرف من أين يأتيك. وتمضي الصور على سجيَّتها حتى تكتمل اللوحة الشعرية التي يريدها، لتتحوّل القصيدة على يديه إلى مجموعة لوحات أشبه ما تكون بألوان رسَّام عرف كيف يؤالفها، وينافرها ويوزعها، ليعطينا الصورة التي تأخذ بمجامع قلوبنا. ومَنْ قال: إنَّ الكلمات لا ألوان فيها؟ المشكلة يا سادتي هي أنَّ ألوان الكلمة غائمة في ثناياها، وعلى الشاعر أن يعرف كيف يهتدي إليها، وكيف يتعامل معها، فيزيحَ عنها كلَّ شائبة، ليطلع بها علينا نقيَّة صافية كعين الدِّيك كما يقولون. وانطلاقاً من ذلك نستطيع القول وبكل ثقة، إنَّ شاعرنا قد أحدث في القصيدة الكلاسيكية تحوُّلاً لا يقلُّ جمالاً وتاثيراً عمَّا أحدثه شعراء التفعيلة. فهو وإيَّاهم سواء بسواء، كلاهما عملا من داخل القصيدة الكلاسيكية، ومن رحمها. هم دفعوها ولم يُلغوها، زيَّنوها، ولم يشوِّهوها، حطَّموا كلَّ قيدٍ يكبِّلها، ولم يُغرقوها في متاهات الإنفلات... فبقي النص الشعري محافظاً على أصالته... وأنت لو عُدْتَ إلى معظم قصائده للمست فيها ما أشرت إليه، فلنعد إلى "سكرة، ص35" و "عودة المهاجر، ص66 " و"هنالك في لبنان، ص99 " وغيرها وغيرها... ففي قصيدته "سكرة" يقول:

أنا إنْ شربتَ نَســيتَ كــلّ حقيقتــي   وتَكَسَّــرَتْ ذاتــي علــى أشــباحِ

فـــي خـــاطري أَزَلَ يـــدور كـــأنّني   صَخَبٌ مِــنَ الأَمــواجِ والأريــاحِ

أو مركبٌ يهــوي بـــه جِــنُّ المــدى   فيحطَمُ السَّاري علـــى المـــلاّحِ...

وفي قصيدةٍ "عشتروت" يقول:

ففــــي كَـــلَ أَفْـــقٍ أنــــا جنّـــةَ   وفــــي كَـــلَ قلـــبٍ أنـــا موعِـــدُ

ومــــن كَــــلَ أَســــطورةٍ لفَتَـــةَ   تَدِلّ، ومــن كــلَ عصــرٍ يَــدُ...

وإلى هذا التآلف والتكامل والمساكنة بين فصاحة العبارة الشعرية، وجمال الصورة المواكبة، يُوافيك الأُقْنوم الثالث الذي لا بُدَّ منه حتى يتكامل الإبداع، ألا وهو النغم والإيقاع، حيث تطلُع عليك القصيدة، وكما أشرت سابقاً بصخبها حيناً، وبانسيابها حيناً آخر.. فتقتلعك من مكانك مرَّةً، وتلفُّك بسكونها مرَّةً أخرى.. وأنغامه أشبه ما تكون بغيوم عابرة، تراها تتباعد مرَّة، لتعود وتتكاتف أخرى... إنَّها لعبة الفن من غير ريب! فأنت تُفاجأ بالنَّغم في بناء الكلام، وفي انتظام الجمل، وفي تجاور الحروف، وفي حركاتها وسكناتها، وتآلفها وتنافرها، كما تراه في رقَّة اللفظ، والتكرار المحبَّب، والعطف المتماوج...

وإلى جانب هذا النَّغم الموسيقي الخارجي الثري الذي يتواصل من بداية النص وحتى نهايته من غير ضعف أو وَهْنٍ.. يفاجئك ذلك الإيقاع الداخلي المحموم، الذي لا قيامة للنص الشعري بعيداً منه: هذا الإيقاع الذي يُحدث الرجفة، والرعشة، أو يبعث النَّشوة واليقظة.. فحيناً يُحييك، وحيناً يقتلك، وحيناً يُشجيك، وحيناً يُفرحك... أوليس هذا هو الشعر؟

يقول الشاعر في قصيدته "من لبنان":

أحِـــــنُّ إلـــــى ملعبــــــي

علـــــى ســـــفحنا الأحــــدَبِ

هنالـــــكَ حيـــــث أبـــــي

يشـــــق صـــــدور الجبـــــال

ويُنبِـــــت فيهـــــا الجمـــــال

***

وهنالـــــكَ حيـــــث الهضـــــابْ

تخـــــيطُ بُـــــرودَ الســـــحابْ

فتلبَسُـــــها فـــــي الغيـــــابْ

وتشـــــلحُها فـــــي الصـــــباحْ

علـــــى بركـــــاتِ الرِّيـــــاحْ

وإذا شئتم أيُّها الأعزّاء أن تستمتعوا، وأن تُدركوا سرَّ النَّجاح عند شاعرنا، فعودوا إلى قصيدته "أبي": ص89، لتدركوا عن أيِّ صنفٍ من الشعراء أتحدَّث الآن عبر عاطف كرم.

هذا وباختصارٍ شديد فيما يخص الشكل. أما فيما يعني المضمون فقد أشرت سابقاً إلى أنَّ قصائد الديوان دارت حول محاور ثلاثة أساسية هي:

الوطن، الطبيعة والمرأة. غير أنَّ هذا لا يعني أنَّ الشاعر لم يتطرَّق إلى موضوعات أخرى. فهناك وقفات تأمُّل، كالتأمُّل، والصوفية، والإخوانيات وغيرها...

وأما شعره في الوطن فهو صفحة مفتوحة كانفتاح عقله وقلبه ووجدانه على الوطن والإنسان فيه، فقد تناول الشاعر كل ما يُعلي من شأن وطنه، من تاريخ وأحداث ورجال... فتغنَّى بالأساطير كما في "عشتروت تغنِّي" ص48.. كل هذا من غير أن ينسى الهجرة والمهاجرين كما في "عودة المهاجر" حيث الحنين واللوعة والشوق وانتظار اللحظة.. ومما جاء فيها:

أهِ، يـــا بحـــرُ، لـــو انْ زِدْت اتئـــادا

فلقـــــــــد ذِبنـــــــــا بُعـــــــــادا

ونـهكنـــا الأرض مـــا شـــاءت جهـــادا

فصِـــلِ الـــزَّورق بـــالبرِّ البعيـــدِ

إنَّ فـــي البـــرِّ لظِـــلا لجـــودي...

* * * * *

وكـــأني قـــد لمَحْـــتُ المُنحنـــى

زاحفـــا يـــنفض عنـــه الزَّمنـــا

مُحْـدِقا بـــي... صـــامتا مُسْـتطمنا!

مَـــنْ تــــرى هـــذا؟ حنانيــــك أنـــا

حفنةَ مـــن صـــدر هاتيـــكَ الصُّـــرودِ

أنا حلم الفـــتح فـــي قلـــبِ جـــدودي!

ومثل هذا أيضاً في قصيدته: "لبنان" التي مرَّ ذكرها، وقصيدة، "هنالك في لبنان" المهداة إلى عبد الله لحود. ومنها:

بــــلاديَ مــــن أنمـــلِ الآلهـــات

نســـيجٌ، ومـــن غمـــزة الغانيـــات

تـــرف ببـــالي كمـــا رف عمـــرٌ

غنـــيٌّ الجمـــالِ.. غـــويٌّ الهبـــات

خيـــال الزمـــان أســـاطيرها

ووقـــع خطـــاه بهـــا ذكريـــات

حواشـــي العصـــور ســـنى ريفهـــا

ومن صـــخرها همســـة الكائنـــات...

ومثل ذلك في قصائده: "حنين القرى"، و "بيروت"، و"لبنان الأزل"...

عاطف كرم في وطنيَّاته زخَّات مطر، ودَويٌّ رعد، وَوَمْض برق.. إنِّه السيف القاطع الذي لا يُساوم ولا يرحم، هو صاحب الجبين المرفوع دائماً، وصاحب العزم الذي لا يلين. وهو قوَّة لا يُردُّ جموحها، وعاطفة أنقى من

النَّقاء... إنَّه واحد من الكبار الذين أغوتهم الأرض والتاريخ والإنسان، فأخذوا على عاتقهم تنقية صفحات الوطن من كلِّ ما ألحقه بها السياسيون والطامعون والانتهازيون، والمشعوذون.. وقبل كل هؤلاء أولئك المتمسِّحون بالدِّين فمسخوا الأديان وفصَّلوها على مقاسهم بكلِّ ما فيه من شوائب وشروخ...

وحين يتحدَّث عاطف كرم عن الوطن يجد نفسه في قلب الطبيعة فلبنان والطبيعة وجهان لحقيقة واحدة. ففي لبنان تغوص في الطبيعة، وفي الطبيعة ترى لبنان كما يراه الشاعر، كما يتجلَّى ذلك في قصائده: "اشتياق ــ عودة المهاجر ــ من لبنان...". إنَّها قصائد تحار في أمرها، أين تصنِّفها! فعاطف كرم وفي كلا الحالين العين التي ترصد، والعرق الذي ينبض، والكلمة التي تترنَّم... فتعالَ يا صديقي، لنسمع معاً ما يقول في قصيدته "حنين القرى" حين يُصرِّح مُترنِّماً:

حنانــــك يـــا ضـــيعتي النائيـــه

ســـبقتِ الصَّـــباحَ إلـــى الرَّابيـــه

وزَنَـــر خصْــركِ طــوق الصـــخور

وريـــش الصَّـــنوبر والفاغيـــه(*)

أحُـــنٌّ إلـــى تلكـــمُ الـــداليات

(*) الفاغية: زهر له رائحة طيِّبة.

ونجــــوى الشــــحارير والســــاقيه

إلـــى صـــخرةٍ أعشــبَت مـــن ظـــلالٍ

وأرجوحـــةٍ فـــي الفضـــا حاديـــه...

يتـــوق إلــــى الـــدِّفء والعافيـــه

إلــــى خيمـــةٍ عُلقـــت فـــوق وادٍ

تكـــادُ مِـــنَ الحـــبِّ تطـــوي بِيَـــهْ

وعلى هذا النسق يجري في هذه القصيدة، المطوَّلة التي تُحسُّ وكأنَّه أفرغ فيها كلَّ طاقاته، فتغنَّى وتمايل، ورقص وأنشد وانتشى، وتفاخر وتعالى وأحبَّ وانحنى، ورسم، وفتن وافتتن... إنَّه الصدق أيُّها الأعزاء الذي ليس بعد صفائه صفاء، وليس بعد نقائه نقاء... كلُّ هذا وهو يتحدَّث عن الوطن وعن الطبيعة، فماذا سيقول عاطف كرم في المرأة؟

وهنا بيت القصيد، لأيِّ شاعر نبض قلبه فترجم نبضه شعراً.. إنَّها حوَّاء، التي، وحسب ما يُرْوى، غيَّرت وجه الخليقة في السماء قبل الأرض... إسمعوا معي ما يقوله شاعرنا في حوَّاء:

أنا الناسكُ المحمومُ في لـــذة الهـــوى

وما صَبْوتي إلاكِ والشـــوق والـــذكرُ

ولي كل يـــومٍ فـــي هـــواكِ قصـــيدة

تغنى بها الرُكبـانُ والأنجُـمُ الزُّهْـرُ

وألقى مماتي فـوق صـدرك نعمـةً

يُغصُّ بها الواشي ويحسـدني الـدهرُ

والحقيقة أنّني بعد أن قرأت قصائده الغزلية قلت: لقد كان مُحِقاً حينَ لم يتزوّج.. فحوّاء بالنسبة إليه عالم قائم بذاته فكيف يحصر نفسه في واحدةٍ من زواياه.. إنَّها فلسفة العلاقة بالأنثى التي عبَّر عنها شاعرنا في قصائد كانت من أجمل ما قيل في شعر الغزل.

في قصيدته الرائعة "هنالك في لبنان" المهداة إلى عبدالله لحود يقول في المقطع الخامس تحت عنوان "المناجاة":

حبيبـي سـقيْتكَ مـن جـانبيّ

فبـرِّدْ جراحـي، ورُدَّ علـيّ...

لـئن أنـت غبـت، وغبـت أنـا

فمَـنْ يفـرش النهـرَ بالياسـمينْ

ويهمـي رجـاءً علـى العاشـقينْ؟!

وإن أقفـرَت مـن هوانـا الـدروبُ

بمـاذا تنـاجي الـورودَ الطيـوبُ

ومـاذا يغنـي الحبيـبَ الحبيـبُ

وكيـــف تحِـــسُّ الجمـــال القلـــوبُ

فقَـــمْ يـــا حبيبـــي، كفـــاكَ غِـــوى

نعلمْ عطاشـــى الهـــوى مـــا الهـــوى

أحِسُّـــكَ تغـــرف مـــن مَبْسَـــمي

فتنشـــق روحـــي، وتلظـــي دمـــي!

نغـــيم... وفـــي أضـــلعي ترتمـــي

وأطويـــكَ جمـــرا علـــى معصـــمي...

فأنَّى لشاعر يقول مثل هذا الكلام أن يضع قلبه بين يدي امرأة واحدة مهما بلغت من الرقي والجمال. إنَّه يتحدث عن المرأة المثال التي يرى كلَّ جزءٍ منها في واحدة من اللواتي تَغَزّل بهنّ. في هؤلاء الجميلات توزَّعت جميلتُه، وفيها اجتمعن كلُّهنَّ.. وهو المجزَّأ حيناً، والكلّي حيناً آخر.. إنَّ قلباً ينبض بهذه الحدَّة والرقَّة، وعاطفة تفيض على هذا الشكل، وعينا ثاقبة لا يفوتها وَمْضُ الجمال إنَّ هذه الجوارح كلُّها لا يمكن أن تجد ضالّتها إلاَّ في الحقيقة الكلية، من هنا وكما أفهم حبُّ الشاعر لربِّه ولوطنه ولأرضه ولأخيه الإنسان، وحبّه أيضاً لنفسه.. إنَّه فيض حوّاء على نفسه وروحه وقلبه وعقله ومن هنا تصبح حوَّاء الموحية والملهمة.. وتكون حاضرة حيثما حلّ.. وفي أيِّ كلام يتفوَّه به.

وما أروع قوله في قصيدته: "السَّكْرة الصَّاحية".

تَرى أنتِ حُلْمٌ؟ تَرَى أنـــتِ وهْــمٌ؟ أمَ انَــــكِ بــــي خَلْجـــةَ غافيــــهْ
وسرٌّ جَـرَى فـــي خلايـــا دمـــي يعـــيش كمـــا الله فـــي ذاتيــــه!
أَحِسُّـــكِ لونـــاَ، أَحِسُّـــكِ وهْجـــاَ يُكَحِّـــــلَ بـــــالنّورِ أجْفانيــــــه...
أَحِسُّـــكِ كـــلّ الزمــــانِ... فأنـــتِ غنائي وأنتِ الــرؤى النائيـــه!...
وأهواكِ يكســـوكِ زهْــرُ الجمـــالِ وأهـــواكِ حافيـــةَ.. عاريـــهْ...

فعاطف كرم هائم على صدور العذارى، يطوف حولهنّ طواف من جاء يتطهَّر من آثامه. وفي كلامه عليهن، تجد كلُّ عذراء ذاتها فيه.. أأقول: إنَّ انشغاله بهنَّ أنساهُ شيئاً اسمه "زواج".

وأختم كلامي على حضور حوّاء في حياة وشعر عاطف كرم، بالإشارة إلى قصيدته "ذكرتك" ص158. هذه القصيدة اللوحة التي يتماوج فيها جمالان: جمال حوَّاء وجمال الطبيعة".. وكم أتمنى على حضرتكم لو تعودون إليها لتغرفوا منها ما تغرفون.

وقفــــــات:

في وقفةٍ أولى، وللأمانة فقط، وحتى لا يُقال: "إنَّه منحازٌ"، والحقيقة أنا كذلك.. لا بدَّ من الإشارة إلى بعض مواطن الضعف والركاكة التي نلحظها هنا وهناك.. كما في قصيدة "بين عينيك والنجوم" ص45، حيث نشعر وكأنَّ الشاعر مُتْعَب لغوياً وفنياً.. فنراه يلهث خلف البناء الجميل والمعنى الجديد، والصورة اللافتة، لكن قدراته لا تسعفه، إنَّه، وببساطة، ينظم في لحظة غير

مؤاتية لا نفسياً ولا شعورياً.. وأستطيع أن أقول أيضاً، إنه وفي مثل هذه المواقف يكابر على نفسه. وهذه مواقف يعرفها كلّ من تعامل مع الشعر.. وكأنَّ في ذلك، المقياس الحقيقي بين الدفق الشعري الصادق والنظم الكلاسيكي المتعثِّر.

يبدأ عاطف كرم قصيدته "عبدتُكِ" ص76 بقوله:

عبـــدتكِ، قـــولي متـــى نلتقـــي

وننهَـــلَ مـــن عمرنـــا مـــا بقـــي

ســـــماح يطـــــوف بأحلامنـــــا

وعهـــدٌ عتيـــقٌ وشـــوقٌ نقـــي

وحــــبٌّ تملّـــكَ كـــلّ الحيـــاة

كـــأني لغيـــركِ لـــم أخلَـــق

وهو كلام يذكِّرنا ببدايات أي شاعر لم تنضج تجربته بعد، ولا أدري ما إذا كانت من بداياته، خصوصاً وأنَّه نادراً ما أرَّخ لقصائده.. وقُلْ مثل ذلك في قوله في قصيدة "عرس صديق" المهداة إلى رشدي معلوف".

لـــكَ مـــن غـــدِ الـــدنيا ومنـــي

مـــا للحيـــاة مـــن التمنـــي

عـــرسٌ أحـــبٌّ إلـــى الخمائـــلِ

مـــــن ولادة ألـــــفِ غصْـــــنِ

أولَســـت مـــن أنغـــامِ لبنـــانَ

ومــــــن عَبَـــــقٍ وفــــــنٍّ؟

عتـــــب الربيــــعُ إذا أنـــــا

فـــي يـــومِ عُرسِـــكَ لـــم أغـــنِّ

ولنسمعه في رثائه لفؤاد سليمان في قصيدة "تموز" ص137، حيث يقول:

زحفـــت إلـــى مثـــواكَ حـــرَّانَ باكيـــا

ولـــو أننـــي أنصـــفت زُرتـــكَ حافيـــا

أعفـــرُ وجهـــي بـــالترابِ وبالحصـــى

وألطمُ حتى يُتلـــف الـــدمعُ حاليـــا...

أأبكي؟ ومَنْ أبكي؟ وهل يصدق النبـــا؟

ومَن لاشتياقي يا فـــؤاد، ومـــن ليـــا؟

ومَنْ لليتامى الزغب في ميعة الصـــبا

وللقلم المعطـــار يســـقي الزواهيـــا...

أبياتٌ تشعرك ببرودة المعاني، وسطحيتها من ناحية، وتضعك أمام صورة امرأة تندب حبيباً لها...

وهذا لا يعني الانتقاص من شاعرية عاطف كرم. لكنَّها هَنَاتٌ نجدها عند كلِّ كبير. وهي لا تكون لافتة إلاَّ إذا وردت بين روائع تُدهش. إنَّها أشبه ما تكون بنبتة بريَّة شائكة تسللت إلى روضة تميس بورودها وأزهارها..

أما الوقفة الثانية فهي عند تأثُّر الشاعر بغيره؛ وهي قضية كان لها نصيبها الكبير من البحث والنقاش قديماً وحديثاً.. وهي أمرٌ مشروع وطبيعي.. وخصوصاً في بدايات كلِّ شاعر.. وعلى الأخصّ إذا كان هذا التأثُّر مرتبطاً بشعراء أحبهم الشاعر وتعلَّق بهم شعراً وصداقة.. وهنا نرى أنَّ شاعرنا كان قريباً جداً في بعض قصائده من الشاعر بشارة الخوري في قصيدة "الرسول"ص30، والياس أبو شبكة "كنا هنا" ص128، وسعيد عقل في "السكرة الصاحية" ص132... وهنا أيضاً اعود وأقول: هنيئاً له إذا كان قد نهل العسل المصفَّى من أعمال الكبار، ليصبح هو أيضاً كبيراً كبيراً.. ولكَم كان شامخاً في ديوانه عبر قصائده الرائعة التي حلَّق فيها بجناحين لا يعرفان لا الضعف، ولا الوهن من مثل: "سكرة" ص35، و"نداء البقاء" ص39، و"عشتروت تغنِّي" ص48، و"عودة مهاجر" ص66، و" أبي" ص89، وهي من أروع ما كتب، و"بخبوخ.. زمزم" ص144.

وأما الوقفة الثالثة فمع علاقة شاعرنا بالحياة.. وأول ما يشدنا في هذا المجال، هذه الوقفة الواضحة أمام حبِّ الحياة والعبِّ منها، فالعمر قصير وإن طال، والأيام لا ترحم..

أنا مَنْ أنا؟ مَنْ أنت؟ ما هذا الــورى؟

مـــا نغمـــةَ الأحـــزانِ والأتـــراحِ

قمْ ننفضِ الدنيا، فــلا يبقــى ســوى

تـــرنيحِ سُـــمَّارٍ، وهـــزٍّ رَدَاحِ!...

إنْ كنتَ من دنيــايَ فــانعم سـكرتي

واغرف حنينــي واتشــحْ بوشــاحي

واســكبْ براحِــكَ أدمعــي حتَــى إذا

مــا دقَ راحُــكَ يــا حبيــبُ براحــي

هتفـــت بعينِـــكَ لـــذَةَ وبأضـــلعي

نغـــمٌ، وطـــابَ تعـــانقَ الأرواح

هكذا يرى شاعرنا الحياة، وخصوصاً علاقته بالآخر. إنَّها علاقة ودّ وصفاء وتفانٍ حتى الذوبان.. هو لا يريد أن يرى في الحياة إلاَّ جمالها.. وكم هو جميلٌ قوله:

أنـــا لـــو تـــدرين روضٌ ظـــامئ

كـــل مـــا فيـــه اشـــتياق وضـــنا

فاســـكني عمـــريَ يـــا لألاءة..

أنـــا لـــولاكِ بقيَّـــات أنـــا!...

ولأنَّه كان يرى الحياة ضيِّقة، وعابرة، وزائلة أقبل عليها إقبال الخائف من تقلُّباتها، وظلَّ يشعر أنَّه غريبٌ فيها، يقول في قصيدته " على المنحنى" ص112.

ألــــــــمْ يكفِنــــــــا أننــــــــا

غريبــــــــان عمَّــــــــا هُنــــــــا

وأنَّ علــــــــى رَحْبهــــــــا

الحيــــــــاة تضــــــــيق بنــــــــا!

وتكتمنــــــــي زورة

وتتركنــــــــي مُوهنــــــــا

أوزِّعُ مــــــــن مُهجتــــــــي...

فــــــــأنى التفــــــــت أنــــــــا...

وهذا التعلُّق بالحياة والخوف من مقاديرها جعله يفرُّ من الذكريات، وكأنَّه لا يريد أن يعكس إلاَّ يومه، وكأنَّ كل يوم جديد هو بداية هذه الحياة.. ولعلَّ هذا السبب الرئيس في مسحة الحزن التي لا تكاد تفارق شعره. والسبب الرئيس في تلك الوقفات الوجدانية التأملية التي تتنامى حتى تراه "يشطح" أحياناً على غرار المتصوِّفين كما في قصيدته "أبي" التي أشرنا إليها حيث يقول:

يا لهـــا لهفـــة تغــور عـــن الحـــسِّ

وتنـــأى عـــن مســـمع الأصـــداءِ

مُـــبهَمٌ وَقعُهـــا... فصـــمت الليـــالي

مـــن مـــداها، وغفـــوة الأشـــياءِ!

أترانـــا مثـــل الفـــراش حواليـــكَ

قلوبـــا فـــي نشـــوةِ الإغمـــاء؟!

وجميل قوله في "عشتروت تغنِّي" ص48:

لـــذاتي أغنـــي ولـــي أنشـــد

قصـــائدَ مثلـــي أنـــا تخلـــد

وأعبُدُ نفســي وهــل فــي الوجــودِ

جميـــل كنفســـي؟ فمَـــنْ أعبُـــدُ...

كـــأنيَ أقـــربُ ســـرٍّ إلـــيَّ

وشـــيءٌ أنـــا مطلـــق ســـرمدُ!

ويـــا نفـــسُ طيبـــي فكـــل جمـــالٍ

علـــى الأرضِ دونـــكِ مُســـتبعَدُ!

يطول الكلام على عاطف كرم، ويكاد لا ينتهي، لأنَّ القامة فارعة، والمقام عظيم...

فسلام عليك أيها الكبير حيث أنت من ثرى جزين...

سلام عليك في صدقك ووفائك وأخوَّتك، وفي حبِّك ومحبَّتك وتجلِّيكَ

سلام عليك في حزنك وقلقك وسجودك للجمال وحرصك عليه من العيون الجائعة.

سلام عليك في كلِّ ما كتبت، من الوطن إلى الأرض إلى التاريخ إلى الحياة إلى حوَّاء...فرمَّزت وتصوَّفت وتهالكت... وكنت في كلِّ ذلك صريحاً صريحاً.

كبيراً كنت حين لم تتزلَّف ولم تتملَّق ولم تعتلِ المنابر لاستغلال مناسبة، فبقي شعرك شاهداً على قدرك وأنت ميت، وآخرون مات شعرهم وهم أحياء.

هذا هو الشعر الذي تُباهي به الأيام، وتفاخر به السنون.. لذا ستبقى واحدة من نجوم سمائنا التي لن يخبو نورها.

ـــــــــ نــدوة صــور ـــــــــ

- المكان: منتدى صور الثقافي

<u>الشـــعراء:</u>

- الشاعر محمد رضا شرف الدين
- الشاعر موســـى الزين شـــرارة

<u>المحاضرون:</u>

- أ.حســـين شرف الديـــن
- أ.إحســـــان شـــــرارة

الشاعر الراحل

السيد محمد رضا شرف الدين

1909 ـ 1970

بقلم: السيد حسين شرف الدين

(كاتـــب وباحـــث)

يبرق الطماح في عينيه, يزحم الدنيا بمنكبيه، فإذا تزاحمت عليه، فصدره المتصدي رهاناً مع التحدي.

تقلَّب في المناصب، وكأنما على جمر، فمذ دخل الحياة العامة، بعيداً عن الحياة النجفية، تولى مهمات متعددة، وما كان منها ما يرضي شوقه للعطاء.

أصدر مجلة (الديوان)، وقد أرادها ركنه الأفيح، حيث تعرش الكروم ويهمي النضار، قوضت فيها الجنبات. فالغنى في مادتي الفكر والأدب، لا يخرجهما على الناس ما لم تعمر مادة المحفظة والرصيد المصرفي.

إن عالج فالقرار والعزم، وان تذكر فالزواهي والنواضر، وان تلطف فالرقة والعذوبة وإن حدب فدفق حب وغمر تحنان.

كان مع شقيقه (السيد صدر الدين) توأمي روح، ورفيقي حياة، وكانت المجالس الإجتماعية والأدبية العراقية تتأكد نكهتها بوجود الشقيقين لتنوع طاقاتهما، أحدهما شاعر والآخر أديب، وكلاهما مفكر، وخائض في السياسة، وعلى اتصال بالأشخاص والأحداث، واطّلاع على خبايا ومنعطفات.

السيد محمد رضا شرف الدين الشقيق الثاني لأبي، يملأ مني العقل والقلب والعين، هكذا كان منذ الطفولة، كبر وكبرت الصورة على الزمن.

وكما عاشا معا (محمد رضا وصدر الدين) فارقا الدنيا معاً، وكان أخر عمل فني لشاعرنا قصيدة رثاء لشقيقه وبعدها ببضعة أيام انتابه عارض قلبي، وأقيمت ذكرى أسبوع شاعرنا مشتركاً مع ذكرى أربعين شقيقه.

رزنامة سنواته ــ رحمه الله ــ تختصر نيفاً وستين عاماً من التسابق مع المطامح:

1923 ــ التحق بالحوزة العلمية في النجف الأشرف، بعد أن تجهز بمقدمات الدراسة على المقدس والده الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين.

1934 ــ أصدر مسرحيته الشعرية (الحسين) وهي باكورة إنتاجه الفني، ونظم مسرحية شعرية أخرى بعنوان (قيس ولبنى) وكان لا يزال في الحوزة العلمية.

1935 ــ انتقل إلى بغداد وأصدر مجلة (الديوان) فخرج منها خمسة أجزاء ثم أوقفته المادة عن إتمام المسير.

1936ـــ هاجر إلى السنغال ولم يطل به المقام فعاد إلى العراق، وأعاد إصدار (الديوان) ولكنها لم تقو على الإستمرار أيضاً.

1939 ـــ عين ملاحظاً لديوان رئاسة مجلس الأعيان.

1947ـــ نقل إلى وزارة الخارجية بوظيفة ملحق صحفي في المفوضية العراقية بدمشق ثم طهران ثم جدة.

1950ـــ أقصي عن الوظيفة بعد إسقاط الجنسية العراقية عن شقيقه، واعتباره كشقيقه معارضاً للنظام الملكي.

1952ـــ أعيد إلى الوظيفة ملاحظاً للحسابات في مديرية البلديات، ومنها أعيرت خدماته في أوائل الستينات إلى الجامعة المغربية لمدة سنتين ثم الملحقية الثقافية في المغرب ومنها إلى بيروت، حيث عمل في الملحقية العراقية.

وأثناء وجوده في بيروت أوقف عن العمل أيضاً وأحيل للتحقيق على أنه يعمل مع جماعة الملكية ضد النظام (الثوري)..؟؟

أيامه متنوعة، وكذلك قصائده، ولا تقوم العجالة بحصرها.

أكتفي بما قدمت من وصف هو تصوير لنفسية السيد محمد رضا بما فيها من نبض عاطفي في جانب هام منه تشاؤم يعبر فيه عن نفسه بهذه الأبيات:

تلك الأماني ما بكـرتَ لنيلـــها إلا لأشـرِبها طـلاً مسكـوبـاً

فتشت عنها في الربيـع فنلتـــها ورداً تسـاقط في يـديَّ خضيبـاً

واجتزته للصيف أبغيهـا جنــــىً رطباً, فنلتَ بها القضا المشبوبـا

أفأرتجيها في الخريــف مناحـــــةَ أفأرتجيها فـــي الشـــتاء نحيـــبا؟

وطفقتَ أسأل صاحبيَّ عن التـــي فتّشـــت عنـــها مشـــرقاَ ومغيبـــا

وإذا بـــها دوامـــة فـــي هـــامتي قـــد أفقـــدتني ســـامعاَ ومجيبـــاَ

مدينـــة الشـــعر

ولنتعرف على شاعرنا، فعلينا عودة إلى المحيط الثقافي والإجتماعي الذي انضم إليه وهو في الثالثة عشرة، وكان أخوه صدر الدين في الحادية عشرة.

مدينة النجف أساساً مدينة بحث وتحقيق وقراءة، وقد فتحت أبوابها منذ العقود الأولى من القرن العشرين للصحف المصرية والسورية واللبنانية، ومجلة العرفان بالذات كانت تصلها بانتظام وتصل محافظات عدة من العراق، إلى جانب أن النجف كانت تصدر صحفاً باللغات العربية والفارسية والتركية من أواخر القرن التاسع عشر، وكانت على اطلاع كامل على الحركة الفكرية والأدبية، ومع ذلك، فالطابع الرئيس للنجف هو الإنغلاق والحيطة الشديدة، ولكن التنوع في الطلبة الوافدين من مواطن الشيعة أوجد بعض الدوائر المتحرِّكة في الركود العام.

الإنغلاق النجفي فتح باب قرض الشعر واسعاً فكان المتنفس الجماعي، إذ ليس لهم سواه في مدينة تنعدم فيها كل وسائل الترفيه، ولذلك كانت البيوت والمدارس ــ مراكز التقاء الطلبة من الوافدين ــ ميداناً لقرض الشعر والتداول بالشأن العام.

إذاً، المجتمع النجفي يتنفس شعراً في ليل النجف، ومع هذا الليل كانت الحياة النجفية ذات ألوان، من أقلام مختلفة الأوطان بوحدة التوجه في أن ينهلوا من معينها بعيداً عما فيها من تراكمات احتشدت على مدى ألف عام، منذ أنشأ حوزتها الشيخ الطوسي بما يتناسب مع عصره، فاستقرت فيها تقاليد، وحمل إليها الوافدون تقاليد كانت كلها تترك آثارها في الثقافة النجفية، إذ يتوافد على النجف طلبة من مختلف أقطار العالم الشيعي، يلتقي العراقي الآتي من هنا وهناك في العراق، مع اللبناني والكويتي والأحسائي والبحراني والإيراني والهندي والأفغاني والقطيفي والأهوازي، وكل جانب من هؤلاء يترك فيها صبغة.

وهذا **أول الأسباب** التي تغطي على رتابة الحياة النجفية، وبالخصوص أن مع الوافدين عائلاتهم إذ يطغون بأعدادهم على النجفي الأصل.

السبب الثاني: أن هذه المجموعات الوافدة تلتقي كجماعات خلال العطل على شاطئ الفرات في الكوفة التي تبعد عن النجف بضعة أميال، فتأتلف الجماعات المختلفة ويتم تواصل يقرب ما بينهم ويمازج ثقافاتهم.

السبب الثالث: الشعر هو الأكثر إستيعاباً للجماعات الوافدة، وهو الأكثر ممارسة بالإستفادة من المناسبات الدينية والمناسبات الإجتماعية والأدبية، حيث يستفيد منها كل من يرغب أن يخرج على الناس شاعراً.

معارك شعرية

المناسبات الدينية والإجتماعية من أعراس ومراثٍ لكثرتها ولتنوع المحتشدين فيها، أوجدت تنوعاً في الفن الشعري. ودائماً لا بد من لفتة خاصة

إلى من أقام الحفل ببضعة أبيات مديح، وربما تكون هي الغرض الدافع للشاعر بالمشاركة، حتى إذا صار واحداً من شعراء (البلاط)، فهو لا يكتفي بالمديح لصاحب البلاط، بل يتحول بعد المديح إلى الهجوم على الخصوم، ليصبح الشاعر الخاص للبلاط وتبدأ المعارك الشعرية. فكل رجل بلاط له شعراؤه. وكثافة المناسبات لفتت رجالات نجفية إلى الإستفادة منها وجاهة أو سياسة، كما استفاد منها الشعراء لإثبات وجودهم.

شاعرنا والمعركة

أما شاعرنا فقد تنحى عن هذه المهاترات ودخل معركة واحدة، معركة من نوع مختلف، إنها معركة فنون الأدب الشعرية والنثرية، فقد نشر أخوه السيد صدر الدين مقالة يؤكد فيها قدرة النثر على تناول الأغراض الشعرية بما يوازي الشعر صورة وعبارة وجمالاً وإبداعاً، وكأنه بهذا قد زنّ على كل (أعشاش الدبابير). حينها وبمناسبة عرس ابن عمه وقف شاعرنا السيد محمد رضا يبدي رأيه بموشح بعنوان (الشاعر) وقد غمز من الناثر صدر الدين, بمقطوعة.

وله الحق بأن يدافع عن الشعر، من أي محاولة اختراق أسواره، وفي إحدى الاحتفالات بعرس ابن عمه يقول:

وإذا مــا المــرء بـــــه حلّــــى   منـــه نفســاَ، أعلــــى نفسَـــــهْ

فعلــــى الإحســــــاس بــــــه ولاّ   وكـــذاك الشعــر حكــى حســــهْ

وبــرقـــــة عـــــاطفة جلّــــــى ... مـــا النثـــر؟ ومـــن يلقـــى قِسَّـــهْ؟

صِفّ لي يا نـــاثر ذي الـــــدُّررا ... أو صِفّ (نوراَ) أو صِفّ عُرسَـــــهْ

عـــرس "للنـــور" فتـــى العليـــا ... حيــــي عرســـاَ بعـــث البشـــرا

بشــــرى عمَّـــت رحـــب الـــدنيا ... عظمت ذكـــرى، جلّـــت قـــدرا...

ولا أظنه قد قال غير هذا علناً، فهو إن خالف أخاه، فلن يكون واجهة استغلال الآخرين، وبالخصوص أن الأمر خرج من حدود المعركة الأدبية، إلى النيل والتشهير والشتائم تعرض لها السيد صدر الدين، كما أن أدباء دافعوا عنه، إلى جانب أنه لا يعجز عن حماية جبهته.

إشكالات المنهج

جماعة من طلبة النجف، لبنانيين وعراقيين، تململوا من إحساسهم بتقليدية المناهج ورغبوا بإيجاد أسلوب في الجامعة النجفية ومقرراتها، تلبي حاجة بإدخال بعض المفردات المعاصرة في منهجها، وبأخذها بأسباب التطور في إدارة شؤونها بما تقتضيه النقلة إلى العصر الذي يعيشون. هذا ما كانت تنزع إليه نفوس طلبة في هذه الجامعة وأساتذتها، ولما لم يكن من شيء اتخذ كل منهم مساراً خارج الحوزة. شاعرنا وأخوه السيد صدر الدين وحسين مروة وأحمد مغنية ومحمد شرارة تخلوا عن متابعة الدراسة الحوزوية واتجهوا إلى الوظيفة وكان معهم زملاء استمروا.

كما أن قسماً من العراقيين ذهبوا إلى القاهرة للإلتحاق بدار العلوم، وهي أشهر كلية لدراسة اللغة العربية وآدابها حينذاك، وكان اللبناني الوحيد بينهم عبد الرضا صادق.

محـــاور

خلال فترة التململ كان الطلاب الوافدون يلتقون في مجموعات يخبرنا عنها الشاعر السيد مصطفى جمال الدين بالقول: (وقد كنت أسمع ــ وأنا طالب صغير ــ عن محاور تتجمع حول طلاب عرب، منهم اللبناني كالسيد صدر الدين شرف الدين أو محمد شرارة ومنهم العراقي ومنهم القطيفي والأهوازي... وأمثال هؤلاء، ممن كان له الأثر البارز في (شلته).

وعلى سبيل المثال أذكر أن المرحوم الدكتور حسين مروة، وهو ذو ميول يسارية، كان طالباً في مدرسة (الخليلي) وقد تجمَّع حوله طلاب، أعرف بعضهم، منهم العراقي والأحسائي والبحراني، وقد طبع أكثرهم بطابع (الشيخ) حسين مروة، وفكره السياسي حتى بعد تفرقهم وعودتهم إلى بلدانهم.

شـــعره

يقول رحمه الله ــ أنه نطق الشعر وهو في الثالثة عشرة من عمره، وهي السنة التي أرسل فيها مع أخيه صدر الدين وابن عمه إلى العراق للدراسة في النجف الأشرف، ومن الطبيعي أن يكون شعره وجدانياً، فيه الحنين المطلق والتوجع من الفراق، ويبدو أن الوجدانيات كانت الطابع العام حتى آخر العمر.

ومن قراءة لحياته وشعره، قد نستشف ميلاً ملحمياً، لإنشغال شاعرنا بأمور الحياة، فما استطال نفسه في الشعر ولا بلغ منٍاه من الحياة، ولم أجده في شعره إلا متضوراً وجعاً، وهو ما لا تحسه في الجلوس إليه، إذ لا يظهر إلا محدثاً مؤنساً بهجاً، وأعتقد أن الذين يعرفون حقيقة الوجع، أفراد قليلون من الذين تواصلوا معه إلى حد الإلتصاق، ولا يبلغون أصابع الكف الواحدة، وقد يبين وجعه أنه من حالات وأشخاص، ولكن تفسيري له أنه لم يحقق شيئاً مما غرسه في نفسه من الطموح، وطموحه أكبر بكثير مما توفِّرُ وسائله.

أما الميل الملحمي، فأبنيه أولاً على ما كان نظمه وهو في النجف طالباً وسماه (السبيكه)وهو مخطوط, يقول الشيخ علي الخاقاني أنه كان نظم منها 300 بيتاً، وخطته في إكمالها أن ينظم تاريخ العرب، ولا أستبعد أن تكون مقطوعاته في ديوانه (أوزان) التي نظمت في مكة والحج والسعي وكذلك المقطوعات حول الثورة المصرية والتأميم والعدوان الثلاثي على مصر والأسلحة الشرقية وأيضاً بعض قصائده من المغربيات بالذات ما يرتبط بشعب (آمازيغ)، إنني لا أستبعد، أو ربما أعتقد أنها فصول من (السبيكة) تخطى بها التسلسل التاريخي وقدمها التقاطاً للحظة، وفي الديوان أيضاً قصائد في أحداث تاريخية مثل الثورة الكبرى، والقصائد المرتبطة بفلسطين وانتفاضات شعبها ووعد بلفور والمقطوعة التي كتبها عند مروره بالشام سنة 1925، وثورة الشعب ضد التقسيم الفرنسي لسوريا، ولا أدري إن كان أدخل هجومه على الحكومات العربية التي وقَّعت اتفاقية الهدنة وعلى الجامعة العربية من ضمن التاريخ العربي في (السبيكة) أم لا.

على كل حال، أحاول الإختصار دون المساس بما أعلم أو يبدو لي، دون أن أختار مقطوعات منه، وأترك لبعض من أبّنه وترجمه يتحدث.

شاعرنا والمرأة

في السيرة لا يجوز إهمال الجانب العاطفي، أو بالأحرى الغرامي في حياة شاعرنا، إذ هو التجسيد للعاطفة.

المرأة في حياة شاعرنا تتمثل بقصيدتين في (ديوانه) وفي كل قصائده وفي أعراس أرحامه، كما في قصيدة الحجاب والسفور، في المماحكات بين ملتزم بالحجاب وداعية إلى السفور، فيدخل ليرفض الإثنين ويبين:

وكلاهما لـــم يفهمـــا مـــن ديننـــا   إلا الهـــوى، وتـــأوّلاَ مـــردوداَ

ويتسلسل بعد هذا مظهراً مواطن حرية المرأة في الدين، ومهمات المرأة في المجتمع.

أما الغرام بالمرأة فهي عشقه منذ طفولته إلى نهاية عمره، أما الخاص ما كان في الطفولة فلابنة عائلة صديقة لبيته، والإبنة كانت من عمره، جميلة يحق له أن يغرم بها، رحمها الله، عرفتها على كبر وعلى تحمل مشاق الغربة والزوج والأولاد، فآمنت بإحساسه الذي يعي قيمة الجمال منذ الطفولة وكان قد جاء صيفاً من العراق, وهي من إفريقيا واتفق أن التقيا، فكانت قصيدته (بعد تسع سنين).

والثانية هي جمانة إبنة الشاعر بدوي الجبل، وبين العائلتين صداقة قديمة، وقد أقام فترة ضيفاً بنية زواج منها لم يتم، ويصف حاله بمقطع قصيدة (غربة) وقصيدة (تطواف) في صفحة /120 من أوزان، إلى أن يحط الرحال مباشرة في ساحة النبطية بجوار منزل المغفور له الشيخ عبد الحسين صادق، ويبدو، ومن حاشية له، أنه لم يحط في الساح الرحال، بل وضع في شهر العسل السلاح، وقد عرض لعروسه كريمة الشيخ كل أموره، وكأنه في شوق إلى الإستقرار .

شـــهادات

محمد علي الخاقاني من زملائه، مؤلف موسوعة (شعراء الغري)، أثبت فيها تراجم وشعر زملائه، ومن عرف من الشعراء في النجف، ومنهم شاعرنا، ومما يقوله: (**هذا موجز لحياة إنسان عرفته منذ أن دخل النجف الأشرف, ولازلت أعرفه معرفة حقه، فقد وهب من حسن السلوك ومماشاة الرجال باليقظة وسرعة الإنتباه ما أفهم الجميع بشرفه ونبله، كما لم يختر الهجوم، أو إقحام نفسه في أمور لا تعنيه، أو لا تعود عليه بخير، وبهذا السلوك المتزن استطاع أن يربح أكثر أصدقائه الذين واصل السعي في الحرص عليهم. عرفت المترجم له معرفة لم تفقدني يوما واحداً حبه واحترامه**).

ثم يقول: (**وعند وقوفي على مجموعة شعره، وجدت فيها ألواناً من يقظة النفس كما وجدت فيها ألواناً من الأدب الوجداني، وتصويره ووصف الغناء العراقي الشعبي والفصيح**).

وقال فيه رفيقه ونسيبه السيد محمد صادق الصدر: **(شاعر مجيد, يطفح شعره بالرقة والعاطفة والشعور، وتطغى نفسه العلوية العالية على شعره، فتبعث فيه قوة ومضاءً ويفيض عليه من قلبه الطاهر الرقة، ما يزيد نقاء وصفاء).**

ويقول: **(وكان يلبي الواجب ولا يتأخر عنه، سواء كان في مواكب الأفراح والأحزان أو في مطارحة الإخوان، أو دفعه إحساس قوي دعا إليه الضمير من دافع وطني أو شعور رحمي).**

يعرض السيد محمد صادق الصدر لنشاط شاعرنا وأخيه وابن عمه خارج أوقات الدرس, إذ يقصدون مجلس آل الصدر عصراً حيث يكون خالهم السيد حسن الصدر وأولاد الخال والخالة من آل الصدر وياسين وهم من أساتذتهم، فيقول: **(فقد كان الطلاب، بحضور هؤلاء الأقطاب، تجري مذاكرتهم بمرأى منهم ومشهد، وقد كانوا يرون من هؤلاء الأعلام كل تشجيع وعناية، مما كان يحفزهم إلى التقدم والسير إلى الأمام).**

ويشير شاعرنا في ديوانه (أوزان) إلى ما يؤكد هذا المعنى، في حاشية رسالة شعرية إلى أخيه الأكبر جواباً على رسالة منه ينصحه فيها الإبقاء على (العلاقة المستجدة) هناك، وكان حينها شاعرنا بمدينة (العمارة) في العراق.

ثم يقول: **(ولا شك أن الفضل يعود في تنمية قدراتهم وملكاتهم وإعدادهم هذا الإعداد، إلى مربيهم وأستاذهم الأول المرحوم السيد محمد علي شرف الدين، الذي كان له الفضل في هذا التوجيه والتقدم)** ويتابع:

(انتقل السيد محمد علي إلى النجف وانتقل معه إخوانه، وهو يشرف على تربيتهم ويسهر على مصلحتهم، ويبذل الوسع في إنتقاء الأساتذة الأكفاء لهم).

وفي حاشية لقصيدة ألقاها شاعرنا في مجلس خاص مع الملك فيصل الأول، ولم يكن فيه سواه وأخيه الأكبر محمد علي وأخيه الأصغر صدر الدين وكان لأخيه الأكبر (والدي) موقع مميز عند الملك فيصل الأول، وكذلك مع مراجع النجف وجمهورها، وأظن في إحضار الأخوين في المجالس الخاصة شكل من أشكال السهر والتربية وبذل الوسع، وربما تهيئتهما لأمر.

من الحفل التأبيني

نختار سطوراً من كلمة الشاعر صلاح الأسير في تأبين الأخوين محمد رضا وصدر الدين: **(عرفتهما في جميع مراحل نضالهما الشاق العسير عنواني كرامة، هذا في شعره، وهذا في نثره, تأتلق الومضة عند محمد رضا، وتتعرى الفكرة عند صدر الدين، وفي الغمرة المضنية تتحول الومضة إلى قصيدة عند الشاعر)** وفيما بين الأخوين يقول: **(وفي الفرق في الواقع وما يحفل به من أضواء وظلال تستوي الفكرة قوية المنطق، مجددة الهدف عند الناثر، ويستمر لقاء الأخوين حتى في الرحيل عن دنيانا، فما أن غاب وجه صدر الدين، حتى لحق به محمد رضا، ليضعا معاً الخاتمة للقصة الرائعة التي عاشاها، والتي من أجلها نحن هنا في هذه الساعة البالية).**

ويقول: **(والشعر عند محمد رضا، صدق في العاطفة، ونفاذ إلى عقل وقلب ووله مستمر بالحكمة، فما نزل بشعره عن مستوى عمالقة الشعر، ونزّه شعره عما لا ينبغي له).**

قصيدة لم تتم

أخر قصيدة له ــ رحمه الله ــ في رثاء أخيه السيد صدر الدين، وسرعان ما اشتد عليه المرض ولم يلبث أن توفي في 14 شباط 1970 من غير أن يتم قصيدته، وكانت ذكراه الأسبوعية في أربعينية أخيه صدر الدين، ومن قصيدته التي لم تتم:

أشــقيق نفســـي

أشقيق نفســي مـــا الدمـــوعْ ... هلّـــت كمـا صبــغَ النجيـــعْ

هبني "متمتمَ" شعـــري البــاكي ... علــــى قلبـــي الوجيـــــع

ليتي بكَ (الخنساء) يا (صــخري) ... ولــــي دمـــــعٌ يطيـــعْ

إذاَ لبــــردَّ مـــن غليلـــي ... مـــا يسلســـله الولـــوعْ

أمـــا الـــذي بـــين الضـــلو ... عِ فـــذاك قلبـــي والصّـــدوعْ

آمـــال نفســـي فـــي الحيـــاة.. وحـدُّهـــا فشـــلَ ذريـــعْ

ســتون مــن عمـــري ولـــي ... فيمـــا يــلي منـــهُ شـــروعْ

أمِلــــتّ تقـــرِّبُ بيننـــــا ــ ببقيّـــــةٍ منــــه ــ رُبــــوعْ

لتعيــش فــي الشــمل الجميــع وحــولـــك انتظـــم الجميـــعْ

هيهــــات يزدهــــر الزمـــــا نُ وعنــــه قـــد جـــفّ الربيـــعْ

مـــا كنـــتَ أحســـب يومـــك الــــداني يصـــحُّ لــــه وقـــوعْ

أيصح ــ يا مــوت ــ الرجــوعْ؟ أواه لــو حصــــل الرجـــوعْ

نفثـــــات

في حفل التأبين للأخوين أكمل القصيدة محسن شرف الدين بلسان علي نجل شاعرنا

خطـــــرت إلـــــى العيـــــن الـــــربوعْ

فجــرت علـــــــى الشـــــوق الضـــــلوعْ

ظمأي تبــرد فــي تمني الوصل ما يذكي الولوعْ

لله كــم شرعت إلــى الترحـــال فانكفأ الشــروعْ

ما بالها تخشـــى الرجوع وكـــل غايتـــها الرجوعْ

أترى تـــوقعت المصاب فهالهـــا كيــف الــــوقوعْ

أســـعت لذكرى العم ــ واعماه ــ هاتيك الجمــوعْ

فتكلم الخطب المبين وأنصت القـــدرُ السميـــعْ

مات الشقيق فدا الشقيق كما قضى الخلق الرفيـعْ

وتعانــق الروحــان في شــملٍ يلفهما الخشــوعْ

نشيــج

في غمرة تلف وطننا العربي، نرى بأن الوجع الشخصي يأتلف الوجع العام، يتداخل الجزئي بالكلي، هذا ما تشكل لوحة فنية بنشيج حبيب صادق أشارككم فيه بزفرة تمازج خاص وعام، الأستاذ حبيب صادق يرثي الشاعر الراحل وهو صهره وشقيق روحه:

"... وبعيد أيام الانهيار السته من حزيران المعره... هالك من أمري تكومي على ذاتي، وانقطاع صلاتي بمعاجم اللغة المحنطه ومنابر الكلام السائب... أما كنا معا على فوهة البركان غضباً وغيظاً ومرارة؟!

كنا سواء في الإيمان بمذهب الصمت الموله، الصمت المسكون بالقضية، المتكبر على مغريات الجهر بنية الإبداع, وبهارج الإفصاح عن صناعة النصر...

على تماثل كنا، مع ذلك هالك من أمري ذلك الحال... وما ذاك منك إلاَّ من إشفاق عليّ، رحمة بي، وأنت من أنت في توقد الوجد، واشتعال العاطفة وبذاخة العطاء...

ويمر عليك حين من الزمن تداخلك فيه الريبة بشأني، أو تكاد، فأخرج عندها من ليل الصمت وأمطرك بحاصب من انفعالاتي المتلهبة، وأتناثر عليك مزقاً تحرق، وأشلاء تدمي، تسحق، واذ تأخذني الخشية عليك من

ثورتي تبادر إلى احتضاني بوداعة عينيك، برقة وجهك، بالسماح المتلألىء على شفتيك، وبالمحبة التي هي أنت...

ثم تسألني بشيء من العتاب على شيء من الملام:

اليس لديك من الهموم غير هذا ؟

أليس لديك هموم تخصك أنت وحدك من دون الناس والعالم.

حسبك احتراق بنابلم «إربد» و«أبو زعيل» كفاك معايشة للموت والهلع المصلوبة عليهما قرانا الأمامية في جنوبنا.

بالله عليك حدثني، عن هم شخصي مرة واحدة...

حدثني....

لبيك يا أبا العلي....

لبيك يا شقيق نفسي...

يا همي الذي احتل، على حين فجأة، تجاويف عظمي وانزرع في شراييني والعروق...

والله ما أخَّرت بوحَ الذات ليومك هذا يا سيدي....

يومك لم يكن في الحسبان، لكأني معك، في جوارك، كنت على أرض الديمومة ثم انشق جدار الزمن وأطل يومك المغيب، ففي يومك هذا ماذا تراني أقول؟!".

مقدمــــة

ديــــوان "أوزان"

للشاعر محمد رضا شرف الدين

بقلم: أ.عبد الأمير سبيتي
(كاتـــب وباحـــث)

(في سبيل إلقاء المزيد من الضوء على حياة الشاعر الراحل السيد محمد رضا شرف الدين رأينا أن نضيف إلى دراسة السيد حسين شرف الدين مقدمة الأستاذ عبد الأمير سبيتي لديوان الشاعر "أوزان" الصادر عن "المجلس الثقافي للبنان الجنوبي" بتاريخ 2001).

تقـــديـــــم

الشاعر صاحب الديوان ينتمي إلى بيتٍ عريق رفيع العماد، فقد وُلد في أسرةٍ علمية يتصل نسبها بالرسول(ص) وأئمة أهل البيت(ع) وقد برز منها، وفي مختلف العصور، علماء أعلام ورجال عظام تركوا بصماتٍ واضحة خلَّدها التاريخ وحفظتها الأيام.

والده المغفور له السيد عبد الحسين شرف الدين، أحد أعلام عصره علماً وعملاً وتأليفاً وجهاداً وبناءً لمؤسسات، ومرجعاً لحلِّ مشكلات، وحاكماً عدلاً في ما يُرجع إليه من خلافات...

وقد كان بيته لا يخلو من مُراجعٍ أو مُستفتٍ أو شاكٍ أو صاحب حاجةٍ أو زائرٍ أو متفقِّد أو ضيف... في ليلٍ أو نهار فالباب مُشرعٌ والديوان مفتوح.

في هذا البيت وُلد شاعرنا، وفي هذه الزحمة الدائمة نشأ، وفي تلك الدوَّامة، من الأمور الحياتية المختلفة والمتصلة، فتح عينيه، وفي ذلك (المقصد) ــ بيت أبيه ــ درج وترعرع يشاهد الكثير منها، ويسمع الكثير من المنازعات والخلافات وتبادل الاتهامات من الأطراف المختلفة والخصوم المتنازعة وإصرار كل فريق على أنَّه هو صاحب الحق حتى ينطق السيِّد بالحكم... وبه ينتهي الجدل ويُزيل الحكم الخلاف. ولعلَّ ما وعاه من هذه

الأمور وما بقي في ذاكرته منها من صوتٍ أو صورة شكَّلت عنده خزيناً ليس بالقليل، غذَّت ذاكرته ووسَّعت أُفقه وأنضجت تجاربه.

في صور ــ المدينة التاريخية العريقة ــ جنوب لبنان ــ وُلد شاعرنا عام 1909م ــ 1327هـ، وهذا يعني أنَّ طفولته الأولى كانت مع بداية الحرب العالمية الأولى، التي أكلت الأخضر واليابس، ولا بدَّ أن يكون قد اكتوى بشكلٍ أو بآخر بما حملته تلك الحرب من ويلات وزرعته من مآسٍ، وعانى ــ تبعاً للعائلة ــ مصاعب التهجير والتشريد والملاحقة والمطاردة، التي كانت تُلاحق والده الذي قاد الكفاح ضد الاحتلال الفرنسي الذي ورث الحكم العثماني، وقد حُكم عليه بالإعدام غيابياً مما اضطره إلى الخروج من البلاد وترك عائلته في مأمنٍ بين أهلٍ ومحبين.

هذه حوادث ووقائع وحالات حين تمرُّ في حياة الطفل تترك في نفسه آثاراً ترافق حياته وتترك عليها بعض البصمات.

إنَّ المقطوعة الأولى التي احتلَّت بداية ديوانه الشعري يعود تاريخها إلى عام 1924 فيكون عمره خمس عشرة سنة حين بدأ النَّظم، ولكنَّه يصرِّح، في الأسطر القليلة التي قدَّم بها الديوان، بأنَّه بدأ النَّظم في سن الثالثة عشرة من عمره، وبهذا تكون المقطوعة التي بدأ بها الديوان هي أول ما بقي محفوظاً من نظمه... فإنَّ حداثة السن والتنقُّل وعدم النضوج الكافي، قد يحول دون الحفاظ على كثيرٍ من الأشياء التي لا يشعر الإنسان بالحاجة إليها إلاَّ بعد فوات الأوان، ولا تُعرف قيمتها إلاَّ بعد فقدها.

الجو الذي عاشه في بداية طفولته كان ضاغطاً، فالحرب العالمية الأولى حصدت من البشر وأزهقت من الأرواح ما لا يعلم عدده إلاَّ الله.. فمن لم يُقتل في الجبهة يموت في الطريق إليها، أو يهلك في المغاور والجبال هرباً منها.. أو بأيدي الجلاوذة الذين يلاحقون كل مواطن يستطيع حمل سلاح أو شبه سلاح.. والبيوت والمزارع والقرى خلت من الشباب أو مَنْ بحُكمهم لأنَّهم كانوا هدفاً للحكَّام، وزبانيتهم يسوقون كلَّ مَنْ له قدرة أو شبه قدرة، ويجتاحون كلَّ شيء يعترض طريقهم، ويسلبون كلَّ شيء تقع عليه أعينهم.. وتقول الحكايات والروايات، التي ينقلها مَنْ عاش تلك الحقبة بأنَّ الخوف والذُّعر الذي استولى على الناس سلب استقرارهم، وزرع الهلع الدائم في نفوسهم، والمجاعة التي اجتاحت البلاد وأصابت الكثير الكثير من الناس، لم تترك كلباً في زقاق ولا هراً في بيت.

إنما الوضع العائلي للشاعر وما يحتله بيته من مكانة في مجتمعه جعلاه في منأى عن الحاجة، وفي حالة يحسن السكوت عليها ولكنَّها حدَّت من القدرة على التصدي لقضاء الحاجات، وسد ثغرات وجبر عثرات، وما يتبع ذلك من واجبات أو ما هو قريب من واجبات.

ثم تضع الحرب أوزارها، وتبدأ الحياة بالعودة إلى الهدوء، ويعود السيِّد ــ والد الشاعر ــ إلى عرينه في صور بعد أن أُلغي حكم الإعدام الصادر بحقِّه ــ ليستأنف مسيرته الجهادية بالتوجيه والإرشاد، وما يستطيعه من بناءٍ لمؤسسة أو حلٍّ لمشكلة أو دفعٍ لشر.

كون شاعرنا ابن هذا البيت وربيب هذه البيئة، فالنَّجف الأشرف ــ المدينة العلمية العريقة ــ هي المكان المفضَّل لدراسته وتوجيهه ورسم مساره.. وقد انتقل إليها مبكراً، إذ أنَّه لم يكن قد تجاوز منتصف العقد الثاني من عمره، وهي سنٌّ مبكرة، ولعلَّ الذي سهَّل عليه هذا الانتقال، وخفَّف عليه وطأة البُعد عن كنف الأبوَّة والأمومة، أنَّه انتقل إلى أكثر من بيتٍ هناك يقوم مقام بيت أبيه، فأخوه الأكبر السيد محمد علي قد سبقه إلى النَّجف وشقيقته قد سبقته بصحبة زوجها إلى هناك، وهذان بيتان يفيان بمقام الأب والأم، إضافة إلى بيوتٍ متعدِّدة لأخواله وأبناء عمومته من آل الصدر الذين غمروا إبنهم القادم للدراسة بالعاطفة والرعاية والحنان.

إذاً، كانت حياته في هذه المرحلة حياةً مريحة، لم يكن فيها مسؤولاً عن أيِّ أمر غير الدراسة، وكان وقته ملكه يقضيه كما يشاء، ممَّا مكَّنه أن يسير بخطىً واسعة في الدرس والتحصيل. والنَّجف الأشرف، إضافة إلى أنَّها مدينة علم تستقبل وتخرِّج أفواجاً إثر أفواج من طلاب العلم والمعرفة وقد خرَّجت وتخرِّج دائماً القمم من العلماء والفقهاء والفلاسفة والشعراء والأدباء المعروفين في العالم العربي والإسلامي وهي، وعلى مختلف العصور قديماً وحديثاً، كانت ولا تزال ترفد مختلف المَواطن بالهُداة والمرشدين ويتوزَّع المتخرجون في مدارسها وحوزاتها ــ وهم من مختلف البلدان والأنحاء العربية والإسلامية ــ في مختلف أماكن التبليغ والهداية. وقد انتظم شاعرنا في مسالك العلم والمعرفة وبدأ مبكراً في الكتابة والنَّظم، وكانت له مشاركات في كثيرٍ من المناسبات والاحتفالات، ولعلَّ سرعة اندماجه في مجتمعه الجديد، كانت نتيجةً مرتقبة، لأنَّه كان يعيش في مجتمع مصغَّر عن هذا

المجتمع مع والده، وبهذا اعتبر نفسه قد انتقل من مرحلة إلى مرحلة في مسار الحياة، وسرعان ما اندمج في مجتمعه الجديد وتفاعل معه وبرز بين لدَّاته، وبدا ذا رايٍ يطرحه في مجلس، أو حوار، ومن فرسان المنبر في مناسبات واحتفالات جمَّة.

الفترة التي عاشها في النجف الأشرف كانت فترة قلقة إلى حدٍّ ما، فالوضع العالمي غير مستقر والتجاذب والخلاف مستمر بين (الحلفاء) المنتصرين، فما أن انتهت الحرب العالمية الأولى قتالاً حتى بدأت حرب اقتسام الغنائم وتنازع الأسلاب.. وبدأ الصراع، المُعلن حيناً والخفيّ حيناً آخر، بين حلفاء الأمس، والتنافس والتسابق للتحكُّم بالآخرين وفرض السيطرة عليهم.

وحالة التشنُّج هذه والسباق لاقتناص المنافع وزيادة الحصص من الغنائم والأسلاب، تنعكس على البلاد المحكومة أو المتصارع على حكمها، فتزرع فيها القلق والحذر وتُنبت الخوف والفزع.. ومع كل ذلك، لا بد أن تنبت فيها بذرة محاولة الخلاص من تلك الوصاية أو الولاية أو التملُّك.. وهذا لا بدّ أن يؤجِّج الصراع مجدداً بين الفرقاء.. وبهذا الصراع العنيف، وبهذا التجاذب الحاد، وبهذا المسار الخطر الواضح النتيجة، برزت بوادر الحرب ثانيةً وبان شررها، ولم تلبث أن اشتعلت.

في هذه الفترة القلقة والحرجة عاش فترة تحصيله في النَّجف الأشرف، وفي هذه الفترة أيضاً رُشِّح لزواج لم ينسجم معه، ومع ذلك حاول أن يُقنع نفسه به وأن يُعايشه.. فعسى ولعلَّ.. وقد وُلد له من هذا الزواج عدة أولاد لم

تُكتب الحياة لواحد منهم أو واحدة منهن، فقد كان الموت يتخطَّفهم في السنة الأولى أو الثانية من العمر. ولكي يضع حداً لتلك الفجائع المتكرِرة لجأ إلى الطلاق.. ثم اختار مصاهرة بيتٍ عريق كريم فتزوِّج كريمة المرحوم المقدَّس الشيخ عبد الحسين صادق، فكانت رفيقة حياة زرعت السعادة في بيته وعوَّضته عمَّا فَقَدَ بما أثلج صدره من بنين وبنات.

في بداية الثلاثينيات ترك النَّجف، بعد أن حزم أمره بأن يكتفي بما وصل إليه من الدرس والعلم، لأنَّه قرَّر أن لا ينخرط في سلك رجال الدين ـــ حسب اصطلاحنا ـــ فكانت بغداد مقرَّه بعد فترة من تركه النَّجف، ورأى أن يلج باب الصحافة، فحصل على امتياز مجلة أدبية أسماها "**الديوان**"، لم يستطع أن يستمرَّ بإصدارها فتوقَّفت بعد صدور عدة أعدادٍ منها رغم المستوى الجيد الذي صدرت به. ثم توجَّه إلى المهجر الأفريقي، فلم يرَ فيه المجال الذي يستطيع السير فيه فعاد إلى العراق، واضطرَّ إلى الدخول في عالم الوظيفة والتقيُّد بقيودها، فكان أن عُيِّن موظفاً في مجلس الأعيان "الشيوخ" حيث بقي بضع سنوات، وكان له في هذه الفترة شيئ من النشاط الأدبي، فنشر في أكثر من صحيفة عراقية، ولكنَّ الأكثر منه كان في صحيفتي "**الساعة**" و"**اليقظة**" البغداديتين. ثم نُقل إلى وزارة الخارجية، فعمل في السفارة العراقية في دمشق وطهران وجدَّة، وفي هذه الفترة جاء توفيق السويدي وزيراً للخارجية، فكان من أول أعماله أو "إنجازاته" أن ألغى وظيفة شاعرنا انتقاماً من أخيه السيد صدر الدين لأنَّه كان من معارضيه!

وأُعيد تعيينه بعدئذٍ، لكن في وزارة الداخلية هذه المرة، ثم نُقل إلى وزارة التربية، ومنها انتُدب للتدريس في المملكة العربية السعودية، ثم عاد إلى وزارة التربية بعد انتهاء مدة الانتداب، ثم أُعيرت خدماته للجامعة المغربية في الرباط ــ المغرب ــ ونُقل، بعد انتهاء مدة إعارة خدماته فيها، إلى الملحقية الثقافية العراقية في الرباط، ثم نُقل بعدها إلى الملحقية الثقافية في بيروت وكانت آخر مراحله في الوظيفة.

وحين قارب الوصول إلى المحطة النهائية من العمل الوظيفي واقترب من سن التقاعد والتحرُّر من العمل الوظيفي، كان له الحتف بالمرصاد فحرمه من لذَّة التحرُّر من الوظيفة ومن أسر العمل الروتيني وقيده، فكانت وفاته في بيروت في 14 شباط 1970.

هذه السطور تُعطي صورة عن الشاعر ــ صاحب الديوان ــ ومحطات من حياته سُجِّلت مُجملة للتعريف به. أما ما احتواه الديوان من الشعر فهو الذي اختاره وأعدَّه للطبع تحت عنوان "**أوزان**"، وقد اختار في ترتيبه التسلسل الزمني للنَّظم فطُبع كما شاء له من ترتيب. وللشاعر مسرحية شعرية تحكي فاجعة كربلاء باسم "**الحسين**" طُبعت سنة 1933. أرجو أن نوفَّق لإعادة طبعها مع مسرحية شعرية أخرى مخطوطة بعنوان "**قيس ولبنى**" قريباً إن شاء الله[1].

---

[1] بادر المجلس الثقافي للبنان الجنوبي إلى إعادة نشر مسرحية "الحسين" ونشر مسرحية "قيس ولبنى" إضافة إلى نشر ديوان "أوزان" ، بيروت 2001.

مع الشاعر الراحل
موســـى الزيــن شـــرارة

بقلم: أ.إحسان شرارة
(مؤلِّف كتاب " موسى الزين شرارة
الشاعر الثائر في محيطه العاملي")

بلهفة العاشق، وفرح المشتاق أتيت اليوم إلى صور، وورائي عقود ستَّة من السنين منها، سنوات ثلاث أمضيتها على مقاعد الدراسة في رحاب الجعفرية، لا تزال مثقلة بنديّ العرفان، وزكي الرعاية، ونُبْلِ المساعدة للطفل الذي كنته يوم شرَّعت أبوابها وحضنتني وأترابي ــ بالإضافة إلى الأجيال التي سبقتنا حين كان العلم رفاهاً، والمدارس احتكاراً، والحرمان طاغياً، والحاجة تُرهق معظم ناس جبل عامل.

لا أزال أذكر بوعي حاد، يوم جيء بي إلى صور، ذلك الرجل المشرق المحيّا، الجميل الطلعة، النافذ النظرات، والحادب برفق، الذي لاحظ قلقي، وراقب اضطرابي، فقرَّبني منه، وأسبغ عليَّ طمأنينةً، ومنحني سلاماً، ورسم لي قدراً، وحدَّد مساراً... تلك كانت حكايتي مع السيد جعفر شرف الدين، ومع رفاقٍ لي، أو مع سلسلة متواصلة ممَّن سبقوني في مبنى الجعفرية

القديم، أو مع من لحقوا بنا وما يزالون في تتابع الأجيال على مدار السنين في الصَّرح الجديد... الجعفرية كانت المنارة النادرة في الزمن الصعب، والواحة الظليلة في الأمداء المقفرة، والماء العذب المتدفِّق الذي ينشده العطاشى المجهدون بحثاً عن الرَّي المنعش.

نحن، أبناء الأجيال السابقة، أبناء المعاناة والحرمان في الزمن القاسي، تلفُّ أعناقنا أطواق عرفان، وتتردَّد في نفوسنا أهازيج وفاء، وتتراءى على وجوهنا ظلال تراتيل، ونجاوى صلاة نكرِّر تلاوتها عند كل نجاح نحقِّقه، أو هدفٍ نبلغه، ونتذكَّر بامتنان اليد الحانية التي حضنتنا صغاراً، وشرَّعت لنا الأبواب واسعةً لمراودة آفاقٍ لم نحلم بالوصول إليها... فللسيد الكبير الإمام شرف الدين ولأبنائه وأحفاده كل التقدير والمحبة، وللمجلس الثقافي للبنان الجنوبي ولمنتدى صور الثقافي أحلى التمنيات بمتابعة الريادة في مسيرة التقدم.

الموضوع الذي أعالجه، يتناول شاعراً أثار كثيراً من الصخب والغبار، وحرَّك مياهاً راكدة وآسنة واستنفر رفاقاً واستفزَّ زعماء وخاصم من حالفهم من العلماء، ووقف بعناد ضد الانتداب وممثليه من رجال السلطة، فلوحق واعتُقل وسُجن وتعرَّض للاغتيال، وأُجبر ــ عند الضرورة ــ على مبارحة الوطن، حيث قضى سنوات عديدة بعيداً عن أسرته وبلده، الذي حمل قضيته بإيمان أعمق، وتصميم أصلب.. وتابع مسيرته بعد عودته رغم الإحباط والصدمات وتخلُّف العديد من رفاق الدرب.

كما أود أن أشير إلى أنَّ تناول مسيرة الشاعر أصبحت من التاريخ، بكل أحداثها وخصوماتها وأطرافها، راجياً إلاَّ نحمِّل اشعاره أكثر مما فرضته

مناسباتها، خاصة أنَّ كل مَنْ تناولتهم هذه المسيرة أصبحوا في غير عالمنا وخاضعين كلّهم لحكم التاريخ.

نظراً لضيق الوقت المحدَّد أساساً لكل منَّا في تناول موضوعه الذي يتطلَّب على الأقل أكثر من مضاعفته، ولئلاَّ نضيع في التفاصيل، أو نبتعد عن الإحاطة بالنقاط التي يقتضي أن يفرضها، أرى من المفيد أن أرسم عناوين، وأضع أطراً من شأنها أن تساعد قدر الإمكان على إيضاح الصورة.

الأمكنة: حواضر معيَّنة من جبل عامل، وعلى الأخص صيدا وصور والنبطية وبنت جبيل وما يحيط بكل منها.

الزمن: مطلع ثلاثينيات القرن المنصرم.

الأحداث وما نتج عنها: الحـــرب العالمية الأولى، الانتداب الفرنسي والإنكليزي، اتفاقيـــة سايكس بيكو، وعد بلفور، تقسيم البلاد العربية، الفتن الداخلية، مؤتمر وادي الحجير، أحداث عين إبل وحملة نيجروأطراف بنت جبيل، إرهاق جبل عامل بالتعويضات وحكمه ــ بعد إفقاره ــ معركة ميسلون وما استتبعها

الواقع الاجتماعي والسياسي: تاريخياً بلاد على هامش الوطن حتى قبل الانتداب بزمن بعيد، المماليك والأتراك والجزَّار وإحراق المكتبات ومطاردة العلماء والزعماء... البـــلاد لم تتقبَّل الواقع الجديد واستمرَّت تطالب بالوحدة مع سوريا.

البلاد متخلِّفة علمياً، المرأة سجينة البيت، الجهل يمتد على مساحة جبل عامل باستثناء مدارس دينية لا ماء ولا كهرباء ولا طرقات تربط بين القرى

ــ البلاد يحكمها مستشار ظالم، يأتمر بمندوب سامٍ متعالٍ ومستبد، والأحزاب غير موجودة، الصحف لا يكاد يسمع بها الناس... ليس للدولة إعلام ولا إذاعة هنـــاك ما يشـــبه الانقطاع مع مركـــز القـــرار... الإطلالة اللافتـــة للعامليين تجلَّت في مجلَّة العرفان التي كانت عنوان جبل عامل في الزمن القاتم، والغذاء الفكري أيام القحط، والرابط المتين بينهم وبين مراجعهم في العراق، والباب المشـــرع على الدين والثقافة والعروبـــة... العرفان كانت زادَ كل بيت والكتـــاب المفتوح على التاريخ، لكأنها صارت ملازمةً لتعاليمهم ومتممةً لمكتباتهم ومعلماً مميزاً لتراثهم..

كانت مساجد جبل عامل وحسينياته أمكنة الاجتماعات والتلاقـــي في المناسبات، ومجال التثقيف والتنوير، فبالإضافـــة إلى تلاوة السِّيرة ومِحَـــن التاريخ ومآســـي الاضطهاد كانت تُلقى فيها باستمرار الأحاديث الدينية والقصائد والخطب وتعرض لما ينتاب المجتمع من أحداث وما يطاوله من حوادث يومية.

من هذا الواقع المكاني والزمني أحاول أن ابدأ مع الشاعر موسى الزين في بيئته وزمانه لتأتي مقاربته موضوعية ونحكم له أو عليه.

والشعر أيها الأخوات والأخوة موهبة موروثة، مثلُه مثل النبع الذي ينبجس من أعماق الأرض ويفتح لنفسه طريقاً ويندفع حيث يطيب له المسيل..! إنَّه موهبة كامنة في النفس تنمو وتتهذَّب وتصقل مع تعمُّق الوعي واتساع التحصيل وإغناء الثقافة، والإنسان غير الموهوب لا يمكن أن يصير

شاعراً مهما يعملْ على نفسه ويحاولْ أن يقلِّد أصحاب المواهب، الشعراء الذين اختصَّهم الله بهذه النعمة ووسَّع عليهم في فلوات عبقر، وخلق لهم نفوساً شفافة، وأحاسيس مرهفة، وخيالات مجنَّحة أصبحوا بالتالي الروَّاد الخالدين الذين يُشار إليهم في كل عصر وزمان.

إلاَّ أنَّ هذه النعمة ربما تغدو نقمةً عندما يقِفُها الشاعر على قضيَّةٍ نبيلةٍ، ومهمةٍ رساليَّة، يدافع بها عن المعذَّبين والمسحوقين والمحرومين، فيرتفع بشعره وبالقضية إلى مستوى لا يُدانيه أو يقاربه إلاَّ المنذورون للجهاد، والسَّاعون وراء المتاعب في مواجهة قوى الظُّلم والظَّلام.

الفقـــر والبـــؤس والآلام تغذيـــة للشاعرين، فعذِّبْ واسمع الغَـــررا

لو لم يُصَبْ بالعمى والفقر صـــاحبُهُمْ أبو العلاءِ لما جلّـــى ولا ابتكـــرا

الشعر كالجوز لا يعطيك مهجتـــه ولا تـــرى قَلْبَـــهُ إلاّ إذا انكســـرا

لن أعرض لمعاناة وعذاب الطفل اليتيم موسى الزين شرارة، ولا لما صادف من مصاعب بعد الكتَّاب والمدرسة الابتدائية التركية التي أُقفلت بسبب الحرب، ولا لنشأته البائسة التي حفرت عميقاً في نفسه، وزادته تصميماً على الكفاح، بل سأواكب خطواته عندما أرسل قصيدته الأولى سنة 1928 إلى مجلة العرفان، فنشرتها، ولا تسل عن مدى سروره عندما علم أنَّ اسمه ورد لأول مرة في مجلَّة، وسمع في الوقت نفسه الأصداء السيِّئة التي خلَّفتها لدى الوجهاء باعتبارها (حكياً على الأوادم) لا يجوز أن يمرَّ دون سؤال وجواب.

كانت القصيدةُ عبارةً عن بيان رقم (واحد) رغم أنَّه لم يُعلنها محليَّةً في بنت جبيل، وأنه عندما أشار إلى الكبار، فإنَّه كان يستهدف الكبار القابضين على زمام الأمور في كل البلاد، الكبار الذين اتَّبعوا سياسة التجهيل، ومنعوا الشباب من التعلُّم وقيَّدوه بأغلال الجهل بدل أن يساعدوه على ارتياد آفاق المعرفة، حيث تبدو مظاهر التقدم واضحةً للعيان في الجو والبحر والبر.

العلـــمُ نـــورٌ يُهتَـــدى بســـنائه — لولاه تـــاهَ الكـــون فـــي ظلّمائـــهِ

فهو الذي اكتشَفَ الحقيقة للورى — وأماطَ غـــامضَ ســـرِّها بجلائـــهِ

عجباً أرى أنـــواره قـــد أشـــرقت — وهدى الأنـــامَ جمـــيعَهم لضـــيائهِ

وأهـــاب فـــيهمْ داعيـــاً فتنبَّهـــوا — ومشَوْا لذود الجهل تحـــت لوائـــهِ

إلاّ بنـــــي قـــــومي إذا أغشــــاهُمُ — في نوره، وثبـــوا إلـــى إطفائـــهِ

والمطفئـــون لـــــه هـــمُ كبراؤنـــا — يا ويحَ هذا الشعب مـــن كبرائـــهِ

منعوه مـــن ورْدِ العلـــوم مخافـــةَ — أن يهتدي للقصـــد بعـــد عمائـــهِ

أتراهُ يرجو الخيرَ مـــن زعمائـــهِ — والشرُّ كلّ الشـــرِّ فـــي زعمائـــهِ

همْ أسلموه إلى المذلّـــة والشـــقا — هـــمْ عـــينُ علّتـــه وأسُّ بلائـــهِ

أرأيت أسوأَ حالـــةٍ مـــن مـــوطنٍ — أبناؤه والـــدهرُ مـــن أعدائـــه!!!

القصيدة الثانية لم تتأخَّرْ عن الأولى، جاءت ضد المتسلطين على الشعب؛ فيها عُنْف قاسٍ غيرُ معهود، وتصعيدٌ قويّ صداميٌ وإيمانٌ لا

يتزحزح، فقد أعلن، انطلاقاً من اسمه، أنه مرسَلٌ لإيقاظ الناس وإنقاذهم وتحريرهم، تماماً كما كان النبي موسى بتوراته وعصاه محرِّراً لشعبه من طغيان الفراعنة، فهو ــ مراعاةً للنظير ــ مُرْسَلٌ قصائدُهُ توراتُه، وعصاهُ الثائرون والكادحون المؤمنون بالقضية:

... قالوا وقد أرَّقتهمْ بقصائدٍ ‏ ‏ ‏ ‏ مشبوبةِ الأبياتِ والكلماتِ

قَلْ ما تشاءُ فلن تَحرِّكَ صخرةَ ‏ ‏ ‏ ‏ أو تَرجعَ الأنفاسَ للأمواتِ

سنظلّ نَدعى ــ رغم كلّ فسادنا ‏ ‏ ‏ ‏ وصَغَارنا بالصِيد والساداتِ

– كونوا فراعنةَ شداداً واحكموا ‏ ‏ ‏ ‏ وتحكّموا وتسلّطوا كطغاةِ

لن تَخنَقوا صوتاً صريحاً ثائراً ‏ ‏ ‏ ‏ موسى أنا... وقصائدي توراتي

والثائرون على التخلّف والشقا ‏ ‏ ‏ ‏ وزنودُ أهلي الكادحين: عصاتي

ومدامعُ الأيتام في جوف الدجى ‏ ‏ ‏ ‏ والأمهاتَ الخائفات دواتي

أنا مُرْسلَ: إيقاظَ أهلي، بَعْثَهُم ‏ ‏ ‏ ‏ تحريرُهم، إنقاذَهم آياتي

وَقّفَ عليهم أو على إيقاظهمْ ‏ ‏ ‏ ‏ شعري وما ملكتَ يدي وحياتي

سأظلّ أصرُخَ ما حييت بسمعهمْ ‏ ‏ ‏ ‏ حتى تَفتَق سَمْعَهُمْ صرَخاتي

وأمزِّق الجلبابَ عن أجرامِهمْ ‏ ‏ ‏ ‏ وأَزيح سحبَ الوهم والغيماتِ!

ألم يكن يوماً للجواهري موقفٌ مماثلٌ وهو يصرخ في وجوه الحكّام:

يتبجَّحــون بــأنَّ موجــاَ طاغيــاَ ســدّوا عليــه منافــذاً ومســاربا

كذبوا فملء فم الزمان قصــائدي أبداَ تَجــوبُ مشــارقاَ ومغاربــا

تســتلّ مــن أظفــارهم وتهــدُّ مــن أقــدارهم وتثــل مجــداَ كاذبــا

أنا حتفَهُمْ أَلِــجُ البيــوتَ علــيهمُ أغري الوليد بقــتلهم والحاجبــا

يقول موسى الزين شرارة.. وهكذا وجدت نفسي في معركة مستمرة متواصلة باتجاهين: الأول الدعوة إلى العلم والتنوير كوسيلةٍ للنهوض والتقدم، والثاني لمحاربة القوى الاجتماعية والسياسية والدينية الرجعية التي ترى العلم كفراً وزندقة، وقد قادني المشوار إلى مجابهات عديدة كان أبرزُها مع رجال الدين الذين حكموا بكفري وسفكوا دمي بعدما نشرتُ قصيدةً عن حال بلادنا.

لا تذكرِ الشرقَ، لا تفخرْ بدولتــهِ ما الشرقَ إلاّ خيالَ في حقيقتــهِ

أيُقنعُ الغربَ هذا بعــدما وطئــتْ أقدامُهُ عُنوةَ من فــوق هامتــهِ

ففيمَ تفخــرُ إنْ رُمْنــا مفــاخرةَ أفي معاملــهِ أم فــي صــناعتهِ

الشرقَ نِضْوٌ نيوبُ الدَّاء تنهشَهُ ورأسُهُ مــن قــديمٍ أسُّ علّتــهِ

داء التعصُّب قِــدماَ كــان آفتَــهُ ولم يزلْ عثرةَ في درب نهضــتهِ

فكيف يبرأ هذا الشرق من ســقَمٍ ومدية الدين تفري في حُشاشتهِ؟

الشيخَ حــوَّل للتفريــق جامعــةَ والقَسُّ يبذَرُ حقداَ فــي كنيســتهِ

لقد كفانـــا تغــنٍ فـــي أوائلكـــمْ　　كأقرعٍ فخرُهُ فـــي شَـــعْرِ خالتـــهِ

وكيفَ يطمعُ أن يقـــوى وقادتَـــهُ　　كمخلبٍ للعِدى في جسم وحدتهِ؟!

وكـــلَ حكَامـــه: صـــوتَ لســـيِّده　　عبـــدٌ لراتبـــه، عبـــدٌ لرتبتـــه!!

فاعتبرت بعض الأبيات كفراً وارتداداً عند البعض من علماء جبل عامل، واستوجبت في نظرهم هدر دم الشاعر للارتداد والكُفر، وأُرسلت القصيدة إلى النجف الأشرف التي كان لها رأيٌ مخالف (خاصة المرجع الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء). والواقع أنَّ معركة التكفير أخذت حجماً أكبرَ من حجمها، ولكنَّها فتحتْ معركةً بين تيارين، كما فتحت المعركةُ السياسية عراكاً بين مدرستين... وتطورت المعركة واتسع نطاقُها بين طلاب العلم في جبل عامل وصولاً إلى النجف (عصبة الأدب العاملي)، وظلَّت العرفان منبراً لكلِّ تجديد، ونشر موسى الزين شرارة قصيدته التي يردُّ فيها على تكفيره وسفك دمه:

قالوا كفرتَ. فقلتَ فـــي أفعـــالكم　　وسخرتَ من تضليل كـــلَ مـــدجِّلِ

يُغري الأنام بِعِمَّةٍ نَســـجت علـــى　　نولِ الريَّـــاءِ لصـــيدِ كـــلَ مغفَـــلِ

كبُرتَ قماشاَ، إنما صَغُرتَ حجـــىً　　فبدتَ كبرجٍ فـــوقَ حبَّـــةِ خـــردلِ

لا يخـــدعنَك مـــا تـــراه تقشَـــفاَ　　منهم، فهـــذي حرفـــةَ المتســـوِّلِ

لو زرتَهُمْ لرأيـــتَ فـــي أبيـــاتهم　　بَـــذْخَ الرشـــيدِ وعـــزَّةَ المتوكَـــلِ

حملوا المسابحَ في أكــفَ طالمــا وقفتْ ســلاحاً للقــويِّ المُبطــلِ
قسماً بِقَدْسِ ترابِها لــو أنطِقَــتْ لتألّمتْ من لَمْــسِ تلــك الأنمُــلِ
قد كنتَ أخشعُ إن رأيــتَ عمامــةَ كخشوع راهبــةٍ أمــام الهيكــلِ
واليومَ إنْ لاحــتْ أفــرُّ أمامهــا ذُعراً، فرارَ طريدةٍ مــن أجــدلِ

في موقف لافت يصعِّد هجومه، لكنه يوضِّح أنَّه لا يقصد توسيع نطاق المعركة وإنما يحصر ويخصِّص:

عجباً لشيخي ما تحــدَّث واعظــاَ إلاّ اســتهلّ بــذمِّ كــلِّ حــريصِ
وتــراهُ ذا نِعَــمٍ ويشــكو فَقْــرَهُ مــتململاً كتململُــلِ الممغــوصِ
فلِــذا ترانــي إنْ رأيــتَ معمَّمــاَ أحكمْتَ خوفاَ منــه زرَّ قميصــي
أهلَ العمــائمِ لا تلومــوا شــاعراً منكمْ يُعــاني لوعــةَ المقــروصِ
عفواً إذا ما ثــرتَ أو أغضــبتكم بالشّرحِ ممــا قلــتَ والتمحــيصِ
لا يحســبنَّ الحــرُّ مــنكم أنّنــي أَعْنيهِ - حاشا- فالكلامُ خصوصي
أنــا عقــربٌ أمــا إذا أصْــلَحْتمُ وصلَحْتَمُ استَغْنَيْتَ عن عقوصــي

إذن الشاعر مؤمن ملتزم، يحترم العلماء الأحرار منهم، ويوجِّه كلامه إلى الفئة التي تخاصمه:

الدِّينُ يبرأ والأخــلاقَ مــن فئــةٍ **تسعى إلى الشرِّ باسم الخَلق والدِّينِ**

الدِّينُ لو كان جسماً ضجَّ من ألــمٍ **أو كان طــوداً رمــاهم بــالبراكين**

لا يخدعنَك منهمْ حَمْــلَ مســبحةٍ **ففي الثقوبِ عشــوشَ للشــياطينِ**

يا مَنْ يصلِّي بــإعلانٍ ليخــدَعَني **ويُظهر الزُّهدَ والتَّقــوى ليُغرينــي**

لو كانتِ الخَلدُ في كَثْرِ الصلاةِ إذاً **ما فازَ فيها سوى رَهْطِ الحــراذينِ**

ما الدِّين صومكَ عن لحمٍ وفاكهةٍ **بل زَجْرُ نَفْسِكَ عن مالِ المســاكينِ**

طهِّر فؤادَكَ من حقدٍ ومن دنَــسٍ **وابْشِرْ غداةَ غدٍ بــالحورِ والعِــينِ**

هناك حِلْفٌ غيرُ مقدَّس وغيرُ مُعلن بين فئةٍ من رجال الدين والزعماء الظالمين، الشاعر يثور على هذه العلاقة المشبوهة، خاصة وأنَّ بسطاء الناس ــ وبتأثير من بعض رجال الدين ــ باتوا يعتقدون من زاوية التديُّن أنَّ الدِّين يمنع التعرُّض للزعماء، ومَنْ يفعلْ ذلك يرتكب خطيئةً كبرى.

حُمــاةَ الــدِّين، إنَّ الــدِّينَ عــدلَ **يعـــادي كــلَ طاغيـــةٍ وجـــائرْ**

عـــلامَ يقـــومُ ثـــائرُكَمْ إذا مـــا **علـــى الطغيـــانِ منّـــا ثـــار ثـــائرْ**

لقد حسِــبَ الســوادُ وقــد رآكَــمْ **لأهــلِ الجَــوْرِ داعيـــةَ وناصـــرْ**

بـــأنَّ ولاءِ أهـــلِ الجـــورِ ديـــنٌ **وأنَّ قتـــالهم إحـــدى الكبـــائرْ**

... إذا مـــالأتَهُمْ ومـــلأتَ مـــنهمْ **جيوبـــاً، أو بطونـــاً كالمقـــابرْ**

فأنــــتَ مقــــدسٌ فَكَـــلِ اليتــــامى وأمــوالَ الربــا واســـرقْ وقـــامرْ

وإمَّـــا رُحْــتَ تـــنقصُ مـــا يُنـــافي الشّـــريعةَ والكتــابَ ومـــا يُغـــايرْ

تنادَوا للـــوغى مـــن كـــلَ حَــدْبٍ وهبُّــوا كالجيــاعِ مِــنَ الكواســـرْ

وسلّوا الـــدِّينَ قرضـــاباً وقـــالوا: أمـــا للـــدِّين مـــن حـــامٍ وناصـــرْ

ويصعِّد هجومه، بشكل هزلي ومؤلم في آن مع الصورة التالية:

قالوا: رأينا الشيخَ يحمـــلَ عـــودةَ وبها يَمُصُّ علـــى الـــدوامِ ويعلِـكُ

لا ســـكَّرٌ فيهـــا ولا عســـلَ إذاَ مـــا بالَـــهُ فـــي حَمْلهـــا متلبِّــكُ

هذي سِواكٌ مـــا اقتناهـــا عابثـــاَ شيخَ عريقَ فـــي الخـــداع مُحنّــكُ

أكلَ اليتيمَ وخشيةَ مِـــنَ أنْ يُـــرى أثــــــرٌ علــــى أســـنانِه يَتَسَـــوَّكُ

سنة 1934 زار نصير المرأة الدكتور جورج باز جبل عامل، فصُدم وأسف لما شاهد من تخلُّف، وكتب مقالاً في جريدة العروبة البيروتية يندِّد بما رآه من أوضاع، وحثَّ على تعليم المرأة وتثقيفها أسوة بنساء بيروت وجبل لبنان، فأرسل له موسى الزين شرارة هذه الأبيات:

لَوْ أنَّ غيرك يا ابنَ الباز خاطَبَنا بمثلِ ما قلـــتَ، قلنـــا ويحَـــهُ كفـــرا

أتيتَ تطلـــبُ تعلـــيم الفتـــاةِ وأنْ ترمي وتنزعَ حُجْبَ الجهـــلِ والأزرا

وتنهلَ العلم أو تَجْنــي كجارتهــا   في المتنِ والشوفِ من جنّاتها الثّمــرا

وتقرضَ الشعر أو تشدو فتسمعنا   منه الروائعَ والآيــاتِ والسُّــورا

هوِّن عليك فمــا لبنــان عاملـــةً   فنحن أكبَرُ من أنْ نَكبــرَ الشّــعرا

ما للفتاةِ ومــا للعلــمِ فــي بلــدٍ   لو أمْكَنَ البَعْضُ فيه حجَّبوا الذَّكرا!

سنة 1934 جرى احتفال في شقراء بمناسبة تخرُّج السيد حسن محسن الأمين في الجامعة السورية من كلية الحقوق، وفي اجتماعٍ لافت للشباب في حينه، وقف شاعرنا يصوِّر وضع جبل عامل السياسي والاجتماعي والثقافي، وانتشار النِّفاق، وسوء الإدارة، والتَّزلف للزعماء ورجال الدين، ونصح الناس ــ بسخرية العارف ــ إذا أرادوا الراحة أن يتزلَّفوا ويكذبوا وينافقوا:

يا حرُّ لا يُزْعِجْكَ نَصــحي إنّنــي   جرَّبتَ قبلَــك والمُجــرِّبُ أخْبَــرُ

إنْحَرْ ضميرَكَ إنّنا فــي مــوطنٍ   من كلَ أبناءِ الضــمائرِ يســخرُ

وطنٌ كما شاءَ الــدَّخيلَ مقسَّــمٌ:   إثنـــانِ: ذا لـــصٌّ وذا مســـتأجَرُ

سَبِّحْ بحمدِ الأقوياءِ وإنْ عتَــوا   وارْقَصْ إذا آلَ الزَّعامَةِ زمَّــروا

واخْشَعْ وطَأْطئْ للعمــائمِ كلَهــا   سِيَّان منها: أبــيضٌ أم أخضــرُ

واحْبِسْ لســانَكَ إنّهــمْ ســاداتَنا   ولوَ انّهم هدموا البلادَ ودمَّــروا

وارْكَعْ لمنْ وَرِثَ الزعامةَ إنّهــمْ   كاللهِ ــ جلَ جلالَــهُ ــ أو أكبــرُ

فالناسُ كلّ الناسِ صلصالٌ وهُـــمْ   ذهبٌ مصـــفّى أو يتـــيمٌ جـــوهرُ

أجـــدادُهُمْ بشـــرٌ ولكـــنْ نخبــةٌ   من غيرِ آدمنا الحقيـــرِ تحـــدَّروا

من لحمنا هذا الذي بقصـــورِهِمْ   فوقَ الخَوانِ،ومن دمانا المسكَرُ!!

إنْ قلتَ <u>أصحابَ الزعامَةِ فالعصا</u>   <u>أو قلتَ أصحابَ العمـــائمِ كفّـــروا</u>

الشاعر يحار بأمره مع الزعماء، فإذا حاول أن يصوِّر ما يراه من ظلمٍ وتعسُّف، أو إذا تعرَّض لمآسي الجهل وما ينتاب البلاد من تخلُّف، يثور عليه الزعماء لأنهم يرون في ذلك تهجُّماً عليهم وتصويراً لهم:

شعري يرى الزُّعَمَا فيرسُمُ ما يرى   فتثورُ ضـــدَّ رســـومِها الزعمـــاءُ

فكأنَّ رسم صفاتها فـــي عـــرفهم   ذمٌّ وتقريـــــعٌ لهـــــم وهجـــــاءُ

فإذا هجـــوتَ الجهـــلَ أو أبنـــاءه   ثـــاروا علـــيَّ كـــأنّهم جهـــلاءُ

أو قمـــتَ يومـــاً نادبـــاً أو باكيـــاً   بلـــــداً تعـــــيشَ بربعـــــه الأرزاءُ

غضـــبوا كـــأنّهُمُ لكـــلِّ رزيَّـــةٍ   نَزَلَـــتْ بنـــا وبأرضـــنا حلفـــاءُ

هؤلاء هم الطبقةُ الحاكمة التي جاء بها الانتداب وساندها وقوَّاها الزعماء أعوانُ السلطة، الفئةُ التي تستغل عرق الكادحين وحاجة المحرومين وترهق الناس وتذلّهم:

يُسْقَى أخو الإقطاعِ رَشّحَ جِباهِهِمْ   بِنْتَ الكـــرومِ ويشـــربونَ وُحُـــولا

ربٌّ وإنْ بـــاعَ اليهـــودَ ديـــارهُمْ	أو بـــاتَ للمســـتعمرينَ عمـــيلا
إنْ داسَ فوقَ الأرض خَرُّوا سُجَّدا	كـــي يوســـعوا أقدامَـــهُ تقبـــيلا
وإذا تكـــــرَّمَ مَـــــرَّةً بزيـــــارةٍ	تلقاهُ فـــوقَ رؤوســـهمْ محمـــولا
تَنْســـيهُمُ مِنْـــهُ ابتســـامَةَ كـــاذِبٍ	حرمـــانَهم والجـــوعَ والتّنكـــيلا

كان المستشار بشكوف ممثِّلاً للمندوب السَّامي في الجنوب والحاكم بأمره، يقول عنه الشيخ أحمد عارف الزين: بشكوف وما أدراك ما بشكوف الذي كم وكم رأيت بعيني زعيماً يُقبِل يده، وآخر ينشِّطه على عمله لأنَّه يحارب خصمه، وعالماً ينحني أمامه، وآخر يحتفل به، وغيره يعتبر زيارته كفرض الصِّيام لآخر ما هناك وما هنالك...

سنة 1936 عُقد اجتماع في صيدا برئاسة الزعيم عبد الحميد كرامي واتخذ مقرَّرات حول الوحدة السورية وانضمام جبل عامل إليها، ومحاربة الانتداب، وألقى الشاعر قصيدة منها هذه الأبيات:

صيداءُ أَنْتِ من الجنـــوبِ الغـــابُ	الظّفـــرُ انـــتِ لعامـــلٍ والنّـــابُ
فيـــكِ اللّبـــاةَ أوانـــسٌ وعقائـــلَ	وضياغمُ الهيجـــاءِ معـــكِ شـــبابُ
أيقظتِ عاملَ من عميـــقِ سُـــباتِهِ	لمَّـــا تعـــالى صـــوتَكِ الصـــخّابُ
وأهبْـــتِ فيـــه، تهتفـــينَ بوحـــدةٍ	يا طالمـــا حنّـــتْ لهـــا الأعـــرابُ
فتوحَّدَتْ بعـــدَ الشـــتات صـــفوفَه	فـــإذا الجميـــعُ أحبَّـــةَ وصـــحابُ

حطّمتِ غــلاّ كـــان مـــن حلقاتِـــهِ بِشْـــكوفَ والإقطـــاعُ والأربـــابُ

ويروي الشاعر أنَّه بعد الانتهاء من إلقاء القصيدة تقدَّم منه أحد أعضاء المؤتمر وقال له: التلميح أفضل من التصريح، فردَّ الشاعر أنا أُشير إلى بشكوف عمداً لأنَّ الشعب أقوى من الاستعمار، ويقول الشاعر لم تمضِ دقائق حتى اعتُقلتُ ودخلت السجن.

أوائل سنة 1936 حضر إلى بنت جبيل المطران المعوشي واتُّفِقَ معه على زيادة أسعار التبغ، وكُتِبَتْ مضبطة بالمطالب، وعندما علم بشكوف أَمَرَ بمصادرتها واعتقال مَنْ يلزم، وكانت ليلة عاشوراء فأوقف الحاج علي بيضون ثم تُركَ بسبب الهيجان وعدم وجود القوة الكافية، وعندما وصلت التعزيزات جرى اعتقال حوالي الثلاثين شخصاً، منهم: الشاعر موسى الزين وعلي بزي والحاج علي بيضون وسواهم.

حاول الناس الغاضبون إخراجهم من السجن بعدما هدموا جانباً منه، ورفض المعتقلون الخروج وسقط ثلاثة شهداء وعددٌ من الجرحى، ونُقل المعتقلون إلى صيدا ثم إلى بيروت خوفاً من تصاعد الأحداث التي طاولت صيدا والنبطية وصور وبيروت وطرابلس ودمشق، وأُلحق بهم إلى سجن الرمل عادل عسيران، وأحمد عارف الزين وسواهم من بيروت، واستمرَّ بعضهم في سجنهم شهراً.

وكانت قصيدة للشاعر يخاطب المستشار:

لا السِّـــجنُ يُثْينـــا ولا الإرهـــابُ ما شِئْتَ فاصْنَعْ ما عليــكَ عتـــابُ

أَحَسِبْتَ أنَّ السِّجنَ يضعفَ أنفساَ من دونها بمضائِهِ القرضابُ

أَسْجُنْ وشَرِّدْ ما عليكَ غضاضةَ أنّى يكونُ الليثَ فهو الغابُ

يا أيُّها العاتي رويدَكَ طالما مادت قديماً بالعُتاةِ قبابُ

لا يُقْنِعَنْكَ بنا خؤونٌ غرَّهُ منّا السكوتَ ومنكَم الألقابُ

يا سجنُ ما أنتَ العذابُ وإنّما عيشَ المذَلّةِ والهوانِ عذابُ

ليس العِقابُ سلاسلاَ أو ظَلمةَ يا سجنُ، بل وَخْزُ الضميرِ عقابُ

لا تعجبَنْ هي حالةَ الشّعبِ الذي برؤوسِهِ تتحكَّمُ الأذنابُ

يتناهشونَ لحومَنا ودماءنا هذي طعامُهُمُ وتلكَ شَرابُ

ونظلّ حُجَّاباَ على أبوابهم وهُمُ لكلَ مسيطرٍ حجَّابُ

الأجنبيُّ لهمْ برغمِ أنوفنا ربٌّ يُطاعُ، وهُمْ لنا أربابُ

الأحمرُ القاني يحرِّر موطِني ما الاحتجاجُ وما هو الإضرابُ؟

حريَّةَ الأوطانِ حسناءٌ لها فَيض الرِّقابِ مِنَ الشّبابِ خِضابُ

إذاً الطريق تحدَّد، ورأس الأفعى هو الانتداب، والعملاء أذناب لا تُخيف، والتحدِّي والصمود يؤجِّج المعركة:

ولمَّا إنْ رأيتَ الدَّهرَ بغيّاَ إلى حربي بلا سيفٍ تطوَّعْ

لبستَ لَهُ متــينَ الصَّــبرِ درعــاَ وقلتَ لهُ ألا مــا شِــئْتَ فاصْــنَعْ
فَــزِدْ يــا دهــرُ بالنّكَبــاتِ إنَــي أقابلَهــا بصـــدرٍ منـــكَ أوسَـــعْ
وجَرِّدْ ما استطَعْتَ مِــنَ الرَّزايــا فخصْمُكَ من عرينِ اللّيــثِ أمْنَــعْ
سأبلغ مــا أَريــدُ مِــنَ المعــالي وأتــرك عينَــك الحمــراءَ تــدمَعْ

أرادوها معارك فلتكن نحن لن ندعَهُم يرتاحون، فمنهم لقينا الهوان والويلات وهم الذين سرقونا وداسوا حقوقنا:

يُريدُ منَــي زَعيمــي أن أَمَجِّــدَهُ ومن زَعيمي لَقيتَ الوَيْلَ والحَرَبــا
فَكيفَ يكونُ زَعيماَ مَنْ يَبيعُ رِدا العاني الفقيــرِ ليُكَسَــى الخــزَّ والقَشَــبا
ومَنْ يُدمِّرُ كوخــاَ فــوقَ ســاكِنِه ليَبْتَنَــي فوقَــه الأبــراجَ والقِببــا
خَلِقْتَ حُرّاَ ومن شرعي ومُعتَقدي ألاّ اَمَجِّــدَ أصــناماَ ولا خَشَــبا
إنْ يصلبوني فمِنْ قبلــي وقــبلهُمُ بكفَ شرِّ الوَرَى، خَيْرُ الوَرَى صُلِبا

الصدام مع النفوذ السياسي

في موقفٍ لافت خلال المعركة الانتخابية، وقف الشاعر بحماسته المعهودة مؤيِّداً اللائحة المعارضة ضدَّ مرشَّحي السلطة كاشفاً تاريخ الاستزلام المخزي والمذلّ، وهي بالمناسبة انتخابات 17 أيار الشهيرة:

حَطَمْ حُسامَكَ فاليراعُ تجرَّدا   أو دَعْهُ طيَّ الغمدِ يأكَلَهُ الصَّدا

ما ريع يوماً في أناملِ شاعرٍ   أو كاتبٍ، قلمٌ، وخاف مهنّدا

يا صاحبَ السَّيفِ المُدِلّ ببأسِهِ   لِمْ كان في تشرينَ سيفَك مغمَدا!

أَتَخيفَ شعباً باسِلاً بعصابَةٍ   ضمَّتْ طريداً، مُجرماً، مُتشرِّدا؟!

يا جاعلَ الأجدادِ كلّ فخاره   هلْ أنجبوا عيسى لنا ومُحمَّدا؟!

فيمَنْ تَفاخِرُ من جُدودِكَ؟ هل بِهِم   مَنْ شادَ يوماً للمعارفِ معهَدا

أو بَيْنَهُمْ مَنْ في سبيلِ بلادِهِ   وسبيلِ أمَّتِهِ قضى مُسْتَشْهِدا

كنتَمْ وما زلتَم بكفَ عداتنا   سيفاً، فأنتَمْ والعداةِ لنا عِدى

لولاكَم السفّاح لمْ يفتَكْ بنا   قِدماً، ولا "عبدُ الكريم" اسْتَشْهِدا

لا تَوقظ التاريخَ دَعْهُ غافلاَ   عنكَم، وإلاّ آب وَجْهُكَ أسودا

في نظرته إلى الشَّعب يبدو الشاعر ممزَّق النفس، بين قناعته بطاقات الشعب وإمكاناته، فهو صانعُ الثورات ومجترحُ البطولات وخالقُ القادة، وهو في نهاية المطاف الأملُ الموعود؛ وهو في الوقت نفسه موجَع الفؤاد، مصدوم عندما يرى سكونه واستسلامه وصبره على الواقع المرير، وتقاعسه عن الثورة:

غيري على الموتى يشقّ جيوبَهُ   حزناً ويُذري دمعَهُ بسخاءِ

أمَّا أنا ــ وليَ الشّذوذَ سجيَّةً ــ في عاملٍ أبكي على الأحياءِ

أبكي على مستعبَدين تطوُّعاً لمطامعِ الإقطاعِ والزُّعماءِ!!

... هؤلاء الذين تذوب عليهم ألماً وتقف عمرك على تحريكهم وإثارتهم لتحريرهم وإقناعهم باستباحة حقوقهم والتعدِّي على كراماتهم، لا يستجيبون لصراخك وقد بُحِحْتَ ولمَّا يلتفتوا إليك:

لا تعجبوا إنْ قلتَ إنَّ بعاملٍ شعباً ينامُ على رنينِ قيودِهِ

أَلِفَ المذلَّةَ والهوانَ مخيَّراً وبكفِّهِ شدَّ الزناقَ لجيدِهِ

يبتاعُ لقمةَ (بَيْكِهِ) برغيفِهِ ويذوبُ مفتوناً بوافِرِ جُودِهِ

مستعبَدٌ للبيكِ لا لفضيلةٍ في البيكِ، بل لحذائِهِ وثريدِهِ

ولَوْ انّه نَزَعَ الغشا عن عينِهِ يوماً لكانَ البيكُ بعضَ عبيدِهِ

ولَوْ انّه يدري بأنَّ شقاءَهُ منّهُ ومِنْ آبائِهِ وجُدودِهِ

قُلْ للذي يدعو إلى تحريرِهِ مهلاً: فشعبك قانعٌ بجمودِهِ

فالشّعبُ إنْ ماتَ الإباءُ بصدرِهِ لا يَخْدَعَنْكَ تَضَخُّمٌ بزُنُودِهِ

اقرأ لَهُ أم الكتابِ فإنّهُ ميتَ برغمِ عتادِهِ وعديدِهِ

وها هو مداورة يُعرب عن وجعه وصدمته ويقترح حلاً موازياً عن طريق التهكُّم:

يا أيُّها الوطن الــذي مــن حبِّــه لم أجــنِ غيــرَ تعاســةٍ وعــذابِ

خــلِ الرجــالَ، فطالمــا نــاديتَهم للذّودِ عنــك فلَــمْ تَفَــزْ بجــوابِ

وادْعُ النســاءَ مجرِّبــاَ، فلربَّمــا لبَّتْــكَ أو نَصَــرتْكَ ذاتَ نقــابِ

... هي حكاية المناضلين، موصولة الآلام، تَسْحرها المُثُل السَّامية، وينقِّيها الصدق، ويحدِّد مسارها الالتزام الشريف، لكنَّها كثيراً ما تتعرَّض لالتواءات مقتنصي الفرص الذين يخرجون عن الخط السليم، ويخلِّفون لدى رفاق الدرب الصدمات والإحباط، وشاعرنا عاش هذه المحنة، عاناها مع الانتداب، وبشكوف ومع بعض رفاقه من زعماء الاستقلال، ثم مع نكبة العرب في فلسطين، والحرب الأهلية في لبنان.

ظننتَ فرنسا مصدرَ البؤسِ والشقا ومصدرَ ما نشكو من الحيفِ والغبنِ

فحاربتَهــا حتــى تقلّــص ظلّهــا فجاءَ أُناسٌ بعدها خيَّبــوا ظنَــي

فيا ليتَ ما جاؤوا وما كان ما أرى وليت الفرنسيين ما أفرجوا عنَــي

ويا ليته طــال الجهــادُ ولــمْ أزلْ سجيناً، ولمْ يضحكْ زعيمٌ على ذقني

وقال في مكانٍ آخر:

سُقيتَ الغَيْــثَ عهــدَ المستشــارِ على ما فيكَ مــن خــزيٍ وعــارِ

فرنسةَ كنتَ مــن أعــداكِ قِــدماَ   وحَربُكِ كانَ في وطنـــي شِــعاري

بعهدِكِ كان يُــدْمي القيــدُ ســاقي   وسجنُ الرَّملِ كاد يكــونُ داري!!

ويتحسَّر على أيامٍ سلفت وعلى ممارسات المستشار التي ليست شيئاً يُذْكر أمام ما يجري في العهد الجديد، "إنَّها فجيعة الإحباط والمأساة التي لا تهدأ آلامها ولا تستكين أوصلتنا إلى الحرب الأهلية وتدمير البلد بشراً وحجراً. وها هو يخاطب بلده المنكوب:

هلاّ علمتَ وأنتَ مهــدُ طفــولتي   وهواكَ ملءُ جــوارحي وجنِــاني

أنّي: وفيك من الجــرائم مــا أرى   أصــبحتَ أخجــلَ أنّنــي لبنــاني

أيُراق فيــك دمــي لأنَّــيَ مســلمٌ   لا ذنـــبَ لــي ولأنّنــي نصــراني

واخجلتــي منَــي كلبنــاني ويــا   خجلي كإنســانٍ مــن الإنســان!!

ويا أبا عدنان، يا أمير المنابر وأنيس المجالس، أحببتُ أن أختم بأبياتٍ عزيزة على قلبك طالما كنتَ تردِّدها:

أيُّها الشعب يــا حبيــب فــؤادي   أنتَ أنتَ المُنــى وأنــتَ الرَّجــاءُ

أنا قــيسٌ وأنــتَ ليلــى غرامــي   لك شِــعري وصــبوتي والغنــاءُ

فلعينيْــــكَ للقــــوافي مــــديح   ولعينيــــكَ للقــــوافي هجــــاءُ

ولعينيــــكَ هــــداتي وســــكوني   ولعينيــــكَ ثــــورتي الحمــــراءُ

وها نحن وقد طاب لنا أن نسترجعَكَ ونشهدَ بعضَ الصفحاتِ من سيرتك ونستمعَ خلال ما يسمحُ لنا الوقت المحدَّد إلى الممتع من أشعارك ــ وكلها ممتع وشيِّق ــ وأنت هناك في هدأتِكَ وسكونِكَ، بينما طيفُ خيالك يحوِّم حولنا وقد برَّحه وبرَّحنا شوق المحبِّين.

إضاءات سريعة:

موسى الزين شرارة وعبد الحسين عبدالله

في جبل عامل عندما تذكر أحدهما لا يسعك إلاَّ أن تتبعه بالآخر، فقد غَدَوَا توأمين متلازمين لا ينفصلان ولا يتباعدان، مصادفة فريدة كان لقاؤهما في المكان والزمان، وغنىً رائعاً للأدب، هذا التماهي في الموقف والتطابق في النظرات والتماثل في القدرة على الإضحاك، والتشابه في حب المرح وجلسات الأنس... كان كلٌّ منهما عندما يريد أن يتهرَّب من أبيات خوف الإحراج ينسبها للآخر:

يـــا مـــدير الاقتصـــاد الـــوطني　　قَلْ لنا من أيـــن أصـــبحتَ غنـــي

لم تهاجر لـــم تتـــاجر لـــم تـــرث　　عن أبيـــك الفـــذِّ غيـــر الرســـنِ

لو قضى والدكم فـــي مـــا مضـــى　　غَرِّمـــــت قـــــريتكم بـــــالكفنِ

نســـــفوها نســـــفوها نســـــفوا　　طيَّـــروا الـــدار وطـــار المنســـفَ

ســـأل الحاخـــام لمَّـــا نَسِـــفت وعلت في الجـــو تلـــك الأرغـــفَ

ورأى الطـــبخ يغطـــي أرضـــها هـــي دار يـــا تـــرى أم معلـــفَ

* * * * *

يا قائد العشـــرين ألـــف مجاهـــدٍ نسفوا مقرَّك يـــا جنـــاب القائـــد

مـــا للأشـــاوس عنـــدما نـــاديتهم للذّودِ عنها مـــا ظفـــرت بواحـــدِ

ليست رجالك للحـــروب وللـــوغى فهُـــمُ رجـــال ولائـــمٍ وموائـــدِ

قد فرَّ جنـــدك واليهـــود وراءهـــم "حوَّطت" جندك من عيون الحاسد

قال في مقرئٍ لم يستلطفه:

كيف شوك الدين إن كنت الزهـــر يـــا ثقـــيلاً تعبـــت منـــه البشـــر

أنـــا شـــيعيٌّ ولكـــن طالمـــا أنـــت شـــيعيٌّ فمعبـــودي عمـــر

قال للرئيس شمعون في إحدى مراجعاته: (1955):

لو زرتَ عامل أشجاك الشقاء بـــه وما يكابد مـــن بـــؤسٍ وحرمـــانِ

فلا ترى غير جوعـــانٍ وجائعـــةٍ وغيـــر ظمآنـــةٍ فيـــه وظمـــآنِ

وغير دورٍ بُنيت من أهلها وغدت بالأُفق دمنـــاً مـــن غيـــر ســـكانِ

فلا يصدق مَـــنْ فيـــه (هويتـــه) بأنه والذي في الشوف لبنـــاني!!

زار الشاعر صديقه الصحافي عبد الغني الخطيب في جريدة "الكفاح":

تحريم قراءة الصحف

حسبتَ عامل فـــي بلـــواه منفــرداً إذ حرَّم الشيخ فيه رؤية الصـــحفِ

حتى سمعت وبعض الصحبِ أكّد لي بأنَّ ذلــك مــأخوذَ عــن النّجــفِ

عجبتَ من لجنة الآثار كيف سهت عن عرض أشياخنا في معرض التّحف

حجٌّ لغير ملتزم

حججـــت فكيـــف أنـــك لا تحـــجُّ فمنك الرُّكن والحرمـــات ضـــجوا

ذهبـــت بـــألف قافلـــةٍ ذنوبـــاَ وعـــدت وألـــف قافلـــةٍ وخـــرجُ

1 ــ الشيخ علي الزين ابن جبشيت الأديب والشاعر المؤرِّخ والتقدمي الغني عن التعريف، أحد أدباء العصبة العاملية في النَّجف، وأحد روَّاد الحركة الوطنية المناهضة للفرنسيين والمتعاونة معهم. هو شيخ التقدميين، والد الدكتور حسن الزين وجدّ الصحافي جهاد الزين، أرسل صورته لموسى الزين، فوصفها بأبيات وأرسلها إلى العرفان:

قلـــتَ لمَّـــا رأيـــت هـــذا المحيّـــا طافحـــاَ بالجمـــال مثـــل البـــدورِ

أيُّ رســـمٍ هـــذا؟ أجـــابوا علينـــا قلتَ هذا ضـــرب مـــن التزويـــرِ

قد عرفنا العلــيَّ كــالقرد شــكلاً   وعرفنـــاه بالجمـــالِ كنـــوري
كنـــتم تكـــذبون قـــدماً وبانـــت   تكـــذب اليـــوم آلـــة التصـــويرِ

وأرسل إليه قصيدة أخرى:

أحبُّـــك لا لأنَّ أبـــاكَ شـــيخَ   ولا من حيث نائبنـا ابـن عمِّـكْ
ولكن فـي جمالـك لـي غـرامٌ   تعالى (الحيَّكك) فـي بطـنِ أمِّـكْ
ومنَّ عليكَ فـي عقـلٍ ضـعيفٍ   نحيـف أو خفيـفِ مثـلَ دمِّـك
فـأغرى فيـكَ أشـعاري فباتـت   متيَّمـــةَ بنَقْـــدِكَ أو بـــذمِّكْ

عــن الجنَّــة

قـالوا لربِّـكَ جنّـاتَ أعـدَّ بهـا   للصـالحين وراء العـالم الفـاني
ما تشتهي النفس من حُسنٍ ومن مُتعٍ   ومن ثمارٍ ومـن حـورٍ وولـدانِ
فقلت إن كـان للصـلاح أنشـأها   فسوف تبقى إذاً من غير سـكانِ!

الخمريــات

خـادع زمانـك بالسـلافِ فإنّهـا   كذّابـــة وزماننـــا كـــذّابُ
الـدَّير حلّلهـا فقلَـد رأيـه   حتـى يراجـع رأيـه المحـرابُ
وليلـةٍ فـذَّةٍ راقـت وراقَ بهـا   طبعُ النّديمِ وطبعُ الخمرِ والحاسـي

ما شـــاهدت ولا ضـــمَّت كفتيتهـــا قصور بغداد في عهد ابن عبـــاسِ
سُـــمَّارُها ونـــداماها وشـــاعرُها رقّـــوا وكلّهُـــمُ بـــاللطفِ نوّاســـي
ما زال يشربها صبحي وأشـــربها والكأسُ يُقرَعُ حتى الفجر بالكـــاسِ
حتى سكرنا جميعاَ واســـتتبَّ لنـــا سلطانها واستقالت دولـــة الـــراسِ

في تعليل غريب وهزلي حاول الشاعر أن يقنعنا أن الله أعطى المال لبعض خلقه وحرم منه الشعراء والأدباء لأنه أدرى بهم وبطموحاتهم، ويخشى إذا شبعوا أن يتغيَّروا ويشكِّلوا خطراً.

خطـــر الشعراء

صبراً أخا الشعر لا تحزن وأنت تـــرى هذي المهازل فالعقبى لمن صـــبرا
ولا تخل أنَّ رب الناس شـــاء بنـــا شراَ غـــداة حبانـــا هـــذه الـــدُّررا
لو شاء ربُّك كان الشـــاعرون لـــه ممثلـــين بهـــذا الكـــون أو ســـفرا
أو شاء أغناهُمُ من فضـــلِهِ فغـــدَوا أغنى وأوفر أبنـــاء الوجـــود ثـــرا
لكنّه وهـــو أدرى فـــي مطـــامعهم يخشى إذا شبعوا أن يصبحوا خطرا
أما تراهم ونـــاب الفقـــر ينهشـــهم لا يرتضـــون إذا نـــاديتهم أَمـــرا

إيمـــان بالعروبـــة

تشـــهد الأرض والســـماء بأنّـــا عن هوى الشام لحظةً لــن نحيــدا

هي في القلــب والحُشاشــة منّــا فليُقيمــــوا حــــواجزاً وحـــــدودا

ويقولــــــوا أميَّـــــة وحســــــين وليشــقّوا مــن كــربلاء اللحــودا

في هواهــا وفـــي ســبيل هواهــا نرتضـــي حاكمـــاً علينـــا يزيـــدا

ـــــــــــ ندوة مرجعيون ــــــــــــ

- المكان: مدرسة مرجعيون الوطنية ــ جديدة مرجعيون
مركز أمل وريما الحوراني الثقافي

الشـــعراء:

- الشـــاعر فـــــؤاد جـــرداق
- الشاعر عبد الحسين عبد الله
- الشاعر عبد المطلب الأمين

المحاضرون:

- د.شـــفيق البقاعـــي
- د.فـــؤاد مـــرعـــي
- أ.محمد زينو شومان

فؤاد جرداق شاعر المواقف الصعبة

بقلم: د.شفيق البقاعي
(أستاذ جامعي ــ كاتب وباحث)

بعد ما يُقارب نصف قرنٍ على رحيله، نتذكَّر مواقفه المتحدية، لنقف على مآثره الشعرية وقصائده الثورية التي تركها في دواوينه التي ما زالت؛ منها المخطوط ومنها المطبوع، إذ من الصعب أن نُلمَّ بكافة جوانب أدبه شعراً ونثراً، لأنَّه لم يُجْمَع بشكلٍ كامل ومرتَّب ليكون السَّند لباحثٍ يركن إليه فيقرأه بشكل منهجي ليُعطى حقّه كشاعر متميِّز مجيد في باحة القريض.

فؤاد جرداق شاعر لكل زمان ومكان، لكل عصر ومصر، لأنَّ شعره جاء صورة لكلِّ زمنٍ فيه ظالم يقهر شعبه، ولكلِّ مظلومٍ يوقظه من أسره ليُعطيه شحنةً من الوعي يدلُّه على حقِّه في الحياة الكريمة.

كانت رحلته في الحياة ثلاثة وخمسين عاماً. عاشها في صراعه مع الحكَّام الظَّالمين وضد الانتداب الفرنسي، وثائراً على النظام وساسته الفاسدين وهو القائل:

قد عشتَ في هذا الوجــودِ معــذّباَ ... مـــاذا أرادَ اللهَ مـــن تعـــذيبي؟

أبكي الحقيقةَ في الخليقةِ صـــارخاَ   أينَ العدالـــة يـــا ســـماءُ أجيبـــي

هكذا عايش الواقع مقهوراً، وشعره الوسيلة التي جسَّد بها صورة الزمن بين الواقع والخيال، وسلاحه صوته وشعره للثورة التي مشى نحوها بإيمان واندفاع، وقد سمع صراخ الناس وشاهد معالم المأساة فكان شعره الصَّدى. فصوَّرها بقوله:

سمعتَ صراخاَ فاستْبَان لنـــاظري   خيالَ مخوف في الظّـــلامِ يلـــوحُ

رأيتَ قوياَ عاقـــداَ حبـــلَ جـــورِهِ   بعنقٍ ضعيفٍ والضعيفَ يصـــيحُ!

لكن شعره يبقى صدى الثورة الحمراء التي حلُم بتحقيقها باليراع فبقي في مسامع الناس، وفي حنايا الوطن، وعند أبواب المواطن الموصدة أمامه ليقول:

ما زلتَ أدفعُ باليراعِ عن الحِمـــى   ظَلـــمَ الطّغـــاةِ وصَـــوْلَةَ الأعـــداءِ

في مـــوطنٍ فيـــه مكافـــأتي الأذى   والسِّجنُ أَجري والشّقاءُ جزائـــي

إنَّ الحديث عن شاعر كفؤاد جرداق يتهيَّب الباحث من أن يغرق في بحر شعره، شعر الرفض والتمرُّد، وهو شاعر التحدِّي والهدم، تلك هي كيماؤه الفكرية ليبني البديل الذي يجده مناسباً للناس وهو نظام العدالة، والحرية، والحب، والخير للناس كافة. بناءً على هذا التداعي الشعوري كان يردِّد: "وظيفتنا في هذه الحياة هي الهدم، هدم كل ما هو حولنا في هذا الزمن

الرَّديء". إنَّ الجرداق الذي بنى هذه الصورة الوظيفية لمسار شعره من مبدأ الهدم لأنَّ الزمن كان فاسداً، بحكّامه وقادته وأنظمته وانتدابه والاستعمار الذي خطَّط ونفذَّ العملاء له. رفض هذا المسار البغيض ليخرج بمعادلة ترجمها بشعره وهو القائل:

عشـــتَ للثَّـــورةِ الفتيَّـــةِ زنـــداً تصطلي بـــي لا شـــاعراً مَـــدَّاحا

كلَّمـــا أخمَـــدَ الطّغـــاةَ لظاهـــا أوجـــدتَ فـــيَّ واريـــاً قـــدَّاحا

يأتي تكريم فؤاد جرداق اليوم وتكريم البعض من رعيله بمناسبة نستعيد فيها مواقفهم التي ما زالت لنا نبراساً لمواقفهم الشجاعة؛ لأنَّ الزمن والتاريخ يُعيد نفسه ولو بغير الصورة التي كان عليها في تلك الظروف التي مرَّت في زمانهم؛ علماً أنَّ ظروفنا الحاضرة استدعت أن نعود إليهم لنأخذ العبرة مما ناضلوا من أجله ضد الطغيان والفساد ومحاربة الفقر والعوز وليس الرَّادع لها إلاَّ قوله في إحدى قصائده:

الثـــورةَ الحمـــراء أنجـــعُ خطّـــةٍ لنجـــاحِ شـــعبٍ كـــافرٍ قدِّيسُـــهُ

وقصيدته الشهيرة هذه قالها عام 1938 وما زالت الأصداء تشعُّ منها كأنَّها قيلت اليوم بالذات فاسمعه حين يقول:

وطنٌ سراحينُ الـــذِئابِ تسوسُـــه مـــاذا يـــدرُّ لشـــعبِهِ تقديسُـــهُ

وزراؤه أوزارُهُ ورجالُـــــــــــهُ أصـــلالُهُ وزعيمُـــهُ جاسوسُـــهُ

وكـــذاكَ نَـــوَّاب الـــبلادِ نوائِـــبٌ نَزَلَتْ، فزادَ مِـــن الأذى كابوسُـــهُ

ربضَتْ على الصَّبرِ الجميلِ أسُودُهُ فتحكَّمَـــت بالعـــاقلين تيوسُـــهُ

وطَن بلا طـولِ ولا عـرضٍ ولا سِمْكٍ ولا جِـرمٍ فكيـفَ أقيسُـهُ

السَّـيفَ عنـدَ جبانِـهِ والمـالَ عنـدَ بخيلِـهِ والمُومسـاتَ تجوسُـهُ

هكذا خاطب الجرداق زعماء زمانه بجرأة قادته إلى المعتقلات والسجون غير آبهٍ بما يُلاقيه أمام جلاَّديه. دمه الحار، وفكره الثائر، ونفسه الأبيَّة دفعته كلها ليكون الشاهد والشهيد؛ وما نفع الشعر برأيه إن لم يكن صوتاً صارخاً بوجه الطغاة والحكَّام الجائرين؟ لقد واجه الجرداق بجرأة متناهية سدنة النظام، وعملاء الانتداب ومَنْ مشى بركابهم. هذه الصورة المصغَّرة عن شعره ومواقفه، بعض الشواهد التي حاولتُ اقتباسها من أقواله ومن بعض قصائده، قد لا تكفي، لكنَّها ستكون الشاهد الحي والموضوعي على مواقفه الصدامية المحقَّة.

وبعد، أسأل: مَنْ هو فؤاد جرداق؟! ما هي الظروف التي كوَّنت شاعراً بمقامه؟

إذا كان هذا التمهيد تعبيراً عن إيجاز المدخل لدراسة شعره؛ فالجرداق هذا كان عنوان المرحلة التي عايشها شعبنا في لبنان بعد وأثناء المحن من الجور العثماني وانتقاله إلى سلطة الانتداب ثم إلى حكم الاستقلال؛ وكأنَّ الزمن هو هو، والتاريخ يُعيد نفسه ولو بغير الأساليب والظروف. والحديث

عن شاعر ثائر متمرِّد رافضٍ متحدٍّ كفؤاد جرداق يلزمه الوقت الكافي لبحثٍ يطول عن شعره كمرآةٍ لعصره!

وما هي المؤثرات الاجتماعية والبيئية والثقافية والسياسية والأيديولوجية التي كوَّنت فيه كل الترددُّات التي ستبقى حيَّة في ضمير الأحرار بكل ما فيها من صدى لهتافات الأمس واليوم وغداً.

أما السِّيرة الذاتية فتقول من بعد رصدٍ وتدقيق في مصادر لي كامل الثقة بها لأنَّها تشكِّل مرايا وجوده وتقلُّبات حياته، وتبدُّلات مزاجه، ونُضج تفكيره...

أولاً: التقيته مراراً في أكثر من مكان وكان أبلغها أثناء زيارته لمنزل سلام الراسي، صديقه المقرَّب إليه في بلدتنا إبل السقي؛ والأحرار، والثوَّار وأهل الرفض يلتقون في الفكر والتخطيط والتنفيذ.

ثانياً: من وقفته أثناء إلقائه قصائده الثورية في ساحة جديدة مرجعيون أثناء الإضراب الشهير عام 1949؛ حيث ما زالت ترنُّ في أُذن ذاك الصَّبي الذي كنته الهتافات التي كان يردِّدها المتظاهرون وهو يلقي قصيدته السينيَّة المشهورة ومطلعها:

وطني تَذَلَ من الأســى أرواحُــهُ　　　وتموتَ من جَوْرِ الطّغاةِ نفوسُــهُ

لعبَتْ بهِ أيدي الجُنــاةِ كمــا بــهِ　　　دبَّت جــراثيمُ الخَنــوعِ وسُوسُــهُ

أما الصَّدى، فكان الهتافات التي تتردَّد من أفواه الجماهير: "بدنا خبز بدنا طحين ــ بدنا ناكل جوعانين" ، "بدنا بدنا الحرية ــ من هالدولي الرجعية".

ثالثاً: من دواوينه التي قدَّمها إليَّ الصديق العزيز ابنه وسام رفيق الدرب الوفي.

رابعاً: لقد تسنَّى لي أن اطَّلعت على دراستين نقديتين فيهما تحليل وافٍ عن شعره: دراسة غالب الناهي، الأديب والشاعر العراقي الذي قام بدراسة موسَّعة وشاملة عن الجرداق وشعره عام 1949، وهي بعنوان: "خليفة عمر الخيام الفيلسوف والشاعر فؤاد جرداق" في حين كان وما زال عنوان المخطوطة "رباعيات الجرداق لخليفة عمر الخيام الشاعر الفيلسوف المهندس فؤاد سجعان جرداق". إنَّ الشاعر الذي التقى الجرداق واطَّلع على منهجه الفكري والشعري حلَّل أعماله الشعرية مقارناً إياها بشعر عمر الخيام من حيث السِّمات الشاعرية والموضوعات. وكما ذكر عندما قابله، أنه قد تأثَّر به وبشعره وبشخصيته المهيبة!

أما الدراسة الثانية فهي عبارة عن محاضرة للأستاذ حبيب صادق قدَّمها من على منبر المجلس الثقافي للبنان الجنوبي وضمَّها في كتابه "قضايا ومواقف" بدراسة نقدية موسَّعة. وكان عنوانها: "فؤاد جرداق شاعر التمرُّد والتحدِّي". أما أنا فقد ساهمت عام 1998 بدراسة. أما دراستي فقد جاءت موجزة وقد ألقيتها من على منبر المجلس الثقافي للبنان الجنوبي عندما تمَّ تكريمه مع الكاتب والحقوقي النائب نصَّار غلمية عبر شهادتين عنهما قبل

تعليق صورتيهما في قاعة المجلس بجانب صور أدباء الجنوب كتقليدٍ للمجلس في تكريم كبار أدباء الجنوب وشعرائه وفنّانيه.

واستناداً إلى ما تقدَّم أجيب بإيجاز لسؤالٍ طرحته على نفسي: مَنْ هو فؤاد جرداق؟! أقول:

- إنه فؤاد بن سجعان بن سليمان بن نقولا بن جبور من آل جرداق.
- وُلد في جديدة مرجعيون ــ الجهة الشرقية الشمالية لجبل عامل الواقعة غرب جبل الشيخ أو جبل حرمون، بتاريخ 12 كانون الأول من عام 1912.
- والده سجعان، وسيلي الحديث عنه لاحقاً.
- والدته سبيها كريمة ذيب بن سرحان نايفة النمري الربضي الغساني القحطاني، من جبل عجلون من أعمال شرق الأردن.
- تزوَّج مرَّتين. ولم يُوفَّق لكن الثالثة استحالت. له من زوجته الأولى وتُدعى "وداد القرداحي" وهي مصرية الجنسية، ولدان هما (أحمد وسام) و(زينب وفاء)؛ ولم يدم زواجهما إلاَّ خمس سنوات. أما الزوجة الثانية فهي "علياء أبي عاصي" سورية الجنسية من مدينة القنيطرة، وقد أنجبت له " عليّاً" مات رضيعاً؛ وأيضاً هذا الزواج لم يدم إلاَّ سنتين.
- توفي الجرداق في 2 أيلول من عام 1965 ويكون عمره كاملاً 53 سنة.

- لقد اكتشفت من خلال تعمّقي في مسيرة حياته أنَّ فؤاد جرداق مثلَّث الأبعاد، أي أنَّ رقم ثلاثة (وهو مثلث فلسفة أرسطو) رافقه من المهد إلى اللَّحد!

أولاً: أولاده ثلاثة: وسام، وفاء، وعلي وعمله كذلك: مهندس زراعي ــ شاعر ــ معلِّم. مات ابن 53 سنة. دَرَس في مدارس ثلاث هي: جديدة مرجعيون ــ دير المخلِّص ــ المعهد الزراعي السوري في السلمية. دواوينه ثلاثة هي: "المنعشات في مسارح الصهباء" 1930، "الهواجس" (طبع بعد مماته عام 1974). ديوانه "الرباعيات والسداسيات والمتفرقات" ما زال مخطوطاً وعندي صورة عنه.

درَّس في مدارس ثلاث هي: الجامعة الوطنية في عاليه حيث زامل الأديب الكبير مارون عبود، وفي ثانوية مرجعيون الوطنية، وفي ثانوية بيروت الوطنية. وكان دفنه في 3 أيلول عام 1965. وقد ترأس صحفاً ثلاث هي: "النهضة المرجعيونية"، و"المريخ" و"الخازوق". وهما جريدتان ساخرتان انتقاديتان، شاركه فيها فؤاد الشمالي، أحد مؤسِّسي الحزب الشيوعي اللبناني. وقد لوحق من قِبَل سلطة الانتداب لجرأة الجريدتين في نقدهما السلطة حتى تمَّ إغلاقهما. وقد أدار مع سجيع الأسمر جريدة "العجائب".

كان الجرداق مثلَّث الأبعاد في شعره: التمرُّد، التحدِّي، الرفض أو الهدم.

أما في مواقفه فكان مثلَّث الأبعاد في: القضية العربية، والقضية اللبنانية، والقضية الطائفية وقد عالجها في شعره مبدياً رأيه الثائر في خُطبه النَّارية فيها.

وهو القائل في قصيدةٍ له عنوانها "الساخرة":

مـــاذا أقـــولَ بمـــوطِنٍ حُكَامُـــهُ	**رُهبانَـــهُ وشـــيوخَهُ وقَسوسُـــهُ؟**
وعلومُـــــهُ أديانَـــــهُ، وعميـــــدُهُ	**خوانَـــــهُ، وتقيُّـــــهُ إبليسُـــــهُ**
قانونَـــهُ جَـــورٌ، وعلـــمُ بناتِـــهِ	**إثْـمٌ وقَتْـلَ النَاهضـينَ دروسُـهُ**
ما إنْ رأيتَ بِـهِ زعـيمَ دعايَـةٍ	**إلاّ وغايتَـــــهُ لــــيُملأَ كيسُـــــهُ**
الخَبْـثَ ديدَنَـهُ القبـيح، ودينَـهُ	**سَلْبُ الضَّعيفِ لكي يزيدَ فلوسَـهُ**
عرقَ الجبـاهِ العـاملات بريقَـهُ	**بكؤوسِـهِ كيمـا تشِـعُّ كؤوسُـهُ**

أما الجانب الآخر في شعره وحياته فحين كان يتمثَّل بالشاعر عمر الخيام حين جعل نفسه خليفته، وهذا التماثل لم يأته من فراغ بل من أصول عريقة الانتماء. وهنا أعود لأبني على هذا الانتماء ما خايلني الظنّ به ربطاً بأصل عائلة الجرداق تاريخياً فأقول:

ــ في الأصل والنسب والحسب: ما تعنيه كلمة جرداق بالفارسية "الرغيف" وأنَّ هذه العائلة مرَّ تاريخها بثلاث مراحل وهو الرقم نفسه الذي لازم حياة الشاعر. إذ إنَّها مراحل الاغتراب عبر الزمن، وهنا كما تناهى لي ومنذ قرنين ونصف على وجه التقريب جاء الجد الأول قادماً من بلاد فارس

إلى لبنان، من بلاد عمر الخيام وألف ليلة وليلة، مع شهرزاد وشهريار؛ وحلَّ في جبال لبنان مع أُسر المردة وهي من العائلات الأشاوس التي كان لها أنفتها وعنفوانها حيث أبت أن تحتمل الظلم والعسف من الغزاة، أما المحطة الثانية فكانت عندما دفعت بها الظروف لتحط هذه العائلة في قرية عين السنديانة قرب بلدة الشوير في قضاء المتن. لكن ظروفاً أخرى دفعت هذه العائلة لتتوزَّع في أصقاع الكرة الأرضية ما بين أميركا وأوروبا وآسيا وهم اليوم في واشنطن كما في مصر، وفي فرنسا كما في العراق وفلسطين ولبنان. أما الذين ما زالوا في لبنان فهم الذين انتمى إليهم شاعرنا الجرداق. وقد اشتهرت هذه العائلة بفن البناء ونحت الحجارة، إلى جانب انكبابها على العلم. أما الشِّعر فهو سليقة يقرضه العديد من أبنائها بالعامية كما بالفصحى.

أما بعد، فإنَّ ظروفاً ساقت جد الجرداق لتكون محطته الثالثة جديدة مرجعيون في جنوب لبنان. وهناك تزوَّج من السيدة "زهوة عبدالله هاشم" ولم يلد له من الذكور سوى سجعان والد الشاعر، الذي اقترن بالسيِّدة "سبيها" والتي سبق ذكرها فولد لها من الذكور: فؤاد/ الشاعر ورائف وجورج (الأديب والناقد الساخر والجريء على عادة أهله) وميلاد وهم من أهل العلم والأدب على أنواعه.

لقد حرص الوالدان على تربية أولادهما باهتمام مميَّز. فنشَّآهم تنشئة وطنية ووجهاهم نحو العلم والأدب. وسجعان الذي كان معلِّم عمار من الطِّراز الرفيع كان ينشد أمام أولاده الشعر والقصائد العاميَّة، والمواويل، والعتابا، والزجل والمعنَّى والفرَّادي؛ كما كان يقرأ لهم من تغريبة بني هلال،

وقصة الزّير وعنترة، ومن شعر زهير بن أبي سلمى؛ وأحياناً كان ينشد من هذا الشعر ما يُغنَّى بصوته الشَّجي، وهذا ما أيقظ في نفوس أولاده حب الأدب والموسيقى والشعر. وكان لي حظ المعرفة واللقاء بسجعان عند نسيب والدتي كمال فرح الذي كان عمَّاراً مميَّزاً كسجعان. أما فؤاد فكان يُتقن العزف أو النفخ على الناي.

أجل من هذا البيت العريق تخرَّج فؤاد وأخوته، وهم يحملون راية العروبة والوطنية وحب الحرية، ومواجهة الظلم، ومحاربة الاستبداد، والفساد، والوقوف إلى جانب الحق من أجل خير الناس. ومثل هذه الصفات ما غابت عن عادات أهل مرجعيون الأبيَّة بوجهائها وأعلامها، وهي بلد العلم والعروبة، بلد المدارس والصحافة، بلد النضال واعتناق المبادئ الإنسانية. وجديدة مرجعيون هي التي رفعت الراية العربية على سراياها الحكومية عام 1919 بعد استفتاء جواباً على سؤال: ماذا تريدون الحكم عربياً أم أجنبياً؟ فكان جوابها للحكم العربي، وكان ذلك بفضل وتوجيه وجهائها وفي طليعتهم غلمية غلمية شفيق جدّ فؤاد جرداق لأمِّه.

أما توهجات الثورات الإقليمية فكانت آخذة ــ عصرئذٍ ــ بالتصعيد في سوريا عام 1920 حتى عام 1926، وفي فلسطين وصولاً إلى أيام نكبتها عام 1948. كل هذه التوجهات وأحداثها عاشها فؤاد جرداق وتعايش معها بمراحلها منذ وعيه بعد سن الطفولة حيث تناهت لمسامعه ثورة البولشيفيك في روسيا عام 1917، وأخبار الحرب العالمية الأولى ثم الثانية التي عاشها شاباً في غمرة وعيه الشعري.

في هذا المدّ الثوري كان الجرداق قد بنى نفسه في شعره ونثره وصار يعتلي المنابر خطيباً مفوَّهاً ثائراً حتى سُمِّي شاعر الهدم والتمرُّد والتحدِّي والرفض، أما لقبه فكان شاعر المرج. لقد قارع الانتداب الفرنسي، وهاجم الأنظمة العربية الرجعية في الوطن العربي؛ وكان حماسه للتحرر على بركان روحه الثائرة، وكثيراً ما قادته مواقفه إلى المعتقلات والسجون التي لم تخذل عزيمته، ولم تثنه عن شجاعته حيث كانت جرأته تقوده إلى أن يكون دائماً في طليعة التظاهرات المطلبية أيام الانتداب وما بعده. كما عايش الجرداق فترة تأسيس الأحزاب ومنها الحزب الشيوعي اللبناني. من هنا جاء شِعر الجرداق عاصفاً ملتهباً بحيث كانت الجماهير تردده، وكان به يزرع بذور الوعي وبذور الثورة الحمراء في نفوس الشباب الطالع. والجرداق قطع شوطاً بارتقائه الفكري بعدما عبَّأته مطالعاته الفلسفية التي توجَّه نحوها في فترة زمنية اختلى بها مع الفلاسفة الماديين، فمكَّنته من أن يعمِّق رؤاه قبل أن يتَّخذ مواقفه، ثم زاده هذا الفكر ثراءً وقناعةً ليبني على أثره خطّه الفكري والأيديولوجي، حيث ساعدته هذه وتلك على امتلاك الحجَّة والبرهان في ما يقول وينظم ليعبِّر بما يقول أمام الجماهير بسلاح الكلمة الحقيقية الموضوعية التي ناضل من أجلها لتكون متراسه الأمامي في حياته.

رحلته الفكرية هذه كانت بين مرحلتين من تحصيله العلمي؛ وهي المرحلة التي شغل فراغها ما بين انتهائه من دراسته الثانوية، وقبل دخوله الرهبنة في دير المخلِّص حين شغف بقراءة هيغل وماركس وغيرهما من الفلاسفة الماديين. وقد حوَّلته قراءته لأن يأخذ موقفاً من فلسفة الفارابي التي

مقتها حتى الإكراه، عندما وجدها تنادي بالعقول المفارقة، وهنا وجد نفسه تجنح إلى القول: "بالاستحالة" دون الفناء، ولكن على غير الطرق الأربعة القائلة: "بالفسخ والمسخ والرسخ" من أهل مذاهب التقمُّص، والتناسخ والانتقال، وهو يقول كذلك بعدم التلاشي، كما أنكر الخلود الذاتي. وهنا أربط هذا الموقف بوصيته التي تركها لرفاقه وأوصاهم بحرق جسده بعد موته؛ لكن رفاقه: سلام الراسي، مير مسعد، جورج الزوربا وشوقي الحداد وجورج بركات لم ينفِّذوا هذه الوصية لظروف رفض المؤسسة الدينية والكنيسة حيث استحالت القضية أن تعبر إلى التنفيذ!

إنَّ الجرداق الذي شاء بعد رحلته مع الفلاسفة الماديين، حاول أن يكشف أسرار المؤسسة الدينية من خلال محاولته التي فشلت عندما دخل إلى دير المخلِّص ولم تدم طويلاً حيث كان عليه أن يرتسم راهباً؛ فغادر الدَّير بعدما تخلخلت اقتناعاته تاركاً لهذه التجربة قصيدة عنوانها: "كنتً راهباً" وهو القائل:

لقدْ كنتَ في "دير المُخلَص" راهباَ — أُروِّضُ أفكاري فصــرتَ محاربــا

ورُحْتَ يهزُّ الظّلّمُ طَرْسي ومَرْقمي — أُقــوِّضُ آثامــاَ وأبنـــي مناقبــا

فمـــاذا يُفيـــد العـــالمين ترهُّبـــي — وإذا ما قضيتُ الليل أرعى الكواكبــا

وحاولتَ باسم الدِّينِ إغراءَ أمَّتـــي — فـــأبتزُّ أمـــوالاَ وأجبـــي ضـــرائبا

حرام العمر الحق إطعـــام فرقـــةٍ — إذا لـــم تعرِّقهـــا جبينـــاَ وحاجبــا

لذلك فضَّلْتَ الجهــادَ مــع التَّقــى   فلــمْ أكُ دجَّــالاَ ولــم أكُ كاذبــا

والجرداق الذي بنى فكره على نزعة الهدم، كان والده سجعان يبني بتعبه العمارات الشاهقات، ويقصِّب الحجارة بشاقوفه، ويقتلعها من الصخور الصلبة، وولده يبني بقلمه القصائد العصماء التي تخلخل أركان السلطة الجائرة، وقد قيَّحته منها المحن وأساليب الجور والظلم والتجهيل. وقصائده الثورية كان يقابلها عنده رباعيات وسداسيات، فيها ما فيها من بث الهموم، ولواعج الحب، وسلوى الروح. بالواقع إنَّ ثورته لم تبعده عن الغزل والعشق الذي كان يحكي في هذا الشعر أحاسيسه وواقعه النفسي، وقد كانت الخمرة رفيقته ومثار أشواقه، ومسرحه، ومحطات هواجسه وبثّ خواطره وعنها يقول: "إنَّ هذه الرباعيات ما هي إلاَّ صور من الحياة تعبِّر عن هواجسي وخواطري، فهي زفرات نفثها روحي السجين في هذا العالم الذي جئته مرغماً، غاضباً وأفارقه مرغماً فارحاً".

شِعر الجرداق كان نسيجاً من ذاته وفكره، وانعكاساً لمرآة الواقع وعذابات الناس، وما كان يكابده المجتمع، وشكواه كانت من السلطة وما تمارسه من فساد وإهمال لقانون وجودها. من ميزة الجرداق أيضاً ليس إخلاصه لكل ما يصبو إليه من تحقيق الأماني الكبار لشعبه؛ كان مرجل غضب عند إلقاء شعره، فيخيَّل للسامع أن جحفلاً يمشي خلف صوته الجهير الأجشّ، كأنَّ وقعه رعدٌ يهدر، وبرقٌ يزمجر من شرار قوافيه النَّارية الرنَّانة!

هذا الجرداق الذي كان شكله ليس ككل الرجال. فهو ربع القامة كبير الرأس، عيناه عينا أسد يزأر في غابة، تحت جفنين وحاجبين كشوك البلاَّن وشعر منفوش، ووجه يستدير تحت جبهة عريضة، وجسد ممتلئ، وإذا ما شاهدته يمشي تحسبه محدلة أو مجنزرة تهدر لقدميه الراسختين، وجذعه الصلب. إنَّ هذا الوصف يقودني لأرسم عنه وعن تصوُّره لنفسه ولأبيه، صورة ليست بعيدة عن هذا الكلام.

أولاً، كانت رفقته لسلام الراسي، ومير مسعد وسائر الرفاق والأصدقاء قائمة على منادمة مثيرة لما فيها من قاموس الحكايات والطرائف. وقد كان سلام معه مشاكساً باستمرار، ومثار استفزاز لعبقرية الجرداق. قال له سلام مرَّة: كيف تصف لنا نفسك؟ فأجاب: شاعر ساخر ثائر. وشأنك بالحب، أجابه: خاسر؛ وبالمال، أجابه: طافر، وبالخمر، أجابه أنَّها شرّ الكبائر.

إنَّ معايشتي لهؤلاء الكبار كانت كولد يتطلَّع إلى عمالقة. كنا ونحن في هذه السن نختطف منهم الأخبار التي يتداول بها الناس من الأهل والأصدقاء، لأنَّ الحياة كانت حدودها مختصرة، ومنغلقة على ذاتها، نوادرهم كانت تنتشر ليتندَّر بها الناس في ليالي السَّمر، والزمن زمن نضال، وانتماء إلى عقائد. سلام ومير وشكرالله كرم وجورج بركات وشوقي الحداد وجورج الزوربا يبشِّرون بالفكر الجديد، والجرداق يعكس هذا التبشير بشعره، إنَّ هذا الركب القائد حوَّل افكار الناس إلى الطريق السوي نحو امتلاك الوعي الوطني، وإدراك قيمة الحرية وحقوق الناس وكراماتهم وعزَّة النفس. أجل لم تكن المفاجآت منتظرة سوى زمن الانتداب. كان غادراً لهم والوشايات عند

العملاء جاهزة، وعسكر المستشار الفرنسي لهم بالمرصاد؛ في مثل هذه المفاجآت كان الجرداق بلحظةٍ ما في مظاهرة ما في موقفٍ محرج يستخدم موهبته ليرتجل الشعر في مناسبات كهذه لأنَّ ابنة العنقود كانت تساعده ليكون الصوت الذي يستجيب في وقت الحرج. وابنة العنقود التي رافقته حتى الثمالة، فاجأ فؤاد رفاقه بالإحجام عن احتسائها. فعلم سلام بالأمر ليتحدَّاه ــ وسلام شاعر ــ بقصيدة يدعوه فيها إلى احترام قراره وبعدم احتسائها، وهذا التحدِّي كان مبعث مناظرة شعرية من خلال الصحف في القلم الصريح وصدى الجنوب لتستمر أشهراً فيها ما فيها من جمال العبقرية عند الاثنين، وتحوَّلت إلى مصدر نقاش وتجاذب حين تدخَّل من يفصل بينهما من الشعراء في منطقة مرجعيون ليصلحوا ذات البين قريضياً. وبالواقع خرجت هذه المناظرة إلى الناس بانعكاس إبداعي من خلال المساجلات بكل ما فيها من طرائف وأحاسيس نفسية وفكرية وسيكولوجية بأدب محبب فيه الظُّرف وخفَّة الروح بعيداً عن العدائية أو الجفاء.

ولكي يردّ الجرداق المكيدة التي نصبها له سلام الراسي، لم ينم على ضيمه فشاء بدوره أن يبادر سلاماً ليأخذ منه موقعاً معاكساً يعلِّل ويحلّل على طريقته الساخرة بألسنية لها مخارجها تقوم على دراسة الأحرف التي يتركَّب منها اسم سلام وعائلته، فقال لسلام: يا سلام ألا ترى أنَّ هناك مفارقة كبيرة بين اسمي واسم والدي وعائلتي، واسمك واسم والدك وعائلتك؟ قال: خذ مثلاً: اسم سجعان هو من الكدعان والشجعان؛ وهذا يعني أنَّ له في النفس رهبة، في حين اسم يواكيم (وهو والد سلام) والله يعلم بخلقه، هو اسم

الوداعة والهدوء، اسم لا يوحي إلى الرفض بشيء، أما عائلتي الجرداق فهي اسم يحمل دلالة الرجولة والخشونة بكل معانيها، وفؤاد جرداق مثلاً في لفظه وَهْرَة وهَيْبَة، في حين اسم سلام فهو ناعم أملس.

أجل إنَّ الجرداق الذي فتح باب المقارنة تلك يهدف بها لأمرين: أولهما معنى الرجولة وهو رمز الحياة في ذلك الزمان، وثانيهما ليضع مقام هذه الرجولة بموقع التصدِّي والمواجهة. وهذا كان ردّ الفعل لأسبابٍ حدثت عام 1925 بين جديدة مرجعيون والزاحفين لاحتلالها وإحراقها.

وهنا، وعلى حاشية الكلام المُشار إليه بمواقفه المحدَّدة، تعود بي الذاكرة التي ما زالت تحفظ هيبة سجعان جرداق الذي كان يزور نسيب والدتي كمال، كما سبق وذكرت، وأخوه نديم زميلاه في الحرفة، كيف كانت تستقبله حارتنا الشمالية بالترحاب في إبل السقي، صورته تلك لم تبرح مخيلتي، وهو بكلِّ وقاره وهيبته. كان شكله من رجال ذلك الزمان، له شاربان يكاد النَّسر أن يقف على جهةٍ منهما، يرتدي سرواله "الستّك روزه" وتبدو على وجهه رجولة مميَّزة، وبأس إذا ما مشى كنتَ تسمع الأرض تئنُّ تحت نعلَيْه ليترنَّح الحصى صرصاراً تحت قدميه. إنَّه من قبضايات رجال زمانه.

من هذا المقلع البشري جاء فؤاد جرداق شاعراً وإنساناً وطنياً بكلِّ ما تعنيه الكلمة. جاء أديباً، وخطيباً مهندساً ومعلِّماً وصحفياً، كتب في معظم صحف ومجلاَّت العراق ولبنان وفلسطين وسوريا ومصر. رجلٌ ملأت سيرته وأقواله مع تلاميذه في مدرسة مرجعيون الوطنية وخارجها طرائف ما زالت تعيش في أذهان معاصريه. لقد ملأ الدنيا وشغل الناس. رجلٌ عاش نصف قرن وما يزيد، ما بدّل مواقفه، بل على العكس، بقي حتى الرمق

الأخير مناضلاً من أجل القضية العربية وأخصُّها فلسطين والقضية اللبنانية وتحديداً الاستقلال، أما الطائفية فكان يحاربها بشراسته المعهودة، والدَّليل على ذلك ما أطلقه على أسماء أولاده الثلاثة (أحمد / وسام) (زينب / وفاء) والطفل (علي).

فؤاد جرداق كان ضمير زمنه، شاعراً من طينة الأحرار، عايش تاريخ الجنوب والمحن التي مرَّت عليه؛ سيبقى الجرداق نبراساً حياً يتردَّد شعره ــ شعر التمرُّد والتحدِّي، شعر الرفض والهدم من أجل خلق بديلٍ أفضل.

وأبلغ ما أختم به هذه السِّيرة الذاتية لشاعر المرج والمواقف المتحدِّية، بعض أبيات من سينيَّته المشهورة والتي قال فيها مخاطباً مَنْ يعنيهم الأمر:

وطـــنٌ يُفضِّـــلَ أنْ يُـــذَلَّ أبيُّـــهُ   وأنوفَـــهُ كـــي يســـتعزَّ خسيسُـــهُ

يشقى بِهِ الحُرُّ الأبـــيُّ كمـــا بِـــهِ   يسمو اللّئيمُ ويرتقـــي منجوسُـــهُ

ما حالَ شعبٍ خاملٍ أَلِـــفَ الـــونى   يرتادُ سائسُهُ الخنـــى ومسوسُـــهُ

قلْ للطغاةِ سيُبْعَثُ الـــوطنُ الـــذي   بُعِثتْ مِنَ الجُرفِ القـــديمِ نفوسُـــهُ

خانتْ حُماةَ رجالِـــهِ وهـــي التـــي   أمستْ وغربانُ الخـــرابِ تدوسُـــهُ

وتعـــــدَّدتْ أديانُـــــهُ فتلوَّنَـــــتْ   بطيوفِهـــــا أردانُـــــهُ ولبوسُـــــهُ

وفي لاميَّته حدَّد موقفه العروبي عندما كشف ستر بني صهيون بقوله:

أبناءُ "صهيون" الـــذين تزاحمـــوا   كتـــــزاحُمِ الغـــيلانِ والأصـــــلالِ

شـــذاذ آفـــاقٍ طرائـــدُ نِعمَـــةٍ	**لبســـوا ثيـــابَ الحيـــفِ والإذلالِ**
القـــاتلون الأنبيـــاءَ كراهَـــة	**مـــنهم لطيـــب مناقِـــبٍ وخـــلالِ**
هُمْ يرقصونَ على براكين الـــرَّدى	**يتجـــاهلونَ مـــوارجَ الزِّلـــزالِ**
يتـــآمرون ويجهلـــون بأننـــا	**عَرَبٌ لدى الهيجا وأسْدُ رجـالِ**
شطِرَتْ لإفنـــاء الغـــزاةِ رجالنـــا	**شطرين: شطرُ وغىً وشطرُ نضالِ**

وأخيراً من دون أن اشرح او أعلِّق على شعره الذي ساده الوضوح، أكتفي بهذا القدر من الشواهد التي لا حصر لها، ليبقى شِعر الجرداق شاعر المرج الخصيب عنوان المراحل النضالية للأجيال ما دام في دنيانا ظُلمٌ، وعلى حدودنا عدوٌّ يضمر لنا الشرّ. فؤاد جرداق عالَمٌ بكامله في شِعره النضالي من أجل الحرية والعدالة والحب والخير والحقّ والسلام.

<u>ملاحظـــة</u>: استقيت المراجع:

أولاً: من دواوينه الثلاثة

ثانياً: من معايشتي له.

ثالثاً: من دراستين: واحدة لغالب النَّاهي ، الشاعر العراقي ، والثانية لحبيب صادق من كتابه "قضايا ومواقف".

دراسة في ديوان "حصاد الأشواك"
للشاعر عبد الحسين عبدالله

بقلم: د.فؤاد مرعي
(كاتب، روائي وطبيب)

1ـ نبذة عن حياة الشاعر والظروف التي عاش فيها

وُلِد الشاعر عام 1900 في بلدة الخيام وفي بيت أدبي. فقد كان والده إسماعيل العبدالله من متذوّقي الأدب والشعر، وكان له ثلاثة عشر أخاً هُم أولاد الجد الكبير الحاج حسن عبدالله. وبعض هؤلاء الإخوة كانوا أدباء وشعراء. في هذا الجو نشأ الشاعر حيث كانت في متناوله عشرات الكتب في مكتبات عائلته. تعلَّم الصرف والنَّحو في مدرسة الخيام التي أنشأها الشيخ حسن صادق وكان الشيخان عبد الكريم صادق وعبد الحسين صادق، وهما شاعران معروفان، من جملة مَنْ تلقّوا العلم في هذه المدرسة(*). هناك تعرَّف إلى العلاَّمة المُتفقِّه باللغة العربية الشيخ موسى مغنية وهو عالِم ضرير جليل. كما تعرَّف إلى الشاعرين الكبيرين الشيخ محمد حسين شمس الدين والشيخ علي مهدي شمس الدين.

(*) راجع جريدة "السفير" 18 و19 أيلول 1984 ــ مقابلة للشاعر مع عباس بيضون.

في تلك الأيام كان في كل بلدة في جبل عامل نادٍ أدبي حيث كانت تُعقد اجتماعات ولقاءات تدور كلها حول الأدب والشعر. هذه المجالس كانت تُعقد في صور وطيردبّا وشقرا وبنت جبيل وميس الجبل والخيام والنبطية وغيرها من البلدات. كان من أركان هذه المجالس الشيخ عبد الحسين صادق والحاج محمد عبدالله، بالإضافة إلى مشايخ النبطية وعلى رأسهم العلاَّمتان الشيخ سليمان ضاهر والشيخ أحمد رضا.

وكانت المناسبات العامة والخاصة (الأسابيع، المناسبات الدينية) سوقاً للأدب والشعر. وقد اعتُبرت بعض بلدات جبل عامل في تلك الأيام حواضر للأدب والشعر وكان هناك "أُسَر أدبية" تتوارث الأدب والدين أباً عن جد.

وقد ذاع صيت الشاعر مع صديقه موسى الزين شرارة حيث شغلا منابر جبل عامل ومجالسه ردحاً من الزمن.

كانت المنطقة تشهد في تلك الأيام حركة سياسية وشعبية مناهضة للإنتداب الفرنسي ورجالاته في الداخل وللزعماء السياسيين الذين ساروا في ركبه. وكان شعراء جبل عامل في طليعة مَنْ وقف ضد الانتداب الفرنسي, وقد ساند عبد الحسين العبدالله أحمد الأسعد عندما كان ضد الفرنسيين. لكنَّه ابتعد عنه بعد ذلك لأنَّه "استقوى وارتدَّ علينا بعدما فاز بالنفوذ والشعبية" (راجع المقابلة التي سبق ذكرها في جريدة "السفير").

اعتقل الفرنسيون الشاعر لمدة ستة أشهر في راشيا الوادي (وكان صديقه علي بزي معتقلاً في سجن المية وميه). حدث هذا عام 1941.

وكان للشاعر وظيفة صغيرة في إحدى الدوائر الحكومية أكلت عمره وجعلته يتنقَّل من مكان إلى آخر، بين الجنوب والشمال وجبل لبنان. كما فُجع

بوفاة ابنه الأديب كامل العبدالله في حادث سيارة وكان نائباً لرئيس الحزب التقدمي الاشتراكي بزعامة كمال جنبلاط.

يقول الشاعر أنَّه تأثَّر بعدد من الشعراء من مجايليه أمثال الشيخ عبد الحسين صادق والشيخ محمد حسين شمس الدين. ومن القُدامى تأثَّر بالمتنبِّي وأبي تمام ودرس شعرهما درساً عميقاً. كما تأثَّر في الغزل بشعر عمر بن أبي ربيعة. أما من الشعراء المعاصرين فيقول أنَّه تأثّر بإيليا أبو ماضي والقروي وأحمد شوقي، وبشعراء عراقيين أمثال الجواهري والرصافي والزهاوي والشبيبي والشرقي.

أخيراً يقول: "لقد أثَّر فينا ديوان الثورة الذي ضمَّ قصائد للأمير عادل أرسلان والقروي وغيرهما في ثورة سلطان باشا الأطرش. هؤلاء ألهمونا بمواقفهم لا بشعرهم. فقد كنَّا في شعرنا نستلهم مصائب جبل عامل وأوضاع جبل عامل".

أما عن رأيه في الشعر الحديث فيقول في مقابلته مع جريدة "السفير" المُشار إليها أعلاه:

ــ ذهب رجلٌ إلى الشَّام ومعه دفتر فيه شعر حديث فظنّوا أنَّه يحمل شيفرة ويتجسَّس وكان مصيره السجن. وقد قلتُ بيتاً يتضمَّن كل رأيي:

تُحدِّثُنـــي ولــمْ أفهــم عليهــا
كأنَّ حديثهــا الشِّــعر الحديــث

2 ــ الدراســـة

للوهلة الأولى يظن قارئ ديوان "حصاد الأشواك" للشاعر عبد الحسين العبدالله أنَّه أمام شاعر عادي من أولئك الشعراء الذين ذاع صيتهم كناظمي شعر في المناسبات، أو مُدبِّجي قصائد هي نتاج انفعالات شخصية وشعور بالظلم والحرمان تحوّل فيما بعد سخطاً وغضباً وتحدياً للإقطاع والزَّعامات.

يُعزِّز من هذا الانطباع المُتسرِّع الذي تنقصه الدقَّة أنَّ أبرز القصائد التي كتبها الشاعر والتي لفتت الأنظار إليها هي تلك التي هجا فيها زعيماً مُستبداً، أو وجيهاً جاهلاً، أو موظفاً فاسداً، أو تلك التي اشتكى فيها مباشرة من شظف العيش ومرارة الأيام. سيَّما وأنَّه لم يعتنِ كثيراً بلغته الشعرية، ما حدا بابنه الأديب كامل العبدالله إلى القول أنَّ الشاعر أصرَّ على أن تبقى قصائده كما هي دون تنقيح كأنه أراد أن تكون استمراراً لفوضوية الحياة التي عاشها ودليلاً على قلقه وتمرُّده.

بيد أنَّ ما ميَّز شعر عبد الحسين العبدالله بالفعل هو التعبير الصادق والقوي عمَّا كان يعتمل في نفوس الناس في مرحلة تاريخية مليئة بالظلم والاضطهاد سواءٌ من جانب الانتداب الفرنسي، أم من جانب الإقطاع السياسي والديني. فقد تناقلت ألسُن العامة في جبل عامل أبياته الهجائية الساخرة المُتحدِّية لرجال السلطة ما جعله ينطق باسم " النخبة الرافضة للوضع القائم" لا بل باسم عامة الشعب أيضاً في نطاق المنطقة التي عرفت شعره. فكان له تأثير على الصعيد المحلي مُوازٍ لتأثير بعض كبار الشعراء على الصعيد العربي. ألا يُذكِّرنا شعره بمظفَّر النوَّاب مثلاً؟ أو بالجواهري حين أنشد قائلاً: "**نامي جياع الشعب نامي حرستكِ آلهــة الطعــامِ**"؟

لنرَ إذن ماذا يقول عبد الحسين العبدالله في قصيدةٍ بعنوان "بين عهدين":

قرودٌ على كرسي الشّريعة تجلسُ وأقــزامُ أقــوامٍ علينــا تــرأسُ

حكومة هذا اليوم كالأمسِ لمْ يزَلْ يقربُ فيهــا الخــائنُ المتجسِّــسُ

وعهدُ رياضٍ مُظلمٌ مثــل غيــره وأشقى من العهد القديم وأنحــسُ

فلو كنتَ أدري أنَّ هــذا مصــيرُنا لما كان قبلــي واحــدٌ يتفــرنسُ

وما كنتَ لاقيتَ الذي قــد لقيتــه فأَبعَدُ عن أهلي وأُنفــى وأُحــبسُ

لقد صوَّر الشاعر أصدق تصوير الحالة السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة في تلك الأيام في جبل عامل، حيث كانت الأغلبية الساحقة من الناس تنوءُ تحت ثِقَل الفقر والحرمان فيما كانت طبقة صغيرة من الإقطاع السياسي والموظفين الفاسدين تنعم برغد العيش وتبسط نفوذها غلى سكان القرى والبلدات العاملية مستقويةً بقوى السلطة المدعومة دائماً من الأجنبي. يقول في قصيدة عنوانها "خراج"(*):

لمن الخرافَ تســوقها الحــراسُ ولمـــن تَعبَّــأ هـــذه الأكيـــاسُ

عجباً نسيرُ إلى الــوراء جميعنــا وإلى الأمام غدت تســيرُ النـــاسُ

(*) هذه القصيدة ألَّفها بعد فوز أحمد الأسعد بالنفوذ والشعبية وارتدَّ على الشاعر، وكان الأخير قد أيَّده سابقاً لأنَّه كان ضد الفرنسيين.

شعبٌ يئنُّ من المصـــائب والأذى والظّلم يطغى والحقــوق تَــداسُ

أتريــدُ أن تحيــا وفيــك زعامــةَ ويـــدٌ تســـلب مالنـــا وتَبـــاسُ

لقد طغى المضمون التحرري على شِعر عبد الحسين العبدالله سواءٌ أكان في السياسة أم في الإجتماع أم في الثقافة. وقد استطاع على الرغم من تواضع تحصيله العلمي والثقافي أن يُثبت ما يُمكن للإنسان الحر أن يفعله بفطرته وسليقته حين يضعهما في خدمة الكلمة المتمرِّدة.

لهذه الأسباب مجتمعةً بقي شعره مُلتصقاً بهموم الناس وقضاياهم الراهنة. دون أن يعني ذلك أنَّه لم يطرق موضوعات أخرى.

ولقد دفع ــ ككل الكتَّاب المتمرِّدين ــ ثمناً غالياً لمواقفه حيث بقي مغضوباً عليه من السلطة وتعرَّض للمضايقة ولنقل مكان وظيفته من الجنوب إلى الشمال عام 1937 على يد الفرنسيين، وكان في كلِّ مرَّةٍ يخضع فيها للعقاب ينظم مزيداً من القصائد.

لقد دلَّ إصراره على مواقفه أنَّ ما تبنَّاه من أفكار ومبادئ لم يكن وليد حالة غضب أو انفعال عابر، وإنما كان جزءاً لا يتجزَّأ من طباعه وثقافته الشخصية، فإذا ما استفزَّته أمورٌ مُعيَّنة ظهر على حقيقته: شاعراً مدافعاً عن رأيه بالكلمات والمعاني التي كانت تجلد وتؤلم أحياناً.

ومع أنَّه قد أفصح في إحدى قصائده عن خيبة أمله من العقائد التي آمن بها ذات يوم:

حملنا على رغم الليـــالي عقائــداً　　رمتنا بـــأنواعِ الأســـى والشّـــدائد

ولَمْ أرَ أشقى مـــن نفـــوسٍ أبيَّـــةٍ　　تنوء على الدُّنيا بحمـــل العقائـــد

إلاَّ أنَّه امتدح في قصيدةٍ أخرى موقف النساء اللبنانيات اللواتي جمعنَ ألبسة لمحاربي ستالينغراد أثناء الحرب العالمية الثانية:

بنـــاتَ لبنـــان هـــزَّتهنَّ عاطفـــةَ　　وخِفْنَ من بردِ كانون على الروسِ

فرُحنَ يجمَعْنَ أصـــوافاً وأقمشـــةَ　　ينسجنَ للروسِ منها خير ملبوسِ

ونتابع رحلتنا مع الشاعر فنكتشف بعد قراءة ديوانه المليء "بالأشواك" أنَّه كان مستوحداً يشعر بالغربة عن أهله ومجتمعه. وهو يقول في قصيدةٍ عنوانها "الوحدة":

أنا في عالَمٍ بعيـــدٍ عـــن النـــاس　　وإنْ كنـــتَ بـــين جمـــعٍ غفيـــرِ

أتلوَّى علـــى فـــراشٍ مِـــنَ الهـــمِّ　　وإنْ نمتَ فـــي الفـــراشِ الـــوثيرِ

مـــا شـــربتَ المُـــدام إلاّ لألهـــو　　ساعةَ عن صـــغيرتي وصـــغيري

كما كتب قصيدة بعنوان "الردَّة" مطلعها:

رفـــاقي كلّهـــم نكثـــوا العُهـــودا　　لِذاك اختـــرتَ أنْ أبقـــى وحيـــدا

فـــإنَّ بوحـــدتي إرجـــاعَ عهـــدٍ　　قـــديمٍ كنـــتَ أحيـــاهُ ســـعيدا

ولا يخلو ديوان الشاعر من قصائد ذات طبيعة تأمُّلية وقصائد غزل وشغف بالأرض والطبيعة والمرج والصفصاف، ما يكشف عن جانبٍ آخر من شخصيته. إلاَّ أنَّ السِّمة الغالبة على شعره وحياته تبقى سمة القلق الدائم و"الفوضوية" وفقاً لتعبير ابنه كامل. لكأنَّه ينطبق عليه قول المتنبِّي: "على قلقٍ كأنَّ الرِّيح تحتي".

إنَّها بعض سمات الشعراء الحقيقيين وقد بلغ البعض منهم درجات عُليا من التمايز والغرابة أدَّت بهم أحياناً إلى الإصابة بجنون العظمة. ولنا في الشاعر سعيد عقل مثالٌ ساطع على ذلك. لكن شاعرنا لم يبلغْ هذه الدرجة من الاغتراب عن الواقع. وتُعبِّر القصيدة التي كتبها تحت عنوان "يائس" أصدق تعبير عمَّا كان يتجاذبه من أفكار ومشاعر متناقضة فلا يكاد يرسو على حال. وقد وصف نفسه في تلك القصيدة بـــ"غريب الأطوار والعقل":

مللتَ أحبائي ونفســـي وكـــلَّ مـــا	**على الأرضِ من شكلٍ بديعٍ ومن حُسْـــنِ**
وأصبحتَ بين الناسِ أحيا كـــأنّني	**مِنَ اليأسِ إنسيٌ أعيشَ مع الجـــنِّ**
غريباً بأطواري وعقلـــي كـــأنّني	**بيداءُ أرضٍ قفرةٍ فـــاتني ظعنـــي**
أرى كل ما تبكي له الناس مُضحكاَ	**وما يُضحك الإنسانَ يدعو إلى الُحزنِ**
بفكري مساءً ألفُ أمرٍ وفي الضُّـــحى	**أقومُ منها لا يعي واحـــداً ذهنـــي**

تكشف هذه الأبيات عن حالةٍ من التشوُّش الفكري تُذكِّر بالإضطراب الفلسفي الذي ساد طوال حقبةٍ من الزمن (أواسط القرن الماضي) في أوروبا نتيجة هيمنة الفلسفة الوجودية.

لقد كانت قمة اليأس والفوضى والبحث عن المعنى. "فالحرية هي الرعب" كما يقول سارتر. و"الإنسان هو عاطفة غير مجدية".

أما ألبير كامو فقد كتب رواية لا مثيل لها تحت عنوان "الغريب"، يقول في مستهلِّها:

" لقد ماتت أمي اليوم أو بالأمس، لستُ متأكِّداً".

إنَّ عدم التأكُّد من المشاعر والأفكار والتشكيك بالأمور هي سمة من سمات شعر عبد الحسين العبدالله. وهو ما جعل الوعي لديه مشوَّشاً أو مُتقلِّباً والرؤية ضبابية، على العكس تماماً مما ذهب إليه سارتر على لسان بطل قصَّته "مذكرات روكانتان": "إنَّ سبب محنتي هو أنَّني أرى أعمق من اللازم".

فشاعرنا يقول في قصيدة "يائس":

أرى اليوم رأياَ في غَـدٍ لا أَقــرُّه يُقبِّحـــهُ عقلـــي ويُبعـــده ظنَـــي

إنَّها قمة الشك والتقلُّب في الرأي. وقد عانى من هذه الحالة معاناة شديدة. فلم يكن التأرجح اليقيني عنده نتيجة تفكيرٍ يرى أعمق من اللازم بقدر ما كان نتيجة أحاسيس رقيقة سريعة العطب وهو ما يُميِّز الشعراء عن الفلاسفة. فعبد الحسين العبدالله لم يكن مُفكِّراً غارقاً في أفكاره وإنَّما كان شاعراً غارقاً في أحاسيسه. وكان حائزاً مواصفات الكاتب "اللاَّمنتمي" (وفقاً لدراسة كولن ولسون التي صدرت في منتصف القرن الماضي). فهو لم يُعلن

انتماءً صريحاً لمفاهيم ثابتة أو تقاليد متداولة أو عصبية محدَّدة. لقد بقي عازفاً منفرداً على الشِّعر لا يهمُّه إنْ كانت ألحانه تُعكِّر صفاء الإقطاع السياسي الذي أراد أن يبقى أبناء جبل عامل غارقين في النوم. بهذا المعنى مارس حريَّته الكاملة وتحمَّل المسؤولية عن هذا الخيار.

وعلى الرغم من الفوضوية التي طبعت حياته وشعره إلاَّ أنَّه كان يُدرك في قرارة نفسه أنَّها ضريبة مَنْ يختار أن يُرخي العنان لقريحته الشعرية لكي تسرح وتمرح على هواها وكيفما أرادت. لكن هذا لم يمنعه من أن يكتب قصائد تناول فيهاقضايا حياتية وعائلية، منها قصائد رثا فيها بعض أفراد عائلته، وأخرى هجا فيها "شباب تلك الأيام" حين شبَّههم بالبنات:

قالوا الشّباب ولستَ أدري مَنْ هُمُ إنَّ الشَّباب عزيمةَ وثباتَ

يغلي الدم العربي في أعراقهم ولهم إلى أوج العلى وَثَباتَ

لا تغرَّنك في الشَّباب ملامحٌ خلاَّبةَ فقلوبهم أمواتَ

نظموا الشعور ونعَّموا وَجَناتهم فهُمُ إذا قضت الظروفَ بناتَ

وقد كان للشاعر صولات وجولات أيضاً في ميدان الغزل حيث كتب قصائد عديدة وصف فيها حالات العشق والولَه التي خبرها، وأخرى تغنَّى فيها بالجمال اللبناني كما في قصيدة "سوق المهارى" حيث يقول:

نصبوا للجمالِ عرشاً بلبنان وجاؤوا بالفاتنات الحِسانِ

يتوافَـدْنَ للسِّـباقِ المهـارى ليتَ لـي مهـرةً مِـنَ الميـدانِ

بارزاتَ النّهودِ يعرِضْنَ في السُّوقِ بـديع الرمَّـان قبـل الأوانِ

أما في قصيدة "قُبلة مذعورة" فيقول:

تحت ظـلال الحـورِ والزيزفـون كان الهوى العذب وكان الجنـونْ

كم قَبلـةٍ فـي الوجـهِ مـذعورة مرتجَّة كـالطّيرِ فـوق الغصـونْ

بعد ذلك يعود ليتحسَّر في قصيدة "همسة" على أيام الشباب التي ولَّت بحيث لم يعد بإمكان الشاعر أن يُلبِّي دعوات الهوى والعشق الصادرة عن همس العيون:

همست عيناكِ فـي قلبـيَ سـرًّا فغـدا يخفـقَ بالحُـبِّ وفـرًّا

مـا الـذي تبغـينَ منـهُ ذهبَـتْ مفرحات العمرِ والعـيش اكفهـرًّا

الشّـبابُ الغـضُّ قـد ودَّعتـهُ وفـؤادي مـن أمانيـه تعـرَّى

وبالإضافة إلى الغزل نظم الشاعر قصائد مديح ببعض الأشخاص الذين عرفهم فعدَّد مآثرهم كما فعل مع مدَّعي عام الجنوب آنذاك شفيق أبو حيدر حيث لم يخلُ شعره من الطرافة والظرف:

شـفيقَ خيـرةَ الحُكّـامِ طـرّا نزيـهُ الخَلْـقِ واليـدِ والكـلامِ

ولا عيبـــــاً ارى بشـــــفيقَ إلاّ تمسُّـــــكَهُ بأوقـــــاتِ الـــــدَّوامِ

إذا ذهبَ القَضــاةَ مشـــى أخيـــراً وإنْ جاؤوا ففي الصفَّ الأمـــامي

لقد ظلَّت علاقة الشاعر بمحيطه الاجتماعي،علاقةً يسودها التوتُّر والمدّ والجزر. فكان الغزل والمديح حالتين استثنائيتين في شعره، فيما هيمنت عليه موضوعات الهجاء والنقد والسُخرية والشكوى من سوء الأحوال ومن ممارسات رجال الدين والسياسة.

فعن سوء الأحوال يتحدَّث في قصيدة من بيتين فقط عنوانها "الموظَّف" فيقول:

إذا ما أطلَّ الشّهرُ أبغـــي زوالـــه لكي أتقاضى راتبي آخـــرَ الشّـــهرِ

كأنَي أبيعُ العمرَ فـــي مـــا أنالَـــهُ فيا بؤسَ عيشٍ بعتُ من أجله عمري

وعلى الرغم من ثورته على الانتداب الفرنسي وعلى الحُكَّام ورجال الدين، فنحن لا نعثر في شعره على قصائد فخر، وإنَّما على أبياتٍ متفرِّقة وردت في عددٍ من القصائد. فقد كتب في قصيدة "عناء" يقول:

إذا فرَّ أصحابي فلا أقتـــدي بهـــم فللقومِ أعذارٌ وما ليَ مـــن عُـــذرِ

وأثبت في الميدانِ وحدي مرابطـــاً فما عوَّدتَ قومي تنوخ على الفـــرِّ

وإنْ متّ لا أخشى بموتي هزيمـــةَ سأتركُ في الميدانِ جيشاً من الشّـــعرِ

وفي قصيدة "نداماي" يفتخر بأنَّه قد فضَّل قراءة الكتب على صحبة بعض الأصدقاء الجاهلين:

اتخذتَ كتابي في الحيـــاةِ جليســاَ وفارقتَ أصناماً مُســـخنَ تيوســـا

نداماي قيسٌ والمعــرّي وأحمــدٌ تعلّمتَ مـــنهم حكمـــةَ ودروســـا

أما في قصيدة "مجاذيف" فيقول:

روائع اشعاري على كــلَ مبســـمِ وكلّ نوادي الحيِّ يملؤها ذكـــري

وإذا ما تحدَّثنا عن شعر عبد الحسين العبدالله، لا يمكننا إلاَّ أن نلاحظ ما أولاه من اهتمامٍ للخمرة، حيث واظب على ذِكرها في كثيرٍ من قصائده، ودافع عنها وحلَّلها لنفسه رغم تحريمها من قِبَل رجال الدِّين. والغريب في الأمر أنَّه قال في مقابلته مع جريدة "السفير"، أنَّه لم يكن يشرب الخمرة وأنَّه لم يتأثَّر بأبي نواس وشعره، وهو كان قد كتب قصيدة بعنوان "ديني" يقول في مطلعها:

أترِعِ الكأسَ خمــرةَ يـــا نـــديمي واسْقِني شَربةَ لأنســـى همـــومي

لا تقـــلْ حُـــرِّمَ المُـــدامُ علينــــا أنــــا أدرى بموضــــعِ التَحــــريمِ

ليس لي عِمَّـــةَ الشَـــيوخِ ولكـــن لا ترى مثل شـــاعرٍ مـــن علـــيمِ

وفي قصيدة أخرى عنوانها "الوليمة"، يأخذ على بعض رجال الدِّين شُربهم للخمرة خلال وليمةٍ أُقيمت في مدينة صور بحجَّة أنَّهم يطبِّقون الوحدة الوطنية مع نظرائهم من الطوائف المسيحية. يقول في مطلع القصيدة:

لِمَنِ الوليمةَ فـــي مدينـــة صـــورِ محفوفـــةً بـــالزَّمر والطنبـــورِ

جلسَ الرجالَ إلى الموائدِ وحـــدةً فالسيِّد المفضالَ جنـــبَ الخـــوري

والكأسُ دار على الجميعِ فلا ترى عينـــاكَ غيـــرَ الشّـــاربِ الســـكِيرِ

إنَّ أي دراسة موضوعية في شعر عبد الحسين العبدالله ، لا بدَّ من أن تأخذ بعين الاعتبار، أنَّ عائلته شكَّلت في تلك الفترة، مع كبريات العائلات الجنوبية، الطبقة السياسية التي حكمت جبل عامل، في الوقت الذي كان فيه المجتمع العاملي مؤلَّفاً من فلاحين وإقطاعٍ سياسي وديني، وهو ما يُعرف بالمرحلة الزراعية من التطور الاقتصادي الرأسمالي. ولأنَّ الشاعر كان ينتمي إلى فقراء عائلته، فقد غلبت على مواقفه الدوافع الطبقية أكثر مما غلبت عليها الدوافع العائلية. ولقد اشتكى مراراً من عدم وجود سندٍ له في دوائر السلطة، حيث يقول في إحدى قصائده التي بقيت بلا عنوان:

حكومتي حـــين أدعـــو لا تلبِّينـــي فليسَ عندي وسيطٌ في الـــدَّواوينِ

سوايَ يقفز فـــي الأيـــام راتبُـــهُ ويعتلـــي مـــن ثلاثـــينٍ لســـبعينِ

أما أنا فالسنونُ العشرُ قد ســـلفتْ وراتبي راتبي من يـــومِ تعيينـــي

إذا تذمَّرتَ من أفعـــالِهِم غضـــبوا وجيَّشوا لاضـــطهادي كالمجـــانينِ

يا للعجائبِ مـــا أقســـى قلـــوبَهُمُ ما في الحكومَةِ من حقَ ولا ديـــنِ

وكان الشاعر يفخر بأمانته ونزاهته وعدم سلوكه طريق المحاباة والتدليس طلباً للمنافع لدى أهل السلطة. وهو موقفٌ متقدِّمٌ بمقاييس تلك الأيام، حيث كان الفقر والظُّلم يُجبران الناس على الانحناء أمام الأقوياء.

أما موقفه من رجال الدِّين فهو أكثر ما طبع شعره. ولعلَّ قصيدة "كفَّارة" التي هجا فيها أحد رجال الدِّين، من أشهر قصائده، حيث يقول في مطلعها:

علاَمة العصرِ مَنْ أنباكَ قد كَـذِبا إنَي أصلَي فعقلي بعدُ مـــا ذهبـــا

ولِحْيَتي لم تَطَلّ يومـــاَ كلِحيـــتكم ولا عقَقْتَ كإبنِ الأســـعدِ الشّـــنبا

ولا حملتَ كـــذيلِ الهـــرِّ مســـبحةَ ولا تركتَ الهوى والشَعرَ والأدبـــا

نَكبتَ بالشّـــعرِ تكفينـــي نوائبُـــهُ دعني ومَنْ بالصَّلا والصَّوم قد نَكبا

ويقول في قصيدة أخرى بعنوان "الجنَّة الضائعة":

ما كنتَ أحســـبُ أنْ أرى متعمِّمـــاَ في جنَـــةٍ حتـــى دخلـــتَ جِباعـــا

في كـــلَ ناحيـــةٍ تلـــوحُ عمامـــةَ فتخالَها بـــين الريـــاضِ شـــراعا

مرَّتّ عليهـــا الغانيـــاتَ ســـوافِراَ فرمينَ من حَذَرِ الشّـــيوخِ قِناعـــا

وفررنَ ما بين الرِّيـــاضِ نـــوافراَ أترى الغواني قد رأيـــنَ ضـــباعا؟

والسؤال الذي يطرح نفسه هو:

هل كان الشاعر مُلحداً؟

إنَّ بعض قصائده يدلُّ على عكس ذلك. وقد صرَّح بنفسه أنَّ نقمته على رجال الدِّين في ذلك الوقت كانت دفاعاً عن الدِّين.

يقول في قصيدة تحت عنوان "هداية":

عرفتَ إلهي بعد خمسين حِجَّةَ … أَفتَشُ عنهُ هائماً بالفلا الرَّحْبِ

فأغضَيْتَ طَرْفي من حيائي وطالما … أضاء لعيني نورُهُ واضحَ الدَّرْبِ

أتيت إلى ربِّي ولَذْتَ بجاهِهِ … وقدَّمتَ أعذاري فسامحني ربِّي

كما كتب قصيدةً أخرى بعنوان "التوبة" يقول في مطلعها:

أتوبُ إلى الرحمن ممَّا جنيتَهُ … وربِّي خبيرٌ بالعبادِ بصيرُ

تبعتَ أَناساً ضلّلوني فها أنا … وحيدٌ ومالي مُسعفَ ونصيرُ

هُمْ غرَّروني لا سقى اللهَ عهدَهُمْ … فصرتَ على هذا وذاكَ أثورُ

أتيتَك يا ربِّي عن الأمسِ تائباَ … فأنتَ ملاذَ التّائبينَ غفورُ

لكأنَّ هذه الأبيات تروي قصة الشاعر مع مَنْ غرَّروا به فأبعدوه عن الهدوء الذي أتاه بعدما كانت الحياة قد نالت منه فصار يبحث عن مُسعفٍ ونصير.

لقد عاش عبد الحسين العبدالله حياةً حافلةً بالرفض والتمرُّد على الواقع المأساوي الذي رآه بعينين حالمتين، فانتهى به المطاف إلى الوحدة والانكفاء والشكوى لله. لقد خاب أمله بالناس وبالمصلحين على حدٍّ سواء. فكان هجومُهُ على رجال الدِّين أشبه بعاصفةٍ هوجاء أوصلته في النهاية إلى شاطئ الإيمان حيث الهِدايةُ والتوبة. وقد تماثل سلوكه هذا في بعض جوانبه مع تجربة بعض رجال الفكر والفلسفة في أوروبا، الذين تقلَّبوا ما بين الإيمان والشك، أو الإيمان بالدين وحده دون رجال الدِّين. في كل الأحوال يبقى الشاعر عبد الحسين العبدالله معْلَماً من معالم جبل عامل الراسخة في الأدب والشعر وشخصية متميِّزة تركت بصماتٍ لا تُمحى في ذاكرة الناس.

عبد المطلب الأمين
شعر ضائع وظلم ثُلاثي الأبعاد

بقلم: أ.محمد زينو شومان
(شاعــر وكاتب)

يقول حسين مروة في تقديمه للمجموعة المختارة الباقية للشاعر عبد المطلب الأمين:

" كتبت هذه الكلمات ـــ المقدمة ـــ بمعاناة قاسية.. كان حضور عبد المطلب كاملاً: حديثه، وجهه، ضحكته الحلوة ـــ المُرَّة، "جرحه" ألمه "العميق الملهم"، مرحه المتدفِّق من نبع الحزن... لم أستطع كتابة كلمة واحدة دن حضوره.. وهنا قسوة المعاناة..".

لقد اخترت هذه الفقرة من كلام مروة وفيها ما فيها من صدق القول وأثر الحزن والفراغ اللذين خلفهما رحيل عبد المطلب الأمين. والدكتور حسين مروة هو حامل مبضع النقد، بَقَر به سُرَّة التراث العربي، منقِّباً في سراديبه المتشعبة والمتشابكة الممتدة كامتداد أنفاق المناجذ، تنقيب عالم الآثار في باطن الأرض، أو الحفَّارين في مناجم الفحم الحجري والمعادن.

ولم يخرج من هنالك إلاَّ باستكشاف النزعات المادية في هذا التراث.

فعن أي غائب يتحدث مروة؟

مَنْ هو ذلك الضاحك ــ الحزين؟ المقهقه حتى ظهور نتوءات الأسى في سقف حلقه؟ الفاغر فمه على مصراعيه لتتراءى صخور الألم الدهرية خلف البلعوم والحنجرة.. هناك في مغاور الداخل!

الحقيقة أنني حين جئت لأتعرَّف إلى عبد المطلب صاحب "الجرح والألم "العميق الملهم" لم أجد أثراً مطبوعاً لا فوق رفوف المكتبات ولا تحتها ولا عند أحد. أما الوثيقة اليتيمة الباقية التي حصلت عليها فهي نسخة مصورَّة تنبئ، من خلال شكلها المتواضع وعريها، عن مدى حرص الذي يحتفظ بها حرصه على كنز قد انتشل تواً من يد لص هو النسيان، وكأنَّما هو خائف عليه أن يُفقَد ثانية. ذلك هو الصديق الكبير الأستاذ حبيب صادق الذي لم يزل في عزِّ نشاطه السبعيني يتابع بنفسه شؤون تنظيم ورش الندوات خطوة خطوة.

عبد المطلب الأمين.. هل نعود إليك نسائلك عن مفتاح البيت ومفتاح أشعارك وأحزانك الضائع؟

هل جئنا لاستذكار مواجعنا ونبش نواويس المعاناة؟

هل نفتح كيس الجنوب ونبعثر آلامنا وفجائعنا أمام الناس؟ هل نتحدث عن بؤسنا الثقافي: عن الإهمال وغض نظر الدولة وأصحاب الأموال والثروات والقابضين على أرزاق الناس وخناقهم، التاركين كنوزنا وثروتنا الأدبية والشعرية في هذا العراء كقطع النحاس القديمة يفتك بها الصدأ.. ولا

مَنْ يسأل عن إنشاء متحف أدبي لجمع ما تبقَّى من إرث الشعراء، وهزَّات الزلازل تسابق رفات جفونها رفات جفوننا؟

عفواً عبد المطلب إذا هدرت شقشقتنا ونحن أمام الباب الجنوبي.

وكيف نقوى على مغافلة الذكريات ونحن نقلِّب صفحات الجنوب شجرة شجرة وحجراً حجراً ونهراً نهراً.

أتسمعنا من خلف الباب يا عبد المطلب؟

ما هذا الشوق الذي شاخ وشخنا ولم نجد له حلاً ؟

كم نحن في أمسِّ الحاجة إلى هذا الفضاء الواسع، إلى قمصان واسعة كمثل هذا الفضاء لتسمح بالطيران لنا ولفقاقيع رغوة القلوب المغسولة، التي كلما غسلناها غطَّت وجوهنا رغوة "النوستالجيا" وغرقنا، حتى قمم الرؤوس الجرداء أو المغطاة بثلوج الوجع والشيب في جرن العذاب!

عفواً، مرة أخرى، عبد المطلب.

هذا هو حضورك الصاخب عاد ليملأ هذا المكان.

هل لمستنا بإصبع توما فتفجَّر القيح؟!

لقد جئنا لنتكلَّم عن غيابك وشجونك فإذا بك تتكلَّم عن غيابنا وشجوننا. فمَنْ يا تُرى صاحب المناسبة؟

نعود إلى التساؤل عن سيرتك وأحوالك وتحولاتك والسلالم التي ارتقيتها ثم انكسرت بك جميعاً. بعضها تحت وطأة همومك ومعاناتك، وبعضها الآخر من غدرات الزمان والمجتمع اللامبالي وظلم ذوي القربى وذوي السلطة

الذين في أيديهم مفاتيح الفردوس وأقفاله وعلم الأرحام القبلية والطائفية والمذهبية وعلم الفتن وأهوالها وعلم الكذب والنفاق.

ســـيرة ناقصـــة..

يروي مجايلو عبد المطلب وبعض متناقلي أشتات سيرته وأخباره أنه كان يضج حيوية ويشع من داخله توهُّج كتوهُّج البرق، له قوة الجذب المغناطيسي. وأنَّه كان شخصية باهرة كفيلة بجعله قطب المجالس والحلقات والحوارات فحيثما مال مالت معه الرؤوس والأنظار والأسماع.

لقد وُلد عبد المطلب الأمين في دمشق في العام 1916 ونشأ في كنف والده المرجع الديني الكبير السيد محسن الأمين الذي كان مقيماً آنذاك في عقر بلاد الشام.

وفي دمشق قضى عبد المطلب نشأته الأولى وتدرَّج في مراحل الدراسة حتى دخول الجامعة والتخرج حائزاً إجازة في الحقوق سنة 1939.

ولم يكن عبد المطلب المتطلع إلى البعيد، والذي تجيش بين جوانحه قوى جبارة وصاحب المزاج المرح الصافي المتوثب والألمعية الفائضة والطموح المتوقِّد كقضيب المعدن الساخن ليقنع بالأمر السهل. فهو قد خُلق للمهام الصعبة، وللتحليق في بقاع الأرض، وما عليه إلاَّ أن يهمَّ بالإقلاع ليحمله براق الطموح إلى حيث امتدَّ بصره.

لقد كان لدى عبد المطلب من الحماسة والاستعداد الفطري والنفسي ما يَثْقُلُ وزنُه، وما يوازي بلغة الأرقام والفيزياء كذا وكذا كيلوواط من الطاقة الكهربائية. وقد ابتدأ مسيرته الحياتية على غير عادة المبتدئين والمتدرِّجين

والموظفين الصغار؛ لقد بدأ من فوق من آخر درجات السلم الوظيفي لا من الدرجة الأولى كما تقتضي قوانين العمل.

فقد نجح في اختيار الدخول إلى وزارة الخارجية السورية التي كانت آنئذٍ في طور التأسيس، وقيل إنَّه كان من مؤسِّسيها الأوائل. وإذا به بين عشية حلم وضحاه موظف في وزارة الخارجية وعضو في السلك الدبلوماسي وقد اختير ليكون أول رئيس للبعثة الدبلوماسية السورية في الإتحاد السوفياتي.

فكأنَّما عبد المطلب الأمين لم يكن طالبَ وظائفَ بل خائضَ مغامرات، ولكنَّ حبل الحظ كان قصيراً. فإذا بحسني الزعيم قائد أول انقلاب عسكري في سوريا يُقيل عبد المطلب من منصبه لاحتجاجه على هذا الانقلاب. فانتقل إلى وزارة الدفاع ليتولَّى رئاسة قسم التوجيه فيها، وليستمر في عمله في سوريا حتى حرب 1967.

وفي أثناء وجوده في سوريا، كان عبد المطلب ينشر بعض كتاباته وقصائده في الصحف السورية، متابعاً الحركة الشعرية وقارئاً الأدب العربي والتراث الشعريّ القديم، ومطَّلعاً على آداب الغرب وثقافته من منابعها الأولى، إذ كان يجيد ويتقن عدداً من اللغات الأجنبية هي الفرنسية والإنكليزية والفارسية والروسية.

وبعد مغادرته دمشق وهَجْرِ العمل الدبلوماسي والسياسي تنقَّل في كل من الكويت والعراق حيث مارس المحاماة في الكويت، ومهنة التعليم في العراق مدرِّساً في دار المعلمين الريفية في بغداد.

وحين عودته إلى وطنه لبنان، تولَّى عبد المطلب منصباً قضائياً قبل أن يدخل المرحلة الأخيرة من عمره، التي أمضاها في شبه إقامة جبرية تقريباً موزِّعاً وقته وهمومه المتراكمة ومعاناته ما بين منزله في منطقة النهر في بيروت وقريته الجنوبية: شقرا.

هذا هو الموجز المختصر جداً لحياة الشاعر عبد المطلب الأمين حاولت أن أضغطه قدر الإمكان ليكون أقرب إلى "ميكروفيلم" شاعراً بأنني كمَنْ يُدخل جمل الحياة في ثقب إبرة، أو كالسينمائي الذي يضغط أحداث فيلم برمَّتها في شريط بحجم الكف.

لذلك لا أزعم أنَّني وفَّيت الشاعر حقَّه، ولا استطعت أن ألتقط لا بعيني ولا بعين قلمي ولا بعين الكاميرا تفاصيل الحياة التي عاشها عبد المطلب لأنَّ بعضها كما أظن أبعدُ من حدود الرؤية.

ولعلِّي لا أستطيع أن أصف الوحشة القاسية التي كابدها عبد المطلب في ساعاته الأخيرة، وفي ذلك الركن القصي من هذا الوطن ومن هذا العالم الذي لجأ إليه لجوء الأسد الجريح إلى عرينه، غريباً، متألِّماً، عارياً إلاَّ من ورقة الشعر التي تكشف ولا تستر.

ولذلك سأستعيد هنا بعض ما قاله محمد شرارة: "عبد المطلب الأمين، الشاعر الحساس، الذي فقده الأدب العاملي خصوصاً والأدب العربي عموماً، هو واحد من أبرز أدباء جبل عامل (الجنوب)، وواحد من ألمع شبابه الذين غنّوا بؤسه وواكبوا انتفاضاته، وأسهموا في بذر بذور ثورته على الإقطاع والتخلُّف والرجعية.

غاب هذا الشاعر الإنسان بصمت، كما عاش أيامه الأخيرة بعيداً عن دائرة الضوء. ولكن الذين سيدرسون تاريخ الجنوب بالغد، سيرون أنه كان في قلب الحدث الثوري الصاخب".

ويقول زهير مارديني أيضاً: "كان عبد المطلب رجلاً يعيش خارج جسده.. ككل الشعراء الذين لا يعرضون بضاعتهم في سوق نخاسة الشعر، كان شعوره هو سر شقائه ومعاناته".

نستخلص من هاتين الشهادتين كم كان الشاعر عبد المطلب الأمين مترفِّعاً عن سفاسف الحياة، عفيف النفس، زاهداً في المناصب والألقاب وفي بهارج الدنيا وعذاباتها وملذَّاتها ونعيمها ونعمائها ومطامعها التي لا تنتهي.

النتاج الضائع

يُقال إنَّ معظم النتاج الشعري لعبد المطلب الأمين قد اندثر. وليس هناك من معلومات واضحة عن أسباب فقدان هذا النتاج إلاَّ ما هو متناقل مشافهة عن ضياع الكثير من قصائد عبد المطلب التي كان ينشرها في الصحف السورية آنذاك. ويُقال أيضاً إنَّ عبد المطلب لم يكن ليهتم بحفظ أشعاره التي تذهب الروايات إلى أنَّه كان غزير الإنتاج، ولم يكن يرى حرجاً في الكتابة حتى على علبة السجائر التي يحملها حالما تباغته الحالة الشعرية، سواء أكان في سيارة أم في مقهى أم في أي مكان آخر!

ومهما تكن الظروف أو الأسباب التي لم تحمل عبد المطلب على جمع شعره، فهي ستبقى محيّرة ومدعاة للتعجُّب والاستغراب.

أما ما نجا من تلك الأشعار فمجموعة قليلة جداً من قصائده التي تولَّى جمعها شقيقه المؤرِّخ حسن الأمين وأصدرها في كتاب صغير الحجم عن المطبعة العاملية في بيروت في العام 1976 وذلك بعد وفاة عبد المطلب بنحو سنتين تقريباً.

وقيل إنَّ القصائد التي استبعدها السيِّد حسن وأعمل فيها مقصه الحاد نتيجة مخالفتها لذائقته الكلاسيكية وشروطه الإيمانية والدينية والأخلاقية الصارمة، هي الأكثر تعبيراً عن منحى عبد المطلب الاجتماعي والثوري والتهكمي والوجودي.

وقد حلَّت عليها اللعنة لأنَّها تنتمي إلى مدرسة الشعر الخمري التي تعكس بصدق منزع عبد المطلب التحرري، وحسّه النقدي الكاريكاتيري الذي تجلَّى في قصائده الساخرة التي كان يعارض بها بعض قصائد الشعراء المشهورة كقصيدة سعيد عقل عن القدس التي غنَّتها فيروز. وقد ذاع صيت هذه القصيدة المعارضة وراحت تتردد على ألسنة جيل تلك الحقبة الناقم والغاضب والمتمرِّد لما كانت تنطوي عليه من نقدٍ لاذع وسخرية مريرة.

وبذلك فالظلم الذي تعرَّض له عبد المطلب ظلم ثُلاثي الأبعاد: مرَّة بانفضاض "الندامى" والمجتمع عنه في الهزيع الأخير من حياته، ومرَّة أخرى بعد مماته بموت أشعاره الخارجة من معطف مرارته وألمه إمَّا غرقاً في لجَّة الصحف والإهمال والنسيان، وإمَّا ذبحاً على حاجز الرقابة وسلطة التحريم والتأثيم. وهنالك ظلم ثالث يتمثَّل بإغفال عبد المطلب وشعره من قِبَل الباحثين والمهتمين بقضايا الشعر والتراث الأدبي والثقافي.

وكل ما ناله من نصيب متأخر هو محاضرة ألقاها د.محمد علي مقلِّد في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي ببيروت تناولت شعره وحياته منذ رحيله، وقد نُشرت في كتاب "وجوه ثقافية من الجنوب" الذي أصدره المجلس الثقافي للبنان الجنوبي عن دار ابن خلدون في العام 1981.

النزعات الأساسية في شعر الأمين

تستوقف القارئ لشعر عبد المطلب الأمين عدة اتجاهات أو نزعات تعبِّر عن رؤيته الشعرية، مثلما هي تشير في الوقت نفسه إلى القضايا المهيمنة على شعره والتوجهات والهموم الرئيسية المرتبطة بثقافته وميوله وانتمائه الفكري وتأثُّره بمعاناة الكادحين والمقهورين المكافحين من أجل الرغيف والتخلُّص من سياسة التمييز واللاَّمساواة.

ومن هذه النزعات

النزعة الحماسية أو الوطنية ــ الثورية

وهي نزعة بارزة في شعره تضرب عميقاً في المركَّب الثقافي ــ الفكري ــ السياسي ــ الأيديولوجي للشاعر تتجلَّى في قوله:

لا شيء إلاّ الشــعب حــيٌّ خالــدٌ والباقيـــات سفاســـف وفنـــاءُ

كل الطغــاة علـــى تــراب نعالـــه تهوي وتَســحق رُمَّــة شــوهاءُ

لو يقــرأ التــاريخَ طاغيــةَ لمــا عصــفت بتافــه عقلــه الخــيلاءُ

قَــل للطغـــاة الســـادرين بغـــيهم   حان القطاف أأرغمــوا أم شـــاؤوا

نلاحظ في هذه الأبيات عنفوان الشاعر الذي يتفجَّر غيظاً وحمماً، مرتكزاً في ثورته هذه على إيمان عميق بانتصار الشعب في معركته الأزلية مع الطاغية أو الحاكم الأوحد، الذي لتضخُّم أناه ونرجسيته القاتلة لا يرى صورته الحقيقية في المرآة، وإلاَّ لكان تحسَّس تفاهته وضموره الفكري، ولأيقن أنْ لا خلود إلاَّ للشعب لأنَّه المنتصر حتماً مهما امتدَّ الشوط في مقارعة الطغيان، وأنَّ مآل الطغاة هو الزوال متى "حان القطاف".

وهي عبارة تدل على حتمية السقوط، وأنَّ دور الباغي آتٍ مع حلول أوانه أو موسمه. وهذا ما يُستدل عليه من لفظة "القطاف"، والمعروف أنَّ القطاف خاص بالثمار، وللثمار موسم أو فصل زمني لكي تنضج وتصبح صالحة للقطاف. وهي هنا تحيل على عملية القطع التي تنتظر رؤوس الطغاة بعدما تنضج هذه الرؤوس في أوانها أي في الفصل المخصَّص لها وهو فصل الثورة.

وبموجب هذا المنحى التحليلي يقسم الشاعر الزمن أيضاً إلى مواسم، مما يلمح إلى ضرورة الربط بين زمن طبيعي ــ فيزيائي ــ تتحكَّم فيه قوانين الطبيعة وزمن بشري تتحكَّم فيه إرادة الثوار إذا ما اتبعوا منهجية تقسيم الزمن الثوري إلى مواسم. وتبعاً لهذه السيرورة الإنسانية ــ التاريخية ــ النضالية، ما على الثوار إلاَّ أن يستغلوا فصل الحراثة ليبذروا بذور الثورة في أثلام الشعب، ليحصدوا بعد ذلك الموسم الوفير من جماجم الطغاة والمستبدِّين في فصل الحصاد!

وقل الأمر نفسه إذا ما ارتأيت أن تقيس هذه القوانين على الشجر لا القمح، فالنتيجة في كلا التصورين واحدة سواء حصلت على رأس الدكتاتور عبر القطاف أو الحصاد.

ولنلاحظ في تركيزه على قدرة الشعب كيف أنَّه يجعل منه هو صاحب القضية وهو صاحب الخيار المطلق في تحديد مصيره. بل إنَّه يحمله المسؤولية الكاملة عن هذا المصير لأنَّه هو من يمتلك الحل، وإليه يعود زمام المبادرة لتغيير مسيرة الزمن باتجاه المجتمع البديل الأفضل. أي حسب قول الشاعر هو الجريح وهو مالك الدواء:

يا شعب جرحك في يديك وبين كفَيــك الــدواءْ

وفي قصيدة أخرى كتبها في عهد حسني الزعيم في سنة 1949 عنوانها "في رثاء طاغية وكل طاغية"، تشتد نبرته وتعلو أكثر في وجه المستبد من دون تمييز بينه وبين سلالة المستبدِّين على مدى العصور والآجال، جاعلاً ظهره أبداً إلى ظهر الشعب مستظهراً به ومتنبئاً بسقوط الطاغية مهما بدل من جلود الفرعون فمصيره لا محالة إلى الزوال وبئس المصير. يقول عبد المطلب ملمِّحاً إلى الزعيم:

أحياة حبس في سجونك أم نزول فـــي القبـــور؟

قد كان قبلك من طغوا هلاّ سألت عن المصـــير؟

جدُّوا وأسرع سيرهم لكن إلـــى شـــوط قصـــير

الشعب مدَّ لهم إلــى يــومٍ عبــوسٍ قمطريــر

والزعيم هو الذي كان قد عاقب عبد المطلب الأمين على عدم رضاه عن سياسته وعهده الانقلابي الأول الذي مهَّد الطريق أمام العسكر في بعض الأنظمة العربية للوصول إلى "جنة السلطة" عبر أكل تفاحة آدم (الحنجرة)، ليصبح ذلك نهجاً سرمدياً لأمثاله لطرد آكلي تفاحة الديمقراطية من ذلك الفردوس إلى جحيم الدولة ومعتقلاتها، التي تحولت إلى أقفاص للثوار ومصدر استمتاع للديكتاتور الذي كلما اشتاق إلى طير في قفص، أمر بإحضار أقفاص الثوار للتفرُّج والاستماع إلى أنين المعذَّبين عوضاً عن أغاني الطيور!

ويهزأ الشاعر من المناصب التي تتحول إلى أدوات استغلال بيد السلطان الجائر الذي ينتهك الكرامات وينحر القيم والمبادئ، ولا يتورَّع أبداً عن اللجوء إلى أساليب الغدر والتضليل لحمل الناس على الخضوع، جاعلاً من كرسيه أشبه بشرك لاصطياد المرائين والأنصار وبأي ثمن من الأثمان أو طريقة من الطرائق. فيقول:

شرف المناصب أن تطأطئ للــذي للشــعب طأطــأ رأســه مختــارا

لا من أقام علــى قمامــة رأســه كرســـيه يتصـــيَّد الأنصـــارا

نزعة التهكُّم والسخرية

ما يُشاع عن عبد المطلب الأمين الظرف وحب الدعابة والسخرية. وهي ظاهرة تستوجب التأمُّل لما كان يتنازعه من أضداد، فهل كانت الظرافة سوى قناع خارجي يخفي ألماً داخلياً كان حريصاً على عدم اطِّلاع أحد على هذا السر الدفين، كحرص صاحب بئر على أن تبقى فوهتها مغطاة وبعيدة عن أنظار المتطفلين والدخلاء العابثين بأسرار الناس؟

لقد تميَّز عبد المطلب الأمين بحسِّه الفكاهي وطبعه الدمث وسرعة البديهة وقوة العارضة وتوقُّد الذهن، مستقبلاً الندماء والأصحاب ببشاشة ومرح، قابضاً على زمام الأحاديث، لا "يعلو" صوت فوق صوته إذا غضب أو رغب.

وظاهرة كهذه إنَّما تدل على ذكاء وعمق ثقافي وثقة بالنفس وتمتُّع بملكة التأثير حتى لكأنَّه القطب المغناطيسي الذي يجتذب معادن الجلساء ويأسرهم بملكة المفاكهة والمزاح. وتتجلَّى هذه النزعة التهكُّمية لدى الأمين في قصائده التي تعكس روحه المرحة، فلنسمعه في قصيدة "انقلاب":

يا بؤس هذا الانقــلاب وذل هــذا المنقلـــب

ماذا تبدَّل غير توزيع المناصـــب والرُّتَـــب؟

ماذا استجدَّ سوى التذمُّر والبطالة والشَغب؟

ما زال يحكم مَنْ تجسَّس واستغلَ ومَنْ نهب

إنْ يقطعوا ذنباً من الأفعى فقد ولــوا ذنــب

ويطرق فن المعارضة أيضاً في قصيدة كتبها بعد هزيمة 1967 معارضاً بها قصيدة للشاعر أحمد شوقي مطلعها:

قَمْ ناجِ جلّق وانشد رسم مَنْ بــانوا　　مشت على الرسم أحداثَ وأزمــانُ

فيقول الأمين:

نَمْ وانسَ جُلّق واندُبْ حظَّ مَنْ هانوا　　علـــى الأرائـــك أطفـــالَ وغلمـــانُ

مررت في معرض التاريخ أســأله　　هل للعروبةِ فـــي البـــازار دُكّـــانُ؟

ما نحن في معرض التاريخ: أقفيةَ　　أمْ أنّنـــا قـــيمٌ تســـمو وإنســـانُ

كل الشـــهور وصـــمناها بمـــأثرةٍ　　وكان آخر مَـــنْ قاســـى حزيـــرانُ

وقبلـــــه كــــان آذارٌ وثورتـــــه　　وجاء من بعــدُ تشــرين ونيســـانُ

أمَّا شباطَ فلــم نتــرك بـــه رمقـــاَ　　للثـــــائرين فللثـــــوار أحـــــزانُ

وارحلْ لسيناء واسألْ في متاهتهـــا　　عن المُشير وقــد وارتـــه أكفـــانُ

مَنْ تاه فيها: أَموسى في جماعتـــه　　أم جيشه اللّجْبُ حفيـــانٌ وعريـــانُ

سَلِ الحشيش سَلِ الأفيون إنْ فرغــت　　حقائـــــبٌ ففـــم التـــاريخ مـــلآنُ

النزعة الاجتماعية ـــ الطبقية

لهذه النزعة في شعر عبد المطلب الأمين منطلقاتها الفكرية التي تعبِّر عن رؤية واضحة لا تقبل الخلط بين اللونين المتعارضين الأبيض والأسود، فإمَّا في هذا الفسطاط الطبقي وإما في ذاك. ومثل هذا الفرز البيِّن لا يمكن أن يتأتَّى إلاَّ عن إعطاء اللون الاجتماعي ـــ الطبقي بُعده الصراعي في الخصومة الحتمية بين الظالم والمظلوم. وفي مثل هذا الوضوح الرؤيوي والتمييز الصارم بين النقيضين الاجتماعيين، يتجلَّى موقف الشاعر الحاسم لأيِّ جدلٍ مهما تكن أسبابه وغاياته، وذلك بالوقوف إلى جانب المستغَل ضد المستغِل. وهو موقف يأتي في سياق ثورة عبد المطلب الأمين على الإقطاع السياسي الذي كان سائداً في عصره، وما كان يمثِّل وقتئذٍ من محتوى اجتماعي وثقافي ومادي وسياسي وإقتصادي. ومثل هذا الواقع الذي كان يكرِّس حالة التخلُّف والانشقاق الاجتماعي والغُبن المادي ـــ السياسي بأبشع صوره وأساليبه ووجوهه التنكُّرية، والذي كان مصدر المعاناة للشاعر، لم يتبدَّل منه حتى يومنا هذا إلاَّ الاسم وبقي المُسمَّى وحده إلى حين تبيضُّ ولو ريشة واحدة من غراب هذا النظام الطائفي ـــ الاقطاعي، الذي لا بديل عنه لبناء الدولة الحديثة المعاصرة ـــ دولة المؤسسات والقوانين المدنية، ولتحقيق إنسانية الفرد ـــ المواطن، إلاَّ بقيام المجتمع المدني ـــ الديمقراطي العلماني.

واستناداً إلى رؤية عبد المطلب الأمين الثورية، فإنَّ الصراع الاجتماعي محسوم لمصلحة المعدم في مواجهة المُتخَم. وهي رؤية قائمة على الإيمان بقدرة الإنسان على صُنع مصيره بإرادته الحرَّة:

وأومِنُ بالإنسـان قـدرة خـالقٍ وتجسـيد إبـداعٍ ورمـز تقـدُّم

وثـورة مسـحوقٍ وعـزَّة ثـائرٍ وسـحقة متخـومٍ بأقـدامِ مُعـدم

النزعة التأمُّلية الفلسفية

تتبدَّى مثل هذه النزعة في شعر عبد المطلب الأمين عبر ومضات خاطفة خصوصاً في قصيدته "الجواب المريب" التي أقتطف بعضاً من أبياتها للتدليل على ذلك:

إلـى أيـن يمضـي بنـا ركبنـا عنيفـاَ لجوجـاَ علـى عمرنـا

وحتّـامَ يعصـف فينـا القضـاء وتـودي الريـاحُ بأسـمالنا

ومَـنْ ذا يُجيـبُ علـى سـؤلنا أصـمتَ المقـادير أم صـمتنا

مللنا انتظـار الجـواب المريـب فكنّـا الجـواب علـى سـؤلنا

مع جهلنا لتحديد تاريخ كتابة هذه القصيدة لسببين: عدم معرفة مقدار الجزء الضائع من شعر عبد المطلب الأمين من جهة، وعدم معرفة التسلُّل الزمني للقصائد الباقية التي هي موضوع هذا البحث؛ أرجِّح أنَّ تاريخ كتابتها أقرب إلى المرحلة الأخيرة من حياة الشاعر، لأبني على هذا الاحتمال استنتاجاً بأنَّ هذه الأبيات إنَّما تعكس ما بدأ بالتسلُّل إلى نفسه من إحساس بالانكسار والخيبة، بُعيد الابتعاد أكثر فأكثر عن العالم الخارجي، والاستغراق في هواجس الذات وشؤون الباطن، وانكشاف زيف الواقع الخارجي، وصخب

الشعارات الخادعة التي بسقوطها المدوِّي تصمُّ الآذان. وذلك ما يمكن تلمُّسه من خلال هذه القصيدة نفسها:

ونحــــن الكبـــــار بآمـــــالهم صــــــغارٌ بخيبـــــاتِ آمالنـــــا

صـــغارٌ لأنّـــا بعـــرف الحيـــاة نَفلســـــف إســـــفاف أوهامنــــا

النزعة الرومانسية والغزلية

يُستدل على معالم الاتجاه الرومانسي لدى عبد المطلب الأمين، من خلال عناوين قصائده والموضوعات التي تنتمي إلى القاموس الخاص بالمدرسة الرومانسية. فهناك الشكوى والعتاب والتوجُّع وتحطُّم العالم الذي لا منجى منه إلاَّ في الفرار من الخارج، والاعتصام من هذا الطوفان المدمِّر ليس بفلك نوح، بل بفلك الداخل لأنَّه هو جبل "الجودي" العاصم من الغرق.

فإذا بالشاعر ليس "إلاَّ مجتر آهات" كما يقول:

أجترُّ آهــاتي وأعصــرُ مُهجتـــي أقتاتَ من جودِ الســـراب المُعــدِمِ

لم يبقَ لي إلاّ الكــؤوس نواصـــراَ وبلاسماَ في مهجتي في أعظمـــي

فهل هناك أعظم من هذا البلاء حين لا يبقى من بلسمٍ سوى الكؤوس؟ وماذا تُرى تحتوي هذه الكؤوس لتبقى هي الوحيدة مصدر العلاج والشفاء؟

أما في الغزل فلنا شواهد يمكن تعقُّبها في زوايا متفرِّقة من قصائد الأمين ومنها:

والنَّهدُ في عــين الأنامــلِ جمــرةَ وعلى الشَّــفاهِ تصــوُّفَ وتحسُّــرُ

ومــع العيــونِ إذا ســما رُمَّانــةَ تختــالَ فــي أخواتهــا تتبختــرُ

ومن قصيدة أخرى نقتطع هذه الأبيات:

عودي ولا تصغي لمــرٍّ شــكاتي فلقد حبستَ على الهوى زفراتــي

شفتي وكأسُــكِ ظامئــان فهلَّــي للمــاجنَيْن: الخمـــرِ والقـــبلاتِ

وتخيَّري لحــن الخلــود تصــوغه شفةَ الشــباب وأنمــلَ الشَّــهواتِ

وفي باب الغزل أمثلة أخرى أيضاً منها:

محمومة الشفتين لو نطــق الــدمُ لم يعد مــا تهــذي بــه وتتمــتمُ

آمنتَ بالظمــأ الــذي لا يرتــوي وفَتنــتَ بــالثَّغر الــذي لا يبســمُ

هو فــي لمــاكِ لبانــةَ منهومــةَ وعلــى شــفاهكِ شــهوةَ تــتكلمُ

النزعة الوجودية ـ البوهيمية

عُرف عن عبد المطلب الأمين أنه كان كتلة متوهجة من النشاط والطموح، منتهجاً في الحياة على المستوى الشخصي مسلكاً وجودياً يجسِّد مفهوم الوجوديين الذي يرى أنَّ الوجود ليس هبةً تُمنح من أحد، ولا معطىً خارجياً، بل هو تجربة ذاتية تقوم على الممارسة الحرة والاختيار الحر بعيداً

عن الرقابة الخارجية التي ليست سوى جلاَّد الذات الذي يستوجب حضوره، جدلاً، حضور الضحية.

وأصدق ما يمثِّل هذا الاتجاه هو هذه الأبيات:

أنا مَنْ منحتَ العمرَ إكسيرَ الهنـــا — من فيض بـــوهيميتي المترامـــي

فلسفتَ هذا العمر فلســفةَ الأَلـــى — عرفوه معرفـــة الشـــريد الظـــامي

في حانتي في وحشـــتي وظلامـــي — فـــــي زحمــــة الأســــقامِ والآلامِ

هبَّت على القلب الرضيع نَســيمةً — للـــــذكريات عطورهـــا بعظـــامي

فاستيقظ القلب الملول وضاع فـــي — صـــمت الســـعادة واقـــع الأيـــام

ومضيتَ أجتـــرُّ الزمـــان ورفـــده — وصداه والموؤود مـــن أحلامـــي

النزعة الإنسانية

تتجلَّى هذه النزعة في شعر عبد المطلب الأمين في أنصع صورها ومدلولاتها، فتكشف عن عمق نظرته الإنسانية التي تتهدم دونها الحدود والسدود، وتنهار حواجز اللون والعرق والجنس، لأنَّ ما يربط الإنسان بالإنسان هو وحدة الوجود التي تسمو فوق الروابط الأخرى التي هي من صنع الجغرافيا والتاريخ وضرورات العيش وتضارب المصالح والهويات المتباينة.

يقول الشاعر في رثاء أبيه:

وقفتَ على القبرِ وا لوعتي فقلبي جراحٌ وجرحي فمُ

أبانا وكم من شقيقٍ لنا شريك الحنان ولا نعلمُ

فقد وسعت نفسك الخافقَيْن نفوس الورى حولها حُوَّمُ

وموطنك الخير أنّى سرى وأهلوه أهلوكَ إن ينتموا

مصادره الثقافية

إضافة إلى النزعات التي تحدَّثنا عنها، تنبغي الإشارة إلى أهم المصادر التي استمدَّ منها الأمين صوره ورموزه. وعلى رأس تلك المصادر الثقافة الدينية الإسلامية والمسيحية التي تتبدَّى آثارها بوضوحٍ في شعره. وسأكتفي هنا بذكر الجذور الشيعية التي تدل على مدى تأثُّر الشاعر بتراثه الثقافي والفكري والشيعي، فهو يقول في قصيدةٍ يرثي بها شقيقته:

أَختاه يا بضعةَ من "محسنٍ" غَرُبتَ ما أعذبَ الجرس لمَّا قلتَ أَختاه

ذكرتَ زينبَ إذْ نادى الحسينُ وفي أذن الزمان نشيجٌ من رزاياه

منّا "عليٌّ" إمامُ الحقَ من دمه وردُ الفَلاح ومنّا الصيدُ إبناهُ

وفي الطّفوفِ لنا جودٌ على ظمأ وغاية الجود ما يحبوه ظمآهُ

ســـر الكـــأس

وأخيراً، ستبقى سيرة عبد المطلب الأمين ناقصة كما قلت، والكلمة الفصل رهنٌ باستعادة الجزء المفقود، لأنَّه، يحتوي على السرِّ الدفين الذي غاص في غيابة الضياع غارقاً بغرق الصندوق الأسود.

ولأنَّ بعض السر في "الكأس"، لنستمع إلى عبد المطلب يخاطب الكأس:

أنت نايي يا كأسُ والــنّغمُ الحلــوُ عطـــاءٌ فـــي كفَــك الخرســـاءِ

أعوزتني صــداقة النـــاسِ فـــاملأْ بحطـــام الأوهـــامِ فقـــر فضـــائي

لامني الناس فـــي رفاقـــة كأســـي يحرمون الأعمى عصـــا الاهتـــداءِ

منشـــورات

المجلس الثقافي للبنان الجنوبي

---

1 ــ خطر إسرائيل على لبنان الجنوبي: المهندس عبد الله عاصي ــ 1968.

2 ــ مشروع الليطاني : المهندس جعفر شرف الدين ــ 1974.

3 ــ الاعتداءات الإسرائيلية على جنوب لبنان ــ 1978.

4 ــ في نتائج العدوان الإسرائيلي على جنوب لبنان ــ 1979.

5 ــ صفحات من تاريخ جبل عامل ــ 1979.

6 ــ وكل الجهات الجنوب (مجموعة شعرية) ــ 1979.

7 ــ معاً من أجل الجنوب ــ 1979.

8 ــ جنوب لبنان خط المواجهة الأول ــ 1980 .

9 ــ وجوه ثقافية من الجنوب (جزء أول) ــ 1981.

10ــ جنوب لبنان مأساة وصمود ــ 1981.

11ــ شهادات على حاشية الجنوب: حبيب صادق ــ 1981.

12ــ من دفتر الذكريات الجنوبية (جزء أول) ــ 1981.

13ــ الدليل ــ مكتبة جبل عامل ــ 1981.

14ــ الأبعاد السياسية لقضية الجنوب اللبناني ــ 1981.

15ــ دراسات حول جنوب لبنان ــ 1981.

16ــ في رحاب الخيام (شعر) (تراث عاملي) الشيخ عبد الكريم صادق ــ 1984

17ــ حسن العواقب ــ زينب فواز (تراث عاملي) تحقيق فوزية فواز ــ 1984.

18ــ الهوى والوفاء ــ زينب فواز (تراث عاملي) تحقيق فوزية فواز ــ 1984.

19ــ المقاومة الوطنية اللبنانية ــ طريق التحرير والوحدة ــ 1984.

20ــ عامان من الاحتلال ، عامان من المقاومة ــ 1984.

21ـ وجوه ثقافية من الجنوب (جزء ثانٍ) ـ 1984.

22ـ من دفتر الذكريات الجنوبية (جزء ثانٍ)

23ـ عشرون عاماً للجنوب والثقافة الوطنية ـ 1985.

24ـ المقاومـــة والثقافـــة ـ 1985.

25ـ المقاومة في التعبير الأدبي ـ 1985.

26ـ الوقائع اليومية لمسيرة المقاومة الوطنية اللبنانية ـ 1986.

27ـ قلنا لنزيه القبرصلي ـ شعر لعارف الخاجة ـ 1986.

28ـ ماذا لو تركوا الخيل تمضي ـ شعر لناصر جبران ـ 1986.

29ـ النشـــيد ـ قصص من الإمارات ـ 1986.

30ـ حجـــارة الضـــوء ـ 1988.

31ـ ثقافة المقاومة ومواجهة الصهيونية ـ 1989.

32ـ خمسة وعشرون عاماً للجنوب والثقافة الوطنية ـ 1990.

33ـ مقاربات وشهادات: حبيب صادق ـ 1991.

34ـ ســـلام الراســـي: شيخ الأدب الشعبي ـ 1991.

35ـ ريـــاح الخريـــف: شعر زهرة الحر ـ 1992.

36ـ دفاعاً عن الاثار والمباني التاريخية في لبنان ـ 1994.

37ـ الروابي العاملية: شعر محمد جعفر ـ (تراث عاملي) ـ 1995.

38ـ الإحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان وتحديات المرحلة ـ 1995.

39ـ حسين مروة في مسيرته النضالية فكراً وممارسة ـ 1997.

40ـ تحية حب إلى جوزف صقر ـ 1997.

41ـ رسالة وفاء وحب إلى سهى بشارة ـ 1997.

42ـ لبنان في تحولات المشروع الإسرائيلي: محمود حيدر ـ 1998.

43ـ على بوابة الوطن "دهاليز الخيام" : د.أميرة الحسيني.

44ـ الرقص على رماد الهيكل، شعر علي محمد هاشم ـ 1999.

45ـ ديوان الشاعر الزجلي: توفيق عبد الكريم صبّاح ،إعداد وتقديم: حبيب جابر ـ (تراث عاملي) .1999

46ـ الفنان حسني عوالـــي: حلم.. لم يتحقق ـ .1999

47ـ أمـــواج ورمـــال: شعر للدكتور نديم دعكور ـ .2000

48ـ انتصاراً لقيم الديمقراطية والعدالة وتقدم الإنسان

إشراف وتقديم: حبيب صادق ـ 2000.

49ـ تجديد الفكر السياسي من أجل التغيير: إشراف وتقديم حبيب صادق ـ .2001

50ـ مجلـــة "مجـــالات " الأعداد: الأول والثاني والثالث ـ .2001

51ـ ديوان "أوزان " للشاعر السيد محمد رضا شرف الدين ـ (تراث عاملي) 2001.

52ـ ديوان "العدالة والحياة" للشاعر القاضي محمد علي صادق ـ .2001

53ـ كتالوج معرض "أطياف عربية" ـ .2001

54ـ ديوان الشاعر السيد جعفر محسن الأمين : تحقيق وتقديم: حبيب جابر ـ (تراث عاملي) 2002.

55ـ قيس ولُبنى (تمثيلية شعرية) السيد محمد رضا شرف الدين ـ (تراث عاملي) 2002

56ـ كتالوج معرض " متاهات الأسئلة" للفنان السوري سعد يكن ـ .2003

57ـ نزهة الأنفس في محاورة الورد والنرجس: تأليف الشيخ أحمد رضا العاملي

تحقيق وتقديم: حبيب جابر ـ (تراث عاملي) ـ 2003.

58ـ ديوان "صلاة الشوق" للقاضي أحمد شحادة، تحقيق سالم سبيتي ـ .2003

59ـ "الأمثال العامية في جبل عامل" للسيد جعفر محسن الأمين، تحقيق: جواد صيداوي (تراث عاملي) 2004.

60ـ كاتالوغ "أربعون عاماً للوطن والثقافة" ـ .2004

61ـ التربـــة (دفاتر الاقتراحات) ـ 2004

62ــ الميـــاه (دفاتر الاقتراحات) ــ 2004

63ــ في الاقتصاد: الديون وتعديلها (دفاتر الاقتراحات) ــ 2004

64ــ التجارة العادلة (دفاتر الاقتراحات) ــ 2004

65ــ الحكم العالمي الصالح (دفاتر الاقتراحات) ــ 2004

66ــ الحكم المحلي الصالح (دفاتر الاقتراحات) ــ 2004

67ــ التربيـــة (دفاتر الاقتراحات) ــ 2004

68ــ قضايا المرأة (دفاتر الاقتراحات) ــ 2004

69ــ جعفر محسن الأمين: سيرة وعامليات ــ إعداد أكرم جعفر الأمين ــ تحقيق جواد صيداوي ــ (تراث عاملي) ــ 2004.

70ــ طرفة الطرائف وزبدة المعارف للشيخ أحمد رضا ــ تحقيق وتقديم: حبيب جابر (تراث عاملي) ــ 2006.

71ــ ديوان "شاعرة الجنوب" للشاعرة بسيمة فخري ــ (تراث عاملي) ــ 2006.

72ــ أربعون عاماً للجنوب والثقافة الوطنية ــ 2007.

73ــ ديوان "سقط المتاع" للشاعر العلاَّمة الشيخ عبد الحسين صادق ــ (تراث عاملي) 2007.

74ــ الأدب المهجري (شعر) للشاعر منير صالح (فتى الدواوير) ــ الجزء الأول 2007.

75ــ الأدب المهجري (شعر) للشاعر منير صالح (فتى الدواوير) ــ الجزء الثاني 2009.

76ــ "الشيخ أحمد رضا العاملي لغوياً" للباحث محمد سماحة عوض ــ 2009.

77ــ "سوق المعادن" للشيخ محمد علي عز الدين ــ (تراث عاملي) ــ 2009.

78ــ "كأنِّي على الماء أجري" للشاعر علي هاشم ــ 2009.

79ــ "دليل جنوب لبنان كتاباً" إشراف وتحقيق وتقديم: حبيب صادق ــ 2010.

80ــ الأعمال الكاملة للمغفور له الشيخ علي سبيتي ــ 2010.

محتـــوى الكتـــــاب

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

ـــــ نـــدوة صـــور ـــــ

ـــــ نـــدوة مرجعيـــون ـــــ